

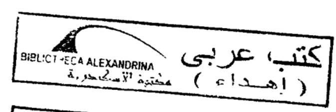
المشروع القومى للترجمة



تأليف : شبلى النعمانى
ترجمة وتعليق : جلال السعيد الحفناوى
تقديم ومراجعة : سمير عبدالحميد إبراهيم

437

المشروع القومى للترجمة



رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى

تأليف : شبلى النعمانى

ترجمة وتعليق : جلال السعيد الحفناوى

تقديم ومراجعة : سمير عبد الحميد إبراهيم



المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٦٠
- رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى
- شبلى النعمانى
- جلال السعيد الحفناوى
- سمير عبد الحميد إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

هذه ترجمة لكتاب :

شبلى النعمانى

سفر نامه روم ومصر وشام

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El. Gabalaya St. Opera House, El-Gezira, Cairo.

Tel. : 7352396 Fax : 7358084 E-Mail : asfour @ onebox. com

تقديـــم

ولد العلامة محمد شبلى الملقب بالنعمانى سنة ١٢٧٤ هجرية / ١٨٥٧ م ، درس العربية والفارسية والأردية ، وارتبط بحركة « عليكره » التى أسسها سيد أحمد خان ، لكنه انفصل عنها وبدأ فى دعم « دار العلوم » ندوة العلماء فى محاولة للتوفيق بين التعليم القديم والتعليم الحديث ، لكن الأجل لم يمهله ليرى نتيجة جهوده ؛ فقد توفى فى الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٣٢ هجرية / نوفمبر ١٩١٤ م .

اهتم شبلى بتاريخ الأمة الإسلامية ؛ فأخذ يوضح – من خلال مؤلفاته – عظمة هذه الأمة ، وكانت رحلته إلى البلاد الإسلامية – التى يقدم المجلس الأعلى للثقافة اليوم ترجمتها العربية – سعياً منه للوقوف على نظام التعليم فى مدارسها وكلياتها ، والإفادة أيضاً من مكتباتها ، ولا شك أنه استفاد من لقائه بالمفكرين المسلمين فى عموم البلاد الإسلامية والعربية ، ولم يتحرج من ذكر هذه الحقيقة ، ولم يتحرج تلاميذه والباحثون فى الهند من ذكرها أيضا ، فمن المعروف أنه استفاد من محمد فريد وجدى حين كتب بالأردية عن علم الكلام ، كما استفاد من أساتذة الأزهر المبعوثين إلى دار العلوم ، واستفاد من الشيخ رشيد رضا ، وقد نشرت المنار مقالات علمية لشبلى ، كما استفاد من علماء المدينة المنورة وتركيا .

وسفرنامه روم ومصر وشام التى اختار لها الدكتور جلال الحفناوى اسم رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى من مؤلفات شبلى المهمة التى أكملها أثناء عمله فى كلية « عليكره » ، وكان قد كتبها بعد سفر طويل استغرق نصف عام ؛ فجمع معلومات مهمة عن المدارس والمعاهد العلمية والكليات وأسلوب التدريس والمناهج الدراسية ، وهى معلومات يصعب أن نجدها فى كتاب آخر ، وربما ينظر الأدباء فى الهند إلى هذا الكتاب نظرة أخرى ؛ فهم يعتبرونه جزءا من قصة حياة شبلى ، فهو لم يكتب عن مشاهداته فقط بل عبر عن أحاسيسه ومكنون قلبه ، وعن غيرته على أمته ، وانتقد سلوك المسلمين وتردى أحوالهم وتدهورها ، وبخاصة الأحوال الاقتصادية .

رغم أن شبلى سافر إلى البلاد الإسلامية سنة ١٨٩٢ ، إلا أن رحلته طبعت سنة ١٨٩٤ م أى بعد سنتين ، ويرجع السبب إلى أنه لم يكن ينوى الكتابة عن رحلته تلك ، ورغم أن سيد أحمد خان أشار عليه بكتابة هذه الرحلة ، حين ذكر له فى أحد خطاباته بأن ظروف الرحلة ، وما يحكيه عنها ، شيق وجذاب ، ويمثل مادة جيدة لكتابة « سفرنامه » ، ورغم أن أصدقاء شبلى ألحوا عليه كثيرا ليكتب عن رحلته ، لكنه كان قد قرر الإقلاع عن الفكرة تمامًا ، وتجدر الإشارة إلى أنه نشر عام ١٨٩٤ كتابًا بعنوان « حالة التعليم فى مصر » صدرت طبعته الأولى من عليكره اعتمد فيه بالطبع على المعلومات التى حصل عليها أثناء سفره وإقامته فى القاهرة .

لكن شبلى رغم هذا يقرر فى ٢٦ مارس سنة ١٨٩٣ م أن يسطر رحلته على أن تكون قاصرة على الجوانب العلمية والاجتماعية فقط ، وهكذا ظهرت الطبعة الأولى من الرحلة فى العام التالى ، وكان لظهورها أثر كبير فى إثارة مشاعر المحبة لدى أهل الهند تجاه تركيا ، مما أثار عليه الإنجليز الذين لم يغفروا له هذا الذنب أبداً .

حين خطط شبلى للسفر لستة أشهر أراد والى « رام بور» تحمل نفقات الرحلة ، لكن شبلى رأى من المناسب أن يتكفل هو نفسه بنفقات سفره ، وحمل عصا الترحال مغادراً - على كره - فى السادس والعشرين من أبريل من سنة ١٨٩٢م .

ركب السفينة ، ومر بعدن ، ووصل إلى بورسعيد ومنها إلى بيروت فالقسطنطينية ، وهنا يصف كرم ضيافة الأتراك ، ونظافتهم ، وتقدمهم العلمى ، وهنا تظهر طبيعة شبلى ؛ فهو رغم محبته للأتراك ، لا يحاول أن يخفى عيوبهم ؛ فكما يذكر المحاسن ، يذكر العيوب ، ويذم الرقابة على الصحف ويعدد مساوئ الرقابة على المطبوعات ، وأثر ذلك فى ظهور الكتب للقراء ناقصة غير مكتملة ؛ مما يؤدى إلى اعتلال المعنى وقصوره ، وهو حين يمتدح مكتبات تركيا وما تحويه من كتب ومخطوطات ، يعيب أيضا على المسئولين عدم اهتمامهم بترتيب الكتب ، وفتح المكتبات مدة ساعتين أو ثلاث فقط يوميا ، ونفس الشىء ينطبق على وصفه لما شاهده فى الشام ومصر .

كان هدف الرحلة - كما أشرنا - رغبة شبلى فى التعرف على حالة التعليم فى البلاد الإسلامية ، ومشاهدة المكتبات ، لجمع أكبر عدد ممكن

من الكتب لتأليف كتاب « الفاروق » وغيره من المؤلفات التاريخية التى كتبها شبلى ، وهكذا كان يتكبد المتاعب سعياً للوصول إلى المكتبات ، وقد كتب مرة إلى سيد أحمد خان يطلب منه مبلغ ٢٠٠ روبية حتى يتمكن من نقل ونسخ بعض الكتب القديمة التى تقع فى يده ، وكتب ما يلى :

« .. هنا كثير من الكتب النادرة ، لكن كيف لى بترتيب أمر نسخها ... سوف أبحث عن المخطوطات فى مصر ، وأكتفى بشراء الكتب المطبوعة من تركيا » .

وفى خطاب أرسله لوالده كتب :

« الكتب هنا غرائب وعجائب ، لكن ليس لى حظ سوى الحسرة ، فلا يمكننى نسخها ، كما أنه لا يمكننى أن أحفظها أو حتى أستوعبها ، أمشى كل يوم ثلاثة أميال تقريبًا ؛ لأن المكتبات بعيدة جداً عن مقر إقامتى .. » .

إذا ما تركنا المكتبات نلاحظ أن الشغل الشاغل لشبلى فى رحلته كان المدارس والمعاهد العلمية ، والمناهج الدراسية فيها ، وكذا الأنظمة المتبعة ، وقد كتب لوالده مرة يشير إلى إعجابه بالزى الموحد فى الكليات ، ويتمنى أن تتبع مدارس الهند وكلياتها هذه الطريقة ، وفى بيروت أقام شبلى أسبوعا بهدف لقاء الشيخ طاهر الجزائرى ، الذى كان بشخصه مكتبة تمشى على الأرض ؛ فهو يحفظ عن ظهر قلب أسماء الكتب النادرة وأسماء المخطوطات والمكتبات التى توجد فيها هذه الكتب والمخطوطات ، والتقى فى القدس أيضًا بالعلماء والأدباء .

فى القاهرة وصل شبلى إلى هدفه المنشود « الأزهر الشريف » ؛ حيث أقام فى حجرة برواق الشاميين ، ومن هنا بدأ يتفحص مناهج التعليم ؛ لأن القاهرة مركز للتعليم الجديد والقديم ، وقد أُعجب كثيراً بدار العلوم ، وتمنى أن يكون فى الهند مثيل لها ، كما زار مدرسة الحقوق ومدرسة الترجمة ومدرسة الطب وغيرها .

ومن مصر يعود مباشرة إلى الهند ، فقد انتهت المهمة ، وهذا يعنى نهاية الرحلة ، وحاول فى الهند أن يطبق عمليا ما كان يصبو إليه ، عن طريق تأسيس « دار العلوم » ندوة العلماء .

صدرت الرحلة فى طبعتها الأولى ، وفيها الكثير من الأخطاء المطبعية ، ثم أعيدت طباعتها سنة ١٨٩٩ م ، وسنة ١٩٤٠م، وصدرت عدة طبعات بها أيضًا أخطاء مطبعية كان آخرها سنة ١٩٦٨ م ، وفى سنة ١٩٨٦ صدرت طبعة منقحة اهتم بإصدارها الدكتور محمد رياض الأستاذ بجامعة العلامة إقبال المفتوحة بإسلام آباد ، وهى النسخة التى رجعنا إليها أثناء مراجعة هذه الترجمة الجيدة التى قام بها الدكتور جلال الحفناوى ، ويبدو أنها أيضًا كانت – فى معظم الأحيان – أمامه ، فقد استفاد منها فى وضع عناوين الكتاب الداخلية ، وإننى إذ أشكر للدكتور جلال الحفناوى همته العالية وجهده الكبير فى ترجمة هذا الكتاب ، أتوجه بالشكر إلى المجلس الأعلى للثقافة على اهتمامه بإصدار هذا الكتاب الذى سيستفيد منه بلا شك القارئ المتخصص والقارئ المثقف فى العالم العربى .

سمير عبد الحميد إبراهيم

حامدًا ومصليًا

كانت رحلتى إلى القسطنطينية (تركيا) وغيرها من البلدان (العربية) فى شهر رمضان المبارك سنة ١٣٨٢ هـ الموافق ١٨٩٢ م مجرد رحلة علمية ، ولأن هذه الرحلة لم تكن تحمل أهمية غير عادية ، كما لم تكن أحداثها تتسم بالغرابة ، لم تحدونى الرغبة فى تدوين أحداثها ، ولكن عند عودتى ألح علىّ الأصدقاء والأحباء أن أدون أحداث هذه الرحلة . ورأيت أن علماءنا قد استوحشوا الرحلات العلمية منذ وقت طويل ، ولهذا السبب لم يكن لهم من سبيل للاطلاع الكامل والتعرف على الأوضاع الحقيقية للبلاد الإسلامية ، فعذرتهم على هذا الإلحاح ، وتذكرت حالتى قبل هذه الرحلة ، وكنت إذا وقعت على سائح من القسطنطينية أو غيرها ، جلست إليه ساعات أستفسر منه عن أحوالها .

هذه الأسباب هى التى دعتنى إلى ترتيب وتدوين هذه المذكرات ؛ فتدوين أحداث الرحلة ووقائعها بمثل هذه العجالة والبساطة ومنحها لقب كتاب الرحلة أو السفر لا يخلو من الخداع ؛ لأن شيئًا من المعلومات التى تعد جزءًا أساسيًا لتأليف الرحلات من شرح لأوضاع البلاد وهيئتها الإدارية ، ومبادئها القضائية وطرق تجارتها ، وخطط مبانيها لم يتوفر فى هذه الرحلة ، إلا أننى قد جمعت من الأوضاع

العلمية والاجتماعية شيئًا كثيراً يعتد به ، لكن ليس بالتفصيل ، فكل من يريد قراءة هذه المذكرات على أنها خواطر رحلة فإنه لن يستمتع بالكتاب استمتاعا كاملاً ، ومع هذا فإنى أقدم هذه الرحلة المتواضعة للذين يجدون اللذة والمتعة فى الأحداث العادية لدول العالم الإسلامى ، « فما لا يدرك كله لا يترك كله » .(*)

وإننى وإن لم أتناول – فى هذا الكتاب – بالبحث دراسة الأمور المدنية والحضارية للأتراك ، ولم يكن هذا النوع من البحث مناسبًا لحالتى ولوظيفتى ، مع هذا فإن قراءة هذا الكتاب ستترك فى قلوب القراء ملامح المدنية والحضارة التركية ، تختلف عما يظهر فى الكتابات الأوربية العامة .

كانت الأفكار التى شاعت فى أوربا ضد المسلمين فى وقت من الأوقات – واستمرت لفترة طويلة – أفكاراً تبدو منها العصبية الدينية بجلاء ، وكانت هذه هى الوسيلة الرئيسية للشهرة والقبول آنذاك ، ولكن لما فقد الدين أهميته فى أوربا ، وصار التغنى بأمور بلا تأثير يذكر ، تشكلت هذه السياسة بصور أخرى ، وأدركوا أن الجهر بالتعصب ضد المسلمين لن يحمل لهم نفعًا كبيراً ، ومن ثم اختيرت هذه الطريقة بدلاً منها ؛ حيث بدأوا فى إظهار عيوب الدول الإسلامية والشعوب الإسلامية وذكر النواحى الاجتماعية الإسلامية وسلبياتها بأسلوب تاريخى ، ووجد هذا الأسلوب طريقه إلى المؤلفات العامة والقصص والروايات والأمثال بشكل يعجز التحليل الكيميائى أن يميزه .

(*) ذكر المؤلف هذا المثل العربى باللغة العربية (المترجم) .

إن هذه الطريقة – وإن كانت تطبق على الشعوب الإسلامية – إلا أن ما يهمنا الآن من بين هذه الشعوب هو حالة الأتراك ؛ فالكتابات الأوربية توحي الى القراء بعيوب الأتراك ومثالبهم حتى يضطروا إلى تحقيرهم ، وهذا بعينه كالذى يغالبه النعاس فيتعاطى الدواء ؛ فيطير النوم من عينيه .

إن دائرة المؤلفين فى أوربا واسعة جداً ، ولهذا السبب يوجد بينهم كل أنواع وأشكال المتعصبين والمعتدلين والسطحيين والمدققين ، لكن كل هذه الفروق الموجودة بينهم تتلاشى عند ذكر الأتراك ، ويعزف الجميع على وتر واحد .

وعلى سبيل المثال فإن أصدق المؤلفين الأوربيين وأصحهم بياناً فى الوقت الحاضر هم الذين يذكرون أن الدولة التركية كاهلها مثقل بالقروض ، وأنه لايوجد بها فنون وصناعة بقدر كاف ، وهناك عدم اهتمام بالتعليم داخل أقاليمها ، وهم بحاجة إلى التزود بالآلات والأسلحة من أوربا ، إن جميع هذه المعلومات التى يكتبونها صحيحة تماماً ، لكنهم يغضون الطرف كليةً عن ذكر الإصلاحات الجارية فى الوقت الحاضر ، وكأن الإصلاح ليس موجوداً من الأصل مثل ترتيب خزانة الدولة وإقامة البنوك الزراعية فى جميع أنحائها وزيادة أعداد المدارس من ٦٩ إلى ٤٠٥ مدرسة ، وإنشاء الكليات الكبرى ، والتوسع فى استخدام قطارات السكك الحديدية ، وجدولة دفع القروض ، وتطوير القوات العسكرية ، ينسون كل هذه الأمور ولا يذكرونها .[١]

(١) أُلّف كتاب مستقل فيه تفصيلات عن التطورات العلمية والعملية التى تمت فى عهد السلطان الحالى ونشر فى القسطنطينية ، كما تُنشر الآن رسالة راسم بك أفندى التى ذكر فيها التطورات البحرية بشكل خاص واسمها « عهد التطور » (المؤلف) .

إن أنجح وسيلة للإشادة بشخص أو بأمة أو النيل منها هو ألا يقدم من أحوالها وشئونها إلا جانبًا واحدًا من الصورة ، والواقع أن أوربا طبقت هذا المنهج الخادع أكثر من أى شعب من شعوب العالم .

ولا شك أن فى أوربا أناسا متسامحون لا يعرف التعصب طريقه إلى قلوبهم ، ولكنهم نشأوا منذ طفولتهم على أفكار معينة ، ووفرت لهم بيئتهم ثروة من المعلومات ، وترددت فى أسماعهم أصوات من كل صوب وحدب ، ولهذا لا تجدى نزاهتهم فى مواجهة هذه الأشياء . أعرف زميلاً لى على قدر كبير من العلم والذكاء والنزاهة وبعده عن التعصب . رجع من رحلته إلى القسطنطينية ومصر وغيرهما ، فسألته - على سبيل التذكرة - هل زرت الجامع الأزهر فى القاهرة ؟ فقال « كانت لدى رغبة عارمة وشوق كبير لزيارته ، ولكن مرشدى قال لى إنه لا يسمح للمسيحيين بالدخول فيه » وهذه تهمة خاطئة ؛ فقد أقمت أنا نفسى بالجامع الأزهر نحو أكثر من شهر ، وكان أصدقائى المسيحيون يأتون للقائى فى المسجد بلا صعوبة ، ولكن لما كان التعصب ضد المسلمين فى أوربا أمرًا متعارفًا عليه فأنّى لصديقى أن يشك فى كلام مرشده ؟

والغريب أنه إذا كتب أحد أو قال شيئًا مخالفًا لهذا النهج فإن صوته فى أوربا يكون صدى فى صحراء موحشة ، لقد أقامت أميرة إنجليزية فى القسطنطينية نحو خمسة عشر أو ستة عشر عامًا ، وألفت كتابًا بعنوان : « اثنا عشر عامًا من حكم السلطان عبد الحميد الثانى » ، وكانت الكفاءة العلمية للمؤلفة وخبرة خمسة عشر أو ستة عشر عامًا والوسائل الصحيحة للاستفسار والبحث ، وكل هذه القرائن المتوفرة تزيد الكتاب من نزاهته وعدله ، لكن لأنها لم تجارِ أوربا فى القدح والنيل

من الأتـراك لـم تبلـغ درجـة من الثقـة والقابليـة ، بـل سـمـعنا المثـقفين والـعلمـاء يقـولون : لا عجب فـى أن يكون الأتراك أنفسـهم قـد ألفوا هذا الكتـاب باسـم مـؤلف وهـمى ، أو أن الجـوائز الإمـبـراطورية حـملت تلك الأمـيـرة الإنجليـزية على تـأليف هذا الكتـاب ، ولكن لو كـان هذا الكتـاب يدور حـول مثـالب الأتراك لكان كل حـرف من حـروفه مصـدقا وموثوقا به لدى هؤلاء الأشـخـاص . إن المقـالات التـى كـتـبـهـا الأسـتـاذ ويمبـرى عن حضـارة الأتراك ومدنيتـهم بطريقـة علميـة فـقدت كل قيـمة وتـأثيـر لهذا السـبب ، نظراً لأن الأسـتـاذ المذكـور اعـتـرف بـالتـقدم العلمى الحـالى للأتراك.

هذه هى السمة البارزة للكتابات الأوربية العامة عن الأتراك ، ولكن يجدر بى هنا التحدث بشكل خاص عن كتب الرحلة التركية ؛ لأن ثروة كبيرة من الكتب الأوربية التاريخية تعتمد عليها ، والرحلة وإن كانت حلقة ممتـعة من السلسلة التـاريخيـة ، لكنهـا بقـدر المتـعة حـافلة باحـتمـالات الأخطاء .

ومن أكـبـر الأخطـاء التى يقـع فـيـهـا كُتَّـاب الرحـلات عـمـومـًا هو استنبـاطـهم الأصـول الكليـة من الأمـور الجـزئيـة ؛ فـالأشـخـاص الذين يلقـاهـم المرء فى رحلتـه ويتـعـامـل مـعـهم يكونون رأيـا عـامـا عن الشـعب بأسره بناءً على أخلاقهم وعاداتهم وأفكارهم مع أنه من الممكن أن تكون هذه الأمور خـاصـة بأولئك الأشـخـاص دون غيـرهم من أفراد الشـعب ، وهـكذا فـإن كـاتب الرحلـة يريد اسـتـخـراج نتيجة عامة من كل حادثة ، ولا يريد أن يضـيع وقـتـه فى البـحـث عن العـوامل الخـاصـة بـالحـدث ، ولا يسـتـطيع أن يـجد الفـرصـة الكافية لذلك .

وأكبر سبب لهذا الخطأ هو حينما يزور شخص بلداً ما ، يزوره وفى قلبه أفكار موالية أو معادية، وبمجرد أن يصل هناك فإن ما يراه ويسمعه يتم بشكل عابر وفى عجالة ، وهذا الاستطلاع العاجل لا يكفى لاستنباط النتائج ، ولا يستطيع أن ينتظر لفترة من الوقت لكى يتوصل إلى نتيجة ، ولهذا تتدخل قياساته فى كل واقعة ، وعندئذ يتصرف فى تلك القياسات بما يوجد فى قلبه من أفكار مسبقة حسنة أو سيئة ولا يعلم عنها شيئًا ، وهذا النوع من الخطأ يقع فيه جميع الناس ، ولكن الأوربيين يتفوقون عن غيرهم بشكل خاص ، لأنهم يتسمون بقلة الصبر فى استنباط النتائج ، ولا يوجد لهم مثيل فى أى أمة من الأمم ، ومن ثم فقد نرى أن سائحًا أوربيًا من عامة الناس إذا اتفقت له زيارة الهند، ورجع بعد أسبوع انطباعاته بمزاعم ودعاوٍ عظيمة ، وكأنه قد فُتحت أمامه جميع الأسرار الاجتماعية والحضارية للهند .

وهناك سبب مهم آخر هو أن السائح يحمل شوقًا عظيمًا للبحث عن هذه الأحوال ، لهذا يحاول الحصول على المعلومات والأخبار من كل شخص يلتقى به ، ولا يهتم بما إذا كان ذلك الشخص ثقة أو غير ثقة ، متسامحًا أو متعصبًا ، دقيق النظر أو سطحيًا ؛ لذا لا يمكن له أن يحقق النجاح ، والأوربيون فى هذا الأمر غير مبالين ، فمعظم السائحين الأوربيين الذين يزورون القسطنطينية يقيمون فى فنادق بيوغلى و « غلطة » بصفة عامة ، ويصحبهم مرشد أو دليل كلما أرادوا الخروج إلى مكان ما ، وهذا (الدليل) لا يأخذهم إلى المبانى وأماكن النزهة فحسب ، بل يجيبهم على جميع الأسئلة التى يوجهونها إليه من حين لآخر ، وكان معظم هؤلاء المرشدين - بشكل عام - من المسيحيين ،

ويتقاضون منهم أجراً يومياً روبية أو روبيتين ، ويستطيع كل شخص بنفسه أن يقدر قيمة هذا النوع من معلومات هؤلاء المرشدين .

كتبت السيدة [1] فاطمة فى مقدمة كتابها « إن السيدات الأوربيات المثقفات اللاتى اتفق لى اللقاء بهن كلما تحدثت إليهن عن نساء تركيا خطر ببالى كأننى أقُصّ عليهن قصة أمة أخرى ، أو كأنى أحكى أسطورة من الأساطير » ، وقد علقت السيدة فاطمة على هذا بقولها : « ليس هذا الخطأ خطأهن ؛ فكل ما يقوله المرشدون للسيَّاح مُصدق » ، وكذلك فإن صديقنا الذى حرم من زيارة الجامع الأزهر تعرض لخداع مرشده .

المهم أنه كان من اللازم أن تختلف رحلتى عن رحلات وكتابات الأوربيين ، وقد أجملت أسباب هذا الاختلاف بهذا القدر من الإطناب ؛ لأنه – فى حد ذاته – لم يكن فى حاجة إلى موضوع مستقل .

ليس من الضرورى أن أذكر هنا الآثار التى تركتها الرحلة إلى تركيا على نفسى فسيطلع عليها قُراء هذه الرحلة بأنفسهم ، ولكن الشىء الذى ينبغى قوله هنا – بصرف النظر عن الحكومة – هو أن حالة المسلمين فى تركيا لا تدعو إلى السرور والاطمئنان ، بل يجب القول

(١) هى سيدة متعلمة ومثقفة عالية تجيد اللغات العربية والفارسية والتركية (لغتها الأم) علاوة على أنها تعرف اللغة الفرنسية معرفة جيدة . ألفت كتابا باسم « نساء المسلمين » لدفع ذلك النوع من الاتهامات التى شاعت فى أوربا عن نساء تركيا ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، وعرض بمعرض فى أمريكا ، واهتموا به وترجموه إلى اللغة الإنجليزية ، كما ترجم إلى اللغة الأردية كذلك ، وطبع فى المطبعة المحمدية (الإسلامية) بعليكرة . (المؤلف) .

إنهم – فى كثير من الأمور – قريبى الشبه من المسلمين فى الهند ، فلا علاقة لهم بالصناعات ومساهماتهم فى التجارة قليلة جداً ، حتى إن الدكاكين العادية يمتلكها اليهود والمسيحيون ، والتعليم القديم غاية فى السوء ، ويزداد سوءاً ، أما ما يتعلق بالتعليم الحديث فإن الشكوى منه واحدة فى الهند وتركيا ، الصراع مستمر بين الحضارة القديمة والحضارة الحديثة ، ولا يوجد حتى الآن مواءمة بينهما ، وأن أصحاب الأفكار القديمة لا يزالون يجهلون اتجاه العصر ، والمجددون يقولون ولا يفعلون ، وقد خيَّم على الشعب بأسره الضعف والوهن بدلاً من الاستقلال والعزيمة والحماس والغيرة والهمة ، وكل شخص قانع بما لديه ، هذا هو الوضع الآن ، « ولعل الله يحدث بعد[1] ذلك أمراً » .

(١) هكذا وردت باللغة العربية فى الأصل . (المترجم)

الرغبة فى الرحلة وبدايتها

أسباب الرحلة :

عندما بدرت لى فكرة تأليف سلسلة « أبطال الإسلام »[1] وجدت أن المادة التاريخية المتوافرة فى بلادنا فى ذلك الوقت لن تكون كافية أبداً لإنجاز هذا العمل ، الأمر الذى أنشأ فى قلبى الرغبة فى الرحلة ؛ فقد كنت على يقين أن بقية المؤلفات الإسلامية التى يمكن أن أكتب على أساسها هذه السلسلة موجودة فى مصر وتركيا .

ورغم أن هذه الفكرة سيطرت علىّ ، لكن بعض الأسباب حالت دون تنفيذها حتى دبَّ اليأس فى نفسى ، وصارت هذه العزيمة فكرة ضعيفة ، وفى العام الماضى عاودتنى هذه الرغبة بالصدفة المحضة ، فعزمت على السفر ، وكان المرض قد لازمنى طيلة العام الماضى حتى ضجرت من العلاج ، ورغبت فى تغيير الجو ؛ فكتبت خطابات عديدة للأصدقاء فى كشمير والمورة لإعداد ترتيبات السكن وغير ذلك ، وعلمت فى تلك الأثناء

(١) تحتوى هذه السلسلة على « الفاروق » و« النعمان » و« الغزالى » و« المأمون » و« جلال الدين الرومى » و « سيرة النبى صلى الله عليه وسلم » المجلد الأول والثانى ، وقد قمت بترجمة « الفاروق » ونشر ضمن المشروع القومى للترجمة . (المترجم) .

أن السيد آرنولد أستاذ الفلسفة بمدرسة العلوم (جامعة عليكرة) [1] وهو أستاذى (فقد تعلمت على يديه اللغة الفرنسية) سيسافر هذه الأيام إلى إنجلترا ؛ فرأيتِ فجأة أن كل هذه الأمور قد اجتمعت (مصادفة) : الرحلة الأولى إلى مصر وتركيا ، وتغيير المناخ ، وصحبة الأستاذ آرنولد ؛ فكان لابد لى ألا تفلت هذه الفرصة تفلت من يدى ؛ فخرجت لتوى إلى آرنولد ، وطلبت منه أن أرافقه فأظهر سعادة بالغة ، ووعد بأن يساعدنى بقدر الإمكان فى الأمور الخاصة بالسفر .

فى ذلك الوقت لم يبق على إبحار الباخرة سوى ثلاثة أو أربعة أيام ، وقد اندهش الأصدقاء والأحباء كثيراً عند سماع ذلك ، وأفهمنى الكثير منهم أن رحلة طويلة كهذه بدون استعدادات كافية ، وبهذه السرعة فى حاجة إلى التعقل ، ولكنى ذكرت قول الشاعر :

لقد ألقيت السفينة فى البحر ، وليحدث ما يحدث

وكانت مدة الإجازة الصيفية فى الكلية ثلاثة شهور ، وكان من حقى الحصول على إجازة منها لمدة ثلاثة شهور نظير مدة خدمتى الوظيفية ،

(١) توماس آرنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠) : عالم ومستشرق إنجليزى عمل فى كلية عليكرة عشر سنوات ، وفى فبراير ١٨٩٨ ذهب إلى الكلية الحكومية فى لاهور وعمل أستاذاً للفلسفة بها ، وكتب كتاباً فى اللغة العربية بعنوان « سواء السبيل فى معرفة العرب والخيل » ، وكان الشاعر محمد إقبال من أقرب تلاميذه فى لاهور ، وعاد إلى إنجلترا عام ١٩٠٤ م ، وعمل هناك مساعد أمين مكتبة المكتب الهندى حتى عام ١٩٢٠ م ، حيث عين أستاذاً للغة العربية فى جامعة لندن حتى آخر حياته ، وفى سنة ١٩٣٠ زار الجامعة المصرية فى القاهرة ، وألقى محاضرة بعنوان «الفنون الجميلة عند المسلمين» ومن أعظم أعماله كتاب «الدعوة إلى الإسلام» (لندن : ١٨٩٦) وشارك فى دائرة المعارف الإسلامية (المترجم) .

وهكذا تم ضم الإجازتين وحصلت على إجازة ستة أشهر ، وخرجت من عليكرة فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٢ ، وكان السيد آرنولد قد رحل إلى « جهانسى » قبلى بيوم أو يومين لمقابلة صديق له ؛ فرافقته حتى محطة «جهانسى» ، وقطعنا كل هذا الطريق باستمتاع وسرور كبيرين ، وكان السيد آرنولد قد أخبر الحاج رحمة الله بن داود - وكان تاجراً مثقفًا ومتنوراً من أعيان بومباى - بقدومه فى رسالة بعثها له ذكر فيها أننى بصحبته ، ولما كانت ترتيباتنا الأولى قد حدث فيها تغير طفيف فجأة ، لذلك وصلنا إلى بومباى بعد يومين من الموعد المحدد، وأخذنى السيد آرنولد أنا وأمتعتى وذهبنا إلى فندق « وستن » ، وبينما كنت أمضى فى السوق إذا بى ألتقى بشاب فسألته: أتعرف الحاج رحمة الله؟ فأجاب : ألست مولوى شبلى ؟ فتملكتنى الحيرة لفراسته التى لا تقل عن الكشف ، قال نحن مضطربون منذ يومين من أجلكم ، هيا بنا! فالحاج فى انتظارك استدعى الحاجُ الأستاذَ آرنولد من الفندق ، وقد أقمنا فى ضيافته .

كان إبحار باخرتنا فى اليوم التالى لوصولنا بومباى ، ولهذا قضينا كل وقتنا فى الإعداد للأمور الضرورية للرحلة ، ولم نستطع زيارة المدارس والجمعيات الإسلامية فى بومباى وأخذت تذكرة الباخرة عن طريق شركة كوك (توماس كوك) ، وكان ثمن التذكرة على تلك الباخرة التى سافرنا عليها من بومباى إلى بورسعيد فى الدرجة الثانية ٣١٠ روبية ، وكان من أكبر أخطائى أننى لم أحصل على تذكرة العودة ، ونتيجة لذلك فإننى عند الإياب من بورسعيد إلى بومباى دفعت ٢١ جنيه أى ما يعادل ٣٣٥ روبية ، وركبنا الباخرة فى الساعة التاسعة من صباح أول مايو ، وأبحرت الباخرة فى الثانية عشرة تقريباً ، وقلت « بسم الله مجريها ومُرساها »،

وودعت الهند ، وكان فى الدرجة الثانية خمسة ركاب فقط ، ومن الصدف العجيبة أنهم كانوا جميعًا من أقوام وجنسيات مختلفة ، أحدهم مسلم ، والثانى إنجليزى ، والثالث فارسى (مجوسى) ، والرابع إسبانى ، والخامس سيامى .

لم تبدُ حركة الباخرة فى بداية الأمر غير مستساغة لى إلى حد ما ، لكن قرب المساء بدأت طبيعتى فى التغير ، ونمت بعد تناول وجبة العشاء ، وفى الصباح – وبمجرد أن فتحت عينى – كنت فى حالة غريبة يصعب علىّ وصفها ؛ حيث اشتد علىّ المرض فأصابنى دوران البحر ، وتقيأت وبقيت فاقداً الوعى لمدة يومين ، وكان قبطان الباخرة يحمل إلىّ الليمون والبسكويت والشاى من حين لآخر ، ويقول تناول بعضا منها ، لكننى كنت أصاب بالغثيان بمجرد رؤية هذه الأشياء ، وكان السيد آرنولد يسقينى الشاى ، ومع أننى لم أكن أستسيغه ، لكنه كان يخفف من حالة القىء هذه ، وبإلحاح منه شربت الشاى مرة أو مرتين ، ثم تقيأت وشعرت بتحسن ، ونهضنا جميعًا فى اليوم الثالث ، وكنا نسمع أن هواء البحر مفيد جداً للصحة ، وفى الحقيقة السفر بالباخرة يعد علاجاً لمائة مرض ، فقد كنت حتى وقت ركوب الباخرة ضعيفًا ومعتلاً ، ولكننى صرت نشيطًا، موفور الصحة يومًا بعد يوم ، وكانت صحتى تنتعش بمرور الوقت وأشعر بالجوع الشديد ، وكنا نأكل الطعام فى خمسة أوقات ، أى شاى بالحليب وبسكويت فى الثامنة صباحًا ، وفى الحادية عشرة الطعام المعتاد، والذى يحتوى على أنواع متعددة من الإدام ، ثم وجبة خفيفة فى الساعة الواحدة ظهراً ، والغذاء فى الساعة الخامسة ، وعادة ما يحتوى على الحمام والبط والدجاج علاوة على اللحوم ، وكل

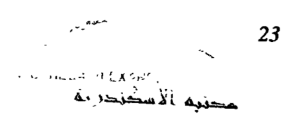
أنواع الحلوى الإنجليزية (البودنج) والفواكه الطازجة والمجففة ، وأحياناً الآيس كريم ، وفى الساعة التاسعة مساء يقدمون الشاى والزبدة ، وكنا نأكل حتى تمتلئ بطوننا فى كل وقت بالطعام الذى كنا نهضمه تماماً .

تعصب مسيحى ضد اللغة العربية :

كنت طوال اليوم مشغولاً بالاستمتاع بالبحر ، وأخذ السيد آرنولد فى تعلم اللغة العربية ، وكان المسيحى الإسبانى الذى معنا يتحرق غيظاً من دراسة آرنولد للغة العربية ، وكان يأتيه مراراً ويقول له بلهجة ممزوجة بالإستخفاف والتحقير من شأن اللغة العربية : هذه لغة الإبل ، ومع أننى كنت أتألم من سلوكه هذا ، لكن رأيت أنه من الطبيعى أن يصدر منه هذا السلوك مع اللغة العربية والعرب ؛ لأن قومه (الإسبان) ظلوا لمدة طويلة تحت سيادة العرب وحكمهم .

ذبح الطيور والحيوانات :

كان من المعروف بشكل عام أنهم لا يذبحون الطيور على ظهر الباخرة ، وقد تأكد مولوى سميع الله من هذا بالتجربة أثناء رحلته ، وقد بقيت لمدة يومين أو ثلاثة أتجنب أكل لحم الطير حتى استفسر منى آرنولد عن السبب ، فقلت له إن المنخنقة حرام فى ديننا ، فقال إن الحيوانات تذبح فى هذه الباخرة ولا تقتل خنقاً ، ولما كانت شهادته وحدها لا تكفى شرعاً ؛ لذا ذهبت بنفسى لأتأكد من هذا ، فكان الجزار (الذى يقوم بالذبح) مسيحياً ، ولا يقول شيئاً عند الذبح ، فقط كان يضع السكين على الرقبة ويذبح ، وبالرغم من أن هذه الذبيحة ليست حلال



لدى الأحناف ، إلا أننى أصبحت شافعيًا فى هذه المسألة لعدة أيام فعندهم كل الذبائح حلال ، وكان السيد آرنولد الذى على الباخرة مختلفًا تمامًا عن آرنولد الذى كان فى عليكرة ، فلم يكن صارمًا متجهمًا ولا قليل الاختلاط بل كان يمزح ويضحك كل وقت ، ويلعب مع الأطفال ، ويصعد فوق سطح الباخرة ، ويتجول ويقفز، أما أنا فقد كنت قد شرعت فى كتابة قصيدة عن وقائع السفر ، لقد كان جو البحر ممتعًا ومثيرًا للهمة والنشاط ؛ فالإنسان (الشاعرى) تجود قريحته بالشعر عند السفر بالباخرة شاء أو لم يشأ .

التصرفات المبتذلة للصوماليين :

وصلت الباخرة إلى عدن فى ٧ مايو ١٨٩٢ للصوماليين ، ورست على مقربة من الشاطئ ، ومن أكثر الأمور متعة فى عدن أن كثيراً من الأطفال الصوماليين يركبون القوارب ، ويقتربون من الباخرة ، ويقومون بأداء حركات بهلوانية مبتذلة للحصول على جوائز وهدايا الركاب ، ويغنون ويرقصون ويتفوهون بكلمات لا معنى لها فيما بينهم ويصفقون ، ومبلغ فنهم أن الناس إذا أعطوهم قرشًا أو قرشين يلقون به إليهم فى الماء فيغوصون ويخرجونه من الماء ، وكان معظم الإنجليز مشغولين بهذه العروض ، وكان السيد آرنولد يستمتع بها أيضًا ، لكننى كنت فى حالة مخالفة لهذا؛ لأننى ظننت خطأ أن العرب يسكنون فى هذه المنطقة عامة ، لذا كان من الطبيعى أن أنظر إليهم بعين الاحترام والمحبة، ولكن نفسى لم تستسغ بأى حال من الأحوال أن يقوموا بمثل هذه التصرفات المبتذلة والمشينة من أجل الحصول على هذه المنح ، وقد تألمت لذلك وتأسفت على أن هذه هى حالة العرب الآن ، وأنهم لا يستحيون من مثل

هذه التصرفات أمام الآخرين ، لقد كان قلبى يتحرق غيظًا بتلقائية من جراء تلك الأفكار ؛ فقلت « قم يا عمر » ، وكان آرنولد بجوارى فشرحت له تغير حالتى وحال قلبى وأسباب ذلك ؛ فرفع عينيه مرة واحدة ونظر إلىّ وصمت ، ولما دخلت المدينة وبحثت ذلك تأكد لى أن الصوماليين ليسوا بعرب ، عندها هدأت واطمأنت نفسى قليلاً . كان هذا الألم والحزن هما اللذان دفعانى لأن أهجو هؤلاء القوم التعساء هجواً مقذعًا فى قصيدة الرحلة ، وهم فى الحقيقة يستحقون ذلك .

كان الوقت ضيقًا ، لذلك لم أتمكن من رؤية المنطقة الداخلية من المدينة ، وأرسلت الرسائل إلى الهند ، وكتبت عدة أشعار على عنوان إحدى الرسائل كانت مناسبة لذوق ذلك الوقت .

لغة عدن :

لغة عدن هى فى العموم اللغة العربية ، والفرس والهندوس والبنغاليون الذين يقيمون بها من أجل العمل أو التجارة يتحدثون اللغة العربية بسهولة ، ولما لم أكن قد سمعت الهندوس يتكلمون باللغة المقدسة مطلقًا ، فكانت تعترينى متعة غريبة عندما أسمع البقالين والتجار يقولون : « أين تروح » « ما تبغى ؟ !» .

واللغة المستعملة هنا ، وإن كانت هنا هى اللغة العربية ، لكنها لغة ركيكة وعامية ، ومع أن اللغة العربية التى يتحدث بها فى جميع تلك البلاد حاليًا لم تعد هى اللغة العربية القديمة ، إلا أن اللغة المستعملة فى عدن أغربها ؛ فلم أستطع أن أفهم منها سوى عدة كلمات بسيطة ، ولعل فساد اللغة هنا يرجع إلى الاختلاط الزائد بالأجانب وقد توصل إلى هذه

النتيجة العلامة المقدسى الرحالة العربى الشهير الذى بدأ رحلته حول العالم مع بداية القرن الرابع ، وقد كتب فى رحلته الجغرافية أن « أهل فارس هم أكثر الأقوام التى تعيش فى عدن » ، وكتب العلامة المذكور كذلك « وأنهم هنا عمومًا ينطقون الكاف بدلاً من الجيم ، ويقولون ركليه بدلاً من رجليه، وقس على هذا » ، ولما كان هذا هو الحال فى عهد العلامة المقدسى ؛ فأى شكوى يمكن أن تنسب للغة هنا بعد اختلاط الكجراتيين والمراهتة !!

قرد عجيب وغريب:

ركب راكب ألمانى على باخرتنا فى عدن – وهو موظف فى المتحف الألمانى المعروف – كان عائدًا إلى أوربا بعد أن عاش فى تلك البلاد فترة من الوقت ؛ وهو يستطيع التحدث بعدة لغات بسهولة بسبب السياحة والتجارة ، فقد كان يتحدث العربية معى ، والإنجليزية مع آرنولد ، والإيطالية مع طاقم الباخرة ، حتى إننى كنت فى شك وحيرة من أمرى ، فعندما نجتمع جميعًا على مائدة الطعام كان هو الشخص الوحيد الذى يترجم للجميع ، لقد جمع كثيراً من الحيوانات الغريبة والنادرة من الغابات الأفريقية والعربية ، كان من بينها قرد أفريقى فى قفص كبير، وكانت هيئته تختلف قليلاً عن القرود العادية ، ومن أكثر الأمور التى كانت تثير العجب أنه عندما يتجه شخص ما نحوه وينظر إليه كان يحدث ضجيجًا تصدر عنه بعض الكلمات المفهومة ، وقد ظننت فى البداية أنه ينطق بعبارات مما عندنا ؛ فعلى سبيل المثال يُعبر عن صوت القطة بالمواء ، وأن كلماته هذه من هذا النوع المصطنع ، لكننى بعد أن استمعت إليه عدة مرات بتمعن أدركت جيداً أنه يقلد صوت أوربى ،

وإذا استمع إليه شخص من وراء حجاب فلا يمكن أن يظن مطلقًا أنه صوت قرد ، وقصصت ذلك على السيد آرنولد فصدقه ، فهذا النوع من الأمثلة سائد فى أوربا ، وبعض الناس يعتقدون أن القرد يستطيع أن يتكلم ، وهكذا فإنه من المعروف أن أحدهم اكتشف عدة كلمات ينطق بها القرود بعد البحث والتجربة .

حادث مؤسف :

تحركت الباخرة بنا من عدن بسلام ونحن مستمتعون بالرحلة ، ولكن وقع حادث خطير فى اليوم التالى ، بقيت على أثره مضطربًا لفترة قصيرة من الوقت ؛ حيث استيقظت من النوم فى صباح يوم ١٠ مايو ؛ فقال لى أحد المسافرين معنا إن محرك الباخرة قد تعطل ، وقد رأيت حقًا القبطان وموظفى الباخرة مضطربين ، وقد انتابتهم حالة من القلق ، وهم يتدبرون أمر إصلاحه ، وكان المحرك قد توقف تمامًا ، بينما كانت الباخرة تسير ببطء شديد بفعل قوة الرياح ، فاضطربت لذلك اضطرابًا شديدًا ، وبدأت الأفكار المفزعة ؛ فما عساى أن أفعله فى هذه الحالة من الاضطراب ، ففزعت إلى السيد آرنولد ، وكان فى ذلك الوقت يقرأ كتابًا فى هدوء بالغ ، فقلت له : هل لديك خبر عن هذا ؟ قال : نعم إن المحرك قد أصابه العطب ؛ فقلت له ألم تضطرب وأنت عاكف على قراءة هذا الكتاب؟ فقال : إذا كانت الباخرة لابد وأن تختل ؛ فإن هذا الوقت القليل جدير بأن يستغل ، ومن البلاهة أن نضيع مثل هذا الوقت الثمين هباءً ، فجعلنى هدوءه وجرأته مطمئنًا ، وبعد ثمانى ساعات تم إصلاح المحرك ، وأخذت الباخرة فى السير كالمعتاد .

وصلت الباخرة إلى السويس فى ١٣ مايو ، وتوقفت هناك ثلاث أو أربع ساعات ، وقد جاء المصريون العرب إلينا لبيع الخبز والتمر والجبن ، وتقدم أحدهم إلىّ بعد أن ظن أننى هندى وبدأ يحدثنى بالأردية ، فعجبت من ذلك ، وعندما سألته اتضح لى أنه لم يزر الهند مطلقًا فزادت دهشتى من عالمية اللغة الأردية ، وفى ١٤ مايو وصلنا إلى بور سعيد ، وحزنت كثيراً لفراق السيد آرنولد ، وكنت قد حصلت على تذكرة سفر من بومباى حتى برندزى ، وبعد أن وصلت إلى بورسعيد فكرت فى أن أصاحب آرنولد حتى برندزى ، لكن الرحلة من هناك إلى القسطنطينية تستغرق أسبوعًا وقد آلمنى أننى فى هذه الفترة سألتقى دائمًا بأجانب فقط بسبب اختلاف الدولة واللغة والتجربة ، وبناء على هذه الفكرة غيرت الخطة تمامًا ، وعزمت على السفر إلى القسطنطينية عن طريق الشام .

وفى وقت إبحار الباخرة ، حضر أحد موظفى شركة توماس كوك لمساعدة ركابه يشير إلى أن الباخرة سوف ترسو على مسافة قريبة من الشاطئ ، ولهذا يوجد قارب صغير تابع لشركة كوك يقوم دائمًا بنقل الركاب ، إن النزول من الباخرة فى تلك الموانئ تعد طامة كبرى بالنسبة لشخص عديم التجربة مثلى ، حيث (يتدافع) الملاّحون والحمّالون من كل ناحية عند إبحار الباخرة ، ويعانى الركاب عناءً شديداً ، والمسافر قد يفقد وعيه تمامًا بسبب تدافعهم وضجيجهم و تخاطف الأمتعة ، وقد وصلنا إلى الشاطئ بصعوبة بالغة ، وقضينا ساعات فى شجار ، وبحث حول أجرة الحمالين . إن الطريقة المثلى للتغلب على هذه الصعوبات هو ألا يتوسط أحد فى هذه الأمور غير موظفى شركة كوك .

وبمجرد أن وصلنا إلى الشاطئ كان صوموائيل - الذى كان فى انتظارنا منذ البداية - واقفًا أقبل علينا و صافحنا ، وصومائيل يهودى مُعيَّن لتقديم جميع أنواع المساعدة ، وهو متعهد الركاب من قبل شركة كوك ، يعرف عدة لغات ؛ وبخاصة العربية والإنجليزية والفرنسية التى يستطيع التحدث بها بطلاقة ، ومن المثير كذلك أنه يمكنه التكلم بالأردية بسهولة تامة ، ذلك لأنه عاش فترة فى الهند .

ذهبنا معه إلى مكتب الشركة الذى يقع على شاطئ البحر مباشرة ، وهو مجهز بشكل جيد بالكراسى والطاولات ، وقد وضعوا على منضدة كثيرًا من الصُحف أغلبها إعلانات وأخبار خاصة بالبواخر ، وقد تحدثت معه – أولاً وقبل كل شىء – فى أمر تغيير التذكرة ؛ أى أننى لو توقفت هنا وأخذت تذكرة جديدة للقسطنطينية ؛ فهل يمكن لى استرداد قيمة التذكرة الزائد حتى براندزى أم لا ؟ ولأنه لم يستطع أن يجيب بنفسه ، ذهب إلى المكتب الرئيسى للشركة ، وبعد أن عاد من هناك قال لى إنك تستطيع السفر إلى القسطنطينية بهذه التذكرة ، وسوف تدفع جنيهان فقط أى ما يعادل ٢٣ روبيه ، وسعدت لذلك أيما سعادة ، ومنحته على هذه الخدمة مكافأة (هدية) قدرها ثمان روبيات ، ومن حسن الصدف أنه كانت هناك باخرة تستعد فى ذلك الوقت للذهاب إلى القسطنطينية ، وإلا كان علىّ البقاء فى بورسعيد لمدة خمسة عشر يومًا .

بور سعيد :

بورسعيد ميناء صغير وجميل ، والسكان هنا ينقسمون جغرافيًا إلى قسمين : القسم المتصل بالبحر ، ويقطنه عمومًا التجار الأوربيون ، وفيه كثير من الفنادق الكبيرة والمقاهى والمسارح وغيرها ، وتقع أحد

المقاهى على شاطئ البحر مباشرة وأمامها ساحة كبيرة منظمة ومرتبة للغاية ، بها طاولات صغيرة مُطعمة بأحجار المرمر والكراسى ملتصقة بها و متحلقة حولها ، وتقدم القهوة والشاى وشرائح الخبز الجاف والزبدة فى كل وقت ، ويوجد فى هذا القسم دكاكين كثيرة وهى فخمة للغاية ، وفى القسم الثانى من الميناء يسكن معظم السكان الأصليين ، لكن للأسف كل شىء هنا فى حالة مزرية ، وبدل الفنادق توجد دكاكين قذرة .

فى أول الأمر عندما خرجت لمشاهدة هذه المدينة ، كنت أنظر إلى كل شىء بنظرة شوق واستغراب ؛ فهذه أول مرة أرى فيها سكان دولة إسلامية ، ومع أننى نلت شرف زيارة الحرمين الشريفين قبل هذا ، ولكنها بلد الله ، وأنا أذكر هنا دولة دنيوية وحكومتها ؛ فعندما كنت أرى المبانى العظيمة والمرتفعة أفرح بهذا الأمر، وأقول الحمد لله فالمسلمون فى هذه البلاد أثرياء وفى أحسن حال ، ولكن بعد البحث والتنقيب اتضح لى أن هذه المبانى هى للتجار الأوروبيين ، وأنه ما من مبنى مرتفع أو دكان عظيم فى أنحاء المدينة يمتلكه مسلم فحزنت ، وفى نهاية المنطقة السكنية الأوروبية يوجد المسجد الملكى ، وهو عالٍ جداً وعظيم الشأن .

وبعد فترة قصيرة من التجول فى السوق ركبت الباخرة المتجهة إلى القسطنطينية ، وكان معى صمومائيل والسيد آرنولد ، وكنا فى زمن الحج إلى بيت المقدس ؛ لذلك كانت الدرجتان الأولى والثانية ممتلئتين بالحجاج النصارى ، قال لى السيد آرنولد أخشى أن يصيبك مكروه ؛ فهؤلاء النصارى الحجاج متدينون جدا ، ولهذا من الضرورى أن يكون

منهم متعصبون ، وأنت من أمة أخرى ودين مخالف لهم ؛ فأنَّى لهم أن يقبلوك فيما بينهم ؟! ولكننى علمت بعد التجربة أن فكرة السيد آرنولد لم تكن صحيحة ؛ فهؤلاء الحجيج كانوا ملتزمين بالدين ، لكنهم كانوا من الإيطاليين والفرنسيين ، ولم يكونوا من الإنجليز ، ولهذا لم تكن بينهم قط تلك الصفات الخاصة بالشعب الذى يمارس الاحتلال الذى يتميز بقلة الاختلاط والتفرقة بين المنتصر والمهزوم ، وودعت السيد آرنولد بعد فترة وجيزة وقلت له مع السلامة ، ومع هذا بدأت أفكر وأقول : لنرَ كيف ستمر الأيام علىّ وحيداً ؟!

وصلت الباخرة إلى يافا فى ١٥ مايو ، ونزل بها معظم رفقاء الرحلة من الأوروبيين ؛ فالطريق من هنا إلى بيت المقدس يستغرق ليلة واحدة فقط ، فلم يكن هناك متسع من الوقت ، ولم أستطع النزول هنا .

وفى ١٦ مايو وصلنا بيروت ، وتتوقف الباخرة هنا عمومًا إلى الظهر على الأقل ، ولأن بيروت أحد الأماكن التاريخية وهى مدينة قديمة جدًا ، لهذا كانت لدى رغبة عارمة للتجول فيها ، لكن بعد أن وصلت إلى الشاطئ واجهت مشكلة كبيرة ، وهى أنهم لن يسمحوا لأحد بالنزول بدون تصريح للمرور أى جواز سفر ، وكنت قد رحلت عن الهند فى عجالة فلم تسنح لى الفرصة لاستخراج جواز سفر ، فاضطربت كثيراً فى البداية وتأسفت على ضياع هذه الزيارة هباءً ، ثم خطر ببالى أن أقول لهؤلاء الناس إننى لا أريد الإقامة هنا ، وأن الهدف هو التجوال فقط ، وكان من بين هؤلاء الناس رجل يعرف الله علم أننى من أهل الهند فترفق بى بعد أن فطن أننى غريب عن الوطن ، وسلمنى لشخص ليتجول بى فى المدينة .

التجول فى بيروت :

كانت لدى رغبة فى البداية للإقامة هنا يوما أو يومين بعد عودتى من القسطنطينية ؛ لذا فإن تجولى فى السوق وغيره هذه المرة كان عابراً ومجملاً ، وألقيت نظرة على دكاكين الكتب ، كان هناك مقهى على الطريق العام فجلست فيه بعض الوقت ، وأخذت أراقب المارة ، وعندما كان يمر من أمامنا أى شخص ذو شأن وشوكة يمتطى فرسًا أو يركب سيارة ، كنت أسأل مرشدى من هذا ؟ وغالبًا ما يجيبنى بأنه نصرانى .

ومن أكثر الأشياء التى أعجبتنى هنا أن جميع البقالين والحرفيين وحتى الحمالين والعمال فى أحسن حال وملابسهم نظيفة وهم يتجولون ثلاث أو أربعة ساعات هنا وهناك ثم يعودون، بعد ذلك أهديت المرشد نصف روبية وودعته متجهًا إلى الباخرة .

كان الشيء الجديد الذى طرأ على الرحلة من بورسعيد حتى وصلنا هنا هو وجود مسلم واحد أو اثنين ، أما فى بيروت فقد اكتظت الباخرة بالعرب الشوام ، ومن سوء الحظ أنهم لم يكن لهم نصيب فى الدرجتين الأولى والثانية ، بينما كانت الدرجة الثالثة تمتلئ بالمسلمين فى كل جانب منها ، لقد كنت فى بداية الرحلة أخشى على حالة المسلمين ، ولكننى فرحت فرحة غامرة بعد رؤية هذا الجمع ، وكان سطح الدرجة الأولى نظيفًا للغاية ورحبًا ؛ فكنت أجلس فيه فى معظم الأوقات ، أستمتع برؤية البحر لكن عندما أصبحت هذه الصحبة من نصيبى نسيته ، ولم أذهب إلى هناك .

في بداية الأمر وجدت صعوبة كبيرة في الاختلاط مع الركاب المسلمين ، وكان هؤلاء الناس منتشرين في كل مكان على سطح الباخرة في جماعات تتكون كل واحدة منها من رجلين أو أربعة رجال فتاقت نفسي إلى الجلوس معهم ، لكنهم لم يلتفتوا إليّ قط ، وكل من أقف عنده يلتفت إليّ ثم ينشغل عني ، فعجبت من جفوتهم ، وقلت في نفسي إن العرب معروفون بإكرامهم للضيف وهؤلاء يضنون بالحديث ، وكان من بينهم بعض طلاب المدرسة الحربية متجهين إلى القسطنطينية بعد قضاء إجازتهم في وطنهم ؛ فكانوا أحيانًا يقرؤون دواوين الشعر العربي للتسلية ، ففكرت أن أتحدث إليهم عن طريق هذا الفن وذهبت إليهم ، وبدأت على سبيل المثال أذكرهم بتفقهي وعلمي في العلوم العقلية ، ولكنهم لم يلتفتوا إليّ فمشيت من أمامهم ، وأيقنت أنه من الضروري أن يكون لهذا الأمر سبب خاص، وبالمصادفة سألني أحدهم عن ديانتي ، فقلت « الإسلام » فقال : « لا والله ، أهذا طربوش المسلم ؟ »[1] ، ومن سوء الحظ أن كان على رأسي قلنسوة إيرانية ، ولهذا السبب ظن العرب جميعًا أنني مجوسي ، ولما انكشف لي هذا السر أزلت سوء الظن بهؤلاء الناس من قلبي ، وقد ورحبوا بي أشد الترحيب ، وكنت لا أريد فراقهم لحظة واحدة ، وبقيت في الغالب في صحبة طلاب المدرسة الحربية ، واستفسرت منهم عن كثير من الأمور المهمة المتعلقة بالقسطنطينية ، وفي الحقيقة استفدت كثيرًا من هذه المعلومات ، وعلى أثر هذا الأمر كنت أشعر في الباخرة أنني أعيش في قلب العالم الإسلامي ، لقد كان ركاب الدرجة الثالثة من بومباي إلى السويس يعاملون معاملة الحمالين ، لكن

(١) وردت هذه الجملة باللغة العربية (المترجم) .

هذا الوضع تغير تمامًا فى هذه البلاد ، فقبطان الباخرة وموظفوها أوربيون بصفة عامة ما يضمرونه فى قلوبهم نحو هؤلاء الركاب لا يستطيعون أن يظهروه ويعاملون الركاب معاملة سيئة ، وقد وقعت عدة أحداث استنتجت منها تعنت وتطاول من جانب المسلمين ، إلا أن طاقم الباخرة كانوا يغضون الطرف عنهم .

وفى ١٧ مايو وصلت الباخرة إلى قبرص[١] ، وهى جزيرة صغيرة تقع فى البحر الأبيض المتوسط ويطلق العرب عليها اسم قبرص ، وهذه الجزيرة من ذكريات الفتوحات الإسلامية القديمة ، وقد حمل عليها الأمير معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه عام ٢٧ هـ ، وطلب السكان الصلح وأداء الخراج الذى كانوا يؤدونه لدولة الروم ، وأن يعطوهم أيضًا سبعة آلاف ومائتى دينار سنويًا ولو حاربوا الروم ، وتطلب الأمر ذلك فإنهم لن يكون لهم أى علاقة بهذا ، وقبل الأمير معاوية هذه الشروط ، ولكن أهل قبرص نقضوا العهد عندما أمدوا الروم بالعتاد فى حربهم مع المسلمين ؛ فهجم عليهم الأمير معاوية ومعه خمسمائة من السفن والقوارب وفتحها دون أدنى مقاومة ، وبالرغم من ذلك أبقى على شروط الصلح وقيمة الخراج كما هى ، وبأمره هاجر إليها اثنى عشر ألفًا من العرب ، واستوطنوا بها ، وقاموا ببناء المنازل والمساجد ، وبعد فترة فقد المسلمون هذه الجزيرة ثم استولوا

(١) تذكر كتب الجغرافيا أن هذه الجزيرة كان يقطنها منذ قديم الأزمان مليون من السكان ، وتحتوى على تسعة أقاليم واثنتى عشرة مدينة وثمانمائة وخمس من القرى ، واستولى عليها (فتحها) الأتراك عام ١٥٧٠ م ، ويسكنها الآن سبعون ألفا من السكان، وتشتهر بالخمر المعتقة والحرير الجديد (المؤلف) .

عليها عدة مرات ، وأخيراً فقدوها ، وفى النهاية استردها الأتراك من النصارى عام ١٥٧٠ م وهى تحت سيطرتهم حتى الآن ، وفى الحرب الأخيرة بين الروس والرومان استولى عليها الإنجليز بشرط أداء الخراج السنوى للسلطان ويدفع حتى الآن ، وهى الآن خاضعة للإنجليز .

فى هذه الجزيرة مدينتان كبيرتان : لرناكه وليماسول ، وقد رست الباخرة فى كلتاهما بعض الوقت ، وتجولت فى ليماسول ، ولأن الإنجليز يحكمونها لم يطلبوا منى جواز السفر ، ودخلت فيها وعلى رأسى عمامة فارسية مرتديًا عباءة هندية (شيروانى) وربما لم ير الناس هناك هذا اللباس من قبل ؛ لأنهم كانوا ينظرون إلىّ بتعجب كلما مررت من أمامهم ، وإذا وقفت تجمعوا حولى ليتفرجوا علىّ ، دخلت أولاً فى المسجد الجامع ، وملحق بالمسجد مدرسة صغيرة رأيت فيها عالمًا جليلاً وقوراً بملابس جميلة يلقى الدرس على الصفوف الابتدائية فبادرته بالتحية فهب واقفًا ورد علىّ بأحسن منها وأشار إلىّ بالجلوس ، وكان الطلاب جالسين حول الطاولات ، فجلست بالقرب منهم ، وقرأ أحدهم عدة آيات من القرآن الكريم بأمر من أستاذه ، فأثرت فىّ تأثيراً عظيماً ، وقلت فى نفسى ، أين هذه الجزر النائية فى بحر الروم وأين تلك الصحارى القاحلة فى الحجاز ، وما هذا التأثير الذى فى هذا الكلام المقدس الذى سرى بقوة البرق من الشرق إلى الغرب ولازال باقيًا حتى اليوم ؟ كان ذلك الطفل البرىء ذا صوت حسن ، يقرأ طبقًا لمبادئ التجويد ، وصادف ذلك ترتيله لآيات مؤثرة فجعلتنى كل هذه الأمور مجتمعة غائبًا عن الوعى ، وطرأت علىّ حالة من الوجد .

ومع أن الإنجليز يحكمون هذه الجزيرة منذ خمسة عشر أو ستة عشر عامًا ، إلا أنهم طبقًا لخططهم السياسية أبقوا على كثير من الشئون القديمة فى الإدارة ؛ فالمحاكم القضائية مستقلة تمامًا ، والإنجليز لا يتدخلون فى القضايا الشرعية ، وقد نلت شرف لقاء حضرة القاضى ، وهو إنسان وقور دمث الخلق ، والمنهج التعليمى بالكامل تابع للنظام التركى ، وجميع المدارس والكتاتيب تتبع مقررات الإدارة التعليمية فى تركيا ؛ فالمدرسة التى ذكرتها الآن يدرس فيها القرآن الكريم ورسائل أولية فى الفقه والتاريخ والجغرافيا ، وطريقة التعليم ممتازة ، وعند عودتى من القسطنطينية زرت هذه المدرسة مرة أخرى ، وكان الوقت صباحًا ، ولم يكن المدرس قد حضر ، وكان بها تلميذان أو ثلاثة ، فاستقبلونى بأدب جم وخلق عظيم وسألنى أحدهم قائلاً : أين وطنك ؟ (من أى وطن أنت ؟) قلت من الهند ، فقال : الهند بلد واسعة . فاذكر لنا المدينة على وجه الخصوص ، فقلت : عليكره، فقال :سأنظر فى الخريطة أين تقع ، وكانت خريطة الهند معلقة على الحائط أمامه ، فألقى عليها نظرة عابرة ، وعلى الفور وضع إصبعه على عليكره ، وقال : هنا ، ولم يكن عمره تجاوز عشر سنين واندهشت من ذكائه الحاد وذاكرته القوية ، وسألته : من ملكك ؟ قال : آفندم ، آفندى فى اللغة التركية تعنى حضرة المخدوم ، وعندما تستعمل معها ميم المتكلم يكون المقصود منها عمومًا الملك . قلت : الإنجليز يحكمون هنا ؛ فقال : نعم إنهم مستأجرون يؤدون الخراج السنوى . إن إستراتيجية الإنجليز إستراتيجية علمية تمامًا ؛ فهم عندما يستولون على بلد يستولون عليها بهدوء تدريجيًا حتى لايشعر السكان بتغيير نظام الحكم .

واللغة هنا هى اللغة التركية ، وهذه اللغة هى لغة جميع الأقاليم والمدن من هنا حتى القسطنطينية ، ونستنتج من هذا مدى سيطرة الحكومة التركية وتغييرهم للغة البلاد التى فتحوها ، فآسيا الصغرى بلاد واسعة ويقطنها النصارى بكثرة ، وكانت لغتهم منذ القدم اللاتينية أو اليونانية ، أما الآن فإن هذه البلاد بأكملها تتحدث التركية ، والمدرس والقاضى اللذان ذكرتهما فى قبرص وإن كانا يعرفان اللغة العربية معرفة جيدة ، إلا أنهما لا يستطيعان التحدث بها ، ولاشك أنهما يفهمان الجمل العادية البسيطة ، والتى على أساسها دار الحديث بينى وبينهما .

لم يكن فى مقدورى فى هذه الفترة الوجيزة تقدير حالة المسلمين ووضعهم بشكل صحيح يبدو من الظاهر أن وضعهم سئ ، كما اتضح لى بالبحث أن كل ما رأيته من مبانٍ شامخة أو دكاكين كبيرة هى ملك للنصارى .

وفى ١٨ مايو وصلت الباخرة إلى رودس ، وتوقفت بها لثلاث أو أربع ساعات ، ورودس جزيرة صغيرة ، مساحتها – طبقًا لبيان مؤرخينا القدامى – نحو ستين ميلاً ، وقد ورد فى كتب الجغرافية التى ترجمتها جمعية عليكرة أن طولها أربعون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً ، وهى أيضًا من بين الفتوحات القديمة ، فتحت فى عهد معاوية رضى الله عنه سنه ٥٢ هـ ، ورحل إليها فى ذلك الوقت كثير من المسلمين واستوطنوا بها ، كانت لدى رغبة فى التجول فيها لقدمها ، لكن لسوء الحظ كان الوقت ليلاً ، ولم يسمح طاقم الباخرة لأحد أن يرافقنى ، وكذلك الحال فى العودة حيث حرمت من التجول بها لنفس السبب .

في صباح العشرين من مايو وصلنا إلى أزمير ، وهي ميناء كبير ، وقد توقفت الباخرة بها يومين ، نزلت من الباخرة مع أصدقائي الشوام ، وكانوا على الشاطئ قد سألوني مرة أخرى عن جواز السفر ، ولكنني لم أواجه صعوبة في الرد عليهم بفضل أصدقائي ، وهذه المدينة التي يطلق عليها في الإنجليزية اسم « سمرنا » هي المركز الرئيسي لآسيا الوسطى ، ولا توجد مدينة في هذه الولاية أوسع منها عمرانًا ولا أكثف سكانًا ، وهي مدينة لها أهميتها من حيث الأحداث التاريخية وقدمها ، وبها قبر هومر الشاعر اليوناني الشهير ، والذي يعتبره الأوربيون أعظم شاعر في العالم ، وكان في هذه المدينة كنيسة من الكنائس السبع المقدسة التي ورد ذكرها في الإنجيل ، وقد تعرضت – وعلى مدار العصور– للدمار والتخريب عشرات المرات ، ورغم هذا فإن سكانها حاليًا يزيدون على مائه ألف ، والأرض حولها خصبة ، وهي مركز تجاري مهم ، توجد السفن والبواخر في مينائها في كل وقت ، ويمر بها القطار من هنا يوميًا مرتين .

والآثار الإسلامية هنا كثيرة ، وقد ذكر لي الناس أن عدد المساجد هنا لا يقل عن ثلاثمائة مسجد بعضها في غاية الأبهة والرفعة .

عندما نزلنا من الباخرة رأينا سلسلة من المباني الشامخة والسامقة بمحاذاة شاطئ البحر في خط مستقيم ، ومن بين هذه المباني توجد الفنادق ، والمقاهي ، والمسارح ، والمراقص ، ودكاكين التجار النصارى ، وهي جميلة المنظر ، وفي الليل تبدو المدينة دائمًا كأنها في عيد من الأعياد أو مهرجان من المهرجانات أو في حفل عرس ، وتزدحم الشوارع بالناس علاوة على المقاهي والمراقص ، وحيثما تذهب يأتيك

صوت الموسيقى والغناء ، وخلف هذه المبانى حارة للنصارى بها مبان عالية وشاهقة لم أشهد مثلها حتى الآن ، وجميع الطرق والأزقة فى هذه الحارة نظيفة ومعبدة .

اتجهت لداخل المدينة بعد أن انتهيت من التجول فى هذه الحارة ، أما وسط المدينة فغاية فى الجمال ويزدحم بالمارة فى كل وقت ، وكأنهم فى عيد من الأعياد ، لكن الشوارع قذرة وغير ممهدة ، ومن الصعب المشى فى الأزقة والطرقات ؛ لأنها مليئة بالوحل والقانورات ، والحقيقة أن إدارة البلدية سيئة للغاية فى كل هذه البلاد ، وهو أمر خطير يجب على الحكومة التركية أن تتنبه له .

بدأ أصدقائى الشوام يشعرون بالجوع من كثرة المشى والتجوال ، فذهبنا وجلسنا فى دكان خباز ، ومع أننى لم أكن أشعر بالجوع ، إلا أننى شاركتهم بإصرار منهم ، ومن كلمة خباز تذكرت الخبازين فى الهند ودكاكينهم الحقيرة ، لكن هذه المقارنة تعد فى غير محلها بالنسبة لقرائنا ، إن إعداد وترتيب المحل العادى هنا يكون بوضع عدد من الطاولات الصغيرة وتصف الكراسى من حولها ، أما الطاولات فقوتها مفارش نظيفة جداً ، وصنبور الماء مثبت على الحائط فى إحدى الأركان ، وتحته إناء ، وتم وضع صابونة ومنشفة فى الجانب الأيمن ، وعلى هذا النمط تكون المحلات العادية جداً ، أما المحلات الكبرى التى يطلق عليها فنادق ؛ فهى فى غاية الفخامة والأبهة ، إلا أن هذا النوع من الفنادق يمتلكه فى الغالب النصارى .

أردت أن أزور مدارس المدينة ، لكن اليوم كان يوم الجمعة وجميع المدارس مغلقة ، فصليت صلاة الجمعة فى جامع حصار ، وهذا المسجد

فى كامل الزينة والأبهة ،على سقفه نقوش ذهبية ، وأعظم ما فيه أنه على جانبى الصحن عمودان كبيران مثبت عليهما ساعتين يعرف بهما أوقات الصلوات وتزينان المسجد كذلك ، ولو قلدنا ذلك فى الهند لكان أمراً طيباً ، ورأيت هنا فى الخطبة والصلاة بدعًا لا أصل لها فى الشريعة ولا هى مقبولة فى حد ذاتها ؛ فبينما الخطيب يلقى خطبته يتوقف عندئذ يقرأ بعض الناس شيئا ما بصوت مرتفع ، وعندما يصمتون يبدأ الخطيب مرة أخرى، وهكذا يتكرر هذا الأمر عدة مرات ، وفى الصلاة – بصفة عامة – يتلون قصار السور التى لا تزيد عن ثلاث أو أربع آيات مع أنه من المعتاد فى سائر أنحاء الدنيا قراءة السور الطويلة فى صلاة الجمعة .

وبعد الانتهاء من الصلاة ، ذهبت إلى المكتبة وهى مكتبة ليست كبيرة تشغل غرفة صغيرة فى ركن من أركان المسجد ، والكتب فى ثلاثة أو أربعة دواليب صغيرة ، وبعد أداء الصلاة يجلس فيها معظم العلماء والمؤلفين ، وفى الوقت الذى وصلت فيه حضر عدد من العلماء وهم : مولانا مصطفى أفندى إمام المسجد الجامع والمدرس بالمدرسة ، وصبرى أفندى مدرس بالمدرسة الإعدادية ، ومولانا سعيد ، وشكرى بك ، وحسنى أفندى مدير التعليم السابق ، وبعد السلام والتحية قال أحد العلماء نحن الآن نناقش بعض المسائل الفقهية ، فلو طاب لك ذلك شاركنا إثارة هذه المسألة ، فقلت عن طيب خاطر ، وكان حديثهم عن المتعة مع ذكر الخطأ الشائع وهو أن قول عمر رضى الله عنه يدل على أن المتعة كانت باقية حتى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فتحدثت بالتفصيل فى هذا الموضوع ، واتفق معى جميع الحضور، وكانوا لا يفهمون اللغة العربية فتحدثت معهم باللغة الفارسية ، وكان هذا المنهج

فى البحث والنقاش رائج وعام فى هذه البلاد وهو أسلوب رائع ، ولا سبيل لشخص غريب أنفع وأسهل من ذلك للقاء جماعة من العلماء والتباحث معهم ، وأفضل ما فى هذا الأسلوب أن المناظرة لا يشوبها هوى وتسلط ، ففى أثناء الحوار لو أدركت أن المخاطب لا يستطيع أن يؤدى واجبه فى الاعتراض فإننا نثير قضية أخرى عن عمد ، وكان هذا النوع من المجالس العلمية أكبر وسيلة لنجاحى فى هذه الرحلة ، وتغلبت فى بعض الأماكن عن طريقها على مصاعب لم يكن لى حيلة فى التخلص منها .

وتحركت بنا الباخرة فى مساء ٢١ مايو ، ولم نصادف مرفأً كبيراً من هنا حتى القسطنطينية ، وقد توقفت الباخرة فى بعض الأماكن لأوقات قصيرة ، لكننا لم نستطيع النزول ، وكانت هذه الأماكن فى الغالب مناطق عسكرية فيها آلات وأسلحة حربية ، وتعد قلعة شناق إحدى هذه المناطق ؛ حيث يوجد بها قلعة محصنه جداً ، وقد أخبرنى الناس أنه عندما قرر محمد الفاتح فتح القسطنطينية لم تكن المدافع والقنابل رائجة آنذاك بشكل عام ، فصمم محمد الخامس المدافع بنفسه ، وأعدَّ لها قذائف من الحجارة والطين ، والتى لايزال بعضها محفوظ على سبيل الذكرى ، وكانت هذه القذائف والقنابل غاية فى القوة والمتانة ، ويذكر أنها لم تكن تقل بشىء عن قذائف الحديد ، وقد أُعدت مثل هذه القلاع والحصون الحصينة على جانبى البحر من إزمير حتى القسطنطينية ، ويوجد بها عتاد عسكرى كبير لدرجة أنه من الصعوبة بمكان على أقوى الدول أن تتجه للهجوم على العاصمة من هذا الطريق ، بُنيت هذه القلاع والحصون جميعًا فى عهد الفاتح ، فهذا الملك المشهور

عندما تقدم للاستيلاء على القسطنطينية أعد القلاع والحصون ، وأنشأ المعسكرات الحربية هنا وهناك على طول الطريق ، إلا أن كل هذه التفاصيل يرويها الناس شفاهة ، ولم أجد لها تأكيداً فى كتب التاريخ .

وبعد أن غادرنا قلعة شنان ، رأيت منظراً عجيبًا ، حيث كانت الباخرة تسير بسرعة ، ويبدو من بعيد نافورة صغيرة فى الماء ، وبعد قليل اتضح أن أمامها عدداً من الأسماك على سطح الماء ، ومع أن الباخرة كانت تسير بسرعة فائقة ، إلا أن هذه الأسماك كانت تأتى بمحازاتها ، وأحيانًا عندما كانت تتنفس فإنها تزفر بقوة هائلة ، وعندئذ يبدو وكأن فى الماء نافورة صغيرة ، وقد ظلت تعدو بجوار الباخرة لمدة ميلين أو ثلاثة ، وكان جميع الركاب ينظرون إلى هذا المشهد بدهشة ، وكان البعض يعتقد أن تلك الأسماك لم تر صورة باخرة قط ، ولهذا فإنها تظن أنها حيوان ما ، وتريد ألا تتقدم عليها الباخرة فى هذه المنافسة الحماسية ، وعند العودة حدث مثل هذا مصادفة ، وقد اتضح لى بالاستفسار فى ذلك الوقت أن هذه الأسماك جاءت إلى ذلك المكان مصادفة ذات مرة ، وألقى موظفو الباخرة لها بعض الطعام ، ولهذا فإن أكثر هذه الأسماك تتجمع كلما تمر باخرة من هنا طمعًا فى ذلك ، وتعدو مع الباخرة لمسافة بعيدة .

الوصول إلى القسطنطينية وترتيب أمر الإقامة :

وصلت إلى القسطنطينية فى صباح يوم ٢٣ مايو ، حين رست الباخرة ، وكان من الطبيعى أن تتملكنى السعادة فى ذلك الوقت لوصولى إلى الهدف المنشود ، إلا أن ضجيج الحمالين والملاحين وصيحاتهم أفقدنى الوعى ، وقد حاصر الملاحون الباخرة بأسرها ، وأثاروا ضجة

هائلة وعجيبة بصـياحهم وتزاحمهم ، ولم أكن منذ البداية قد قررت - ولا استطعت - إلى أين سأتجه بعد النزول من الباخرة ؛ فالفندق لا يناسب طبيعتي (سيتضح سبب ذلك فيما بعد) وكنت لا أطمئن إلى بيوت الضيافة بسبب جهلي بها ، وكانت المشكلة الكبرى أن أصحابي الشوام – والذي يمكن أن أتوقع منهم كل نوع من أنواع المساعدة – كانوا في عجلة من أمرهم للوصول إلى كلياتهم ، ولهذا لم ينتظروني ، وعندما رآني الملاحون والحمالون وحيداً بدأوا في إزعاجي ، وكان اضطرابي قد تضاعف بسبب هذه الفكرة ، وهي إذا كنت أواجه هذه الصعوبة على الباخرة بسبب غرابة اللغة فما عساه أن يكون حالي في المدينة ؟ وبقيت في هذا التردد ردحًا من الوقت حتى نزل معظم الركاب من الباخرة أو أنزلوا منها ، وفي النهاية تركت أمتعتي عند الطاهي ، وقلت له إنني سأتجول في المدينة ثم أعود ، وكان الهدف من ذلك أن أذهب إلى المدينة أولاً لترتيب أمر إقامتي ثم أعود لآخذ أمتعتي من الباخرة ، وكان بعض من عرب الشام قد استأجر مركبًا وأخذوني معهم ، وعلى الشاطئ طلبوا مني بطاقة التعارف ، فأبرزت لهم وثيقة السفر الإنجليزية ، ولكنهم طلبوا مني جواز السفر ، المهم أنني تخلصت منهم بصعوبة ، وبينما كنت في حيرة من أمري ، إلى أين أذهب ، رأيت أحد العرب الشوام ، وكان اسمه عبد الفتاح . تعرفت عليه في الباخرة ، فشرحت له مشكلتي وقلت له : « عليك أن تخبرني عن حل مناسب » فقال لي : حالتي تشبه حالتك لذلك من الأفضل أن نبقى سويًا ، ومع أن هذه الطريقة كانت خلافًا للحيطة والحذر ، إلا أنني كنت مضطراً لقبولها بسبب غرابة اللغة وعدم معرفتي بها ، وحقًا كانت هذه الرفقة المفاجئة مقدمة لجميع نجاحاتي .

وتوجد هنا عدة طرق لإقامة المسافرين ، وتعد الفنادق أكثرها راحة وأمنًا ، إلا أن أجرتها لا تقل عن جنيه واحد يوميًا هذا أولاً ، وثانيًا فإن أكثر الفنادق الجيدة ، بل جميعها تقريبًا ، يعيش فيها أوربيون ، وهى بعيدة عن إستانبول فى حين أن جميع الكليات والمدارس والمكتبات والمساجد الجامعة توجد فى إستانبول .

ويأتى بعد الفنادق النُزل أى الرباط ، ولكن هذه النُزل ليس بينها وبين نزل الهند أى مقارنة ، فهنا أكبر رباط به عدد من الغرف الكبيرة الفسيحة مجهزة بالأساس الضرورى ، فيها دائما الأسرَّة والأرائك والأردية والألحفة وغيرها ، وبكل حجرة عدة أسرَّة وأجرة السرير الواحد ما بين ثمانية أو عشرة قروش .

والطريقة الثالثة هى استئجار المنازل أو بيوت الضيافة التى تتكون فى الغالب من طابقين أو ثلاثة ، وفى كل طابق عدد من الغرف ، وكل غرفة مجهزة بوسادة ولحاف وأريكة وسرير وسجادة ومصباح ومتكأ وكرسى ومنضدة ، وأجرة الحجرة فى الشهر مابين عشرة روبيات وعشرين حتى ثلاثين روبية . وملاك هذه البيوت ومؤجروه هم بصفة عامة من النصارى يقيمون أيضًا فى تلك البيوت ، ولهذا السبب يجد المسافرون الراحة الكاملة .

وعلى الرغم من أنه – كما ذكرت الآن – يعد استئجار المنزل أكثر الطرق راحة ، إلا أننى وصديقى الشامى لم نكن نعرف هذا الأمر، ولهذا – وبعد تدبير الأمر واستحسان الإقامة فى بيت الضيافة – رجعت إلى الباخرة وحملت أمتعتى وأقمنا بهذا الرباط حيث استأجرنا غرفة رائعة وأقمنا ستة أو سبعة أيام بالقرب من الباب العالى .

ومن حسن حظى أن نشأت صداقة وطيدة بينى وبين الشيخ عبد الفتاح وهو من أسرة عريقة بالشام ، وكان فى دمشق شيخ كبير هو حضرة خالد النقشبندى ، يقدره الناس هنا ويبجلونه لدرجة أنهم لا يذكرون اسمه و إنما يلقبونه بالحضرة ، وكان هذا الشيخ من مريدى الشيخ ميرزاجان جانان الدهلوى[1] ؛ أى أنه تربى على تراب أرضنا الهند ، وكان الشيخ عبد الفتاح ابن أخيه ، ولهذا فإن الناس يقدرونه لهذه القرابة ، ولأنه يوجد فى القسطنطينية جماعة كبيرة من الشوام ، فلم تمضِ أيام قليلة حتى زار أكثرهم الشيخ عبد الفتاح ، وقد تعرفت على هؤلاء الناس عن طريقه.

وذات يوم جاء الشيخ على ظبيان - وولده صوفى كبير - للقاء الشيخ عبد الفتاح وكنت موجوداً عنده فى ذلك الوقت وبالصدفة كانت رسالتى القديمة « إسكات المعتدى »[2] التى كتبتها باللغة العربية أمامه ؛ فأخذها ونظر فيها ، وقال : لقد رأيت هذه الرسالة عند شيخى فى دمشق منذ وقت طويل ، وقال عن مؤلفها « شكر الله مساعيه »[3] ، وعندما علم الشيخ على ظبيان أن هذه الرسالة من تأليفى نهض ورحب بى ترحيباً حاراً ، واستقبلنى فى غاية الود ، وقد سعدت أيما سعادة ؛ لأن هذه الرسالة المتواضعة قد وصلت إلى هنا ولاقت قبولاً بين العلماء ، وقد وجدتها فرصة سانحة للتعارف عن طريقها فى الرحلة . والشيخ على ظبيان شاب قرأ كتب الفقه على الشيخ عبد الرحمن حفيد وتلميذ مؤلف

(١) شاعر نظم بالفارسية والأردية ، واسمه الأدبى هو مظهر .
(٢) وموضوع هذه الرسالة يتعلق هل يقرأ المأموم الفاتحة خلف الإمام . (المترجم ٩ .
(٣) وردت كما هى باللغة العربية فى الأصل (المترجم) .

« رد المحتار » المعروف بالشامى ، ومع أنه كان لديه حظ وافر فى علوم عصره ، إلا أنه كان بارعاً فى الأدب ، وقدم قصيدة غير منقوطة[1] و فى مدح السلطان وقد نال عنها الصلة والعطاء ، وهو ضيف على درويش باشا منذ فترة ، وقد توثقت صلتى به على مدار الأيام ، فكان يزورنى كل يوم رغم بعد المسافة ، وأحياناً يبقى معى طول اليوم ، وقد رجع الشيخ عبد الفتاح إلى دمشق بعد عدة أيام ، وكنت أعانى من الوحدة فى ذلك الوقت ، لكن الشيخ على ظبيان قد أزال بمواساته لى جميع أحزان القلب .

رغم أن الغرفة التى استأجرناها كانت جميلة وذات مناخ مناسب ، لكن صاحبها كان سيئ الخلق ، فاستأجرت بيتاً آخر بعد عدة أيام بقيت فيه حتى النهاية ، وكان هذا البيت إلى جانب جماله وملاءمته يتميز بأن صاحبة البيت امرأة حسنه الخلق بالرغم من أنها كانت نصرانية إيطالية ، وكانت تتحدث باللغة العربية بقدر ما تحتاجه وتأنس بالمسلمين أنساً خاصاً .

لم نكن فى حاجة إلى إعداد الطعام والشراب ، فالمطاعم والمقاهى موجودة بكثرة هنا ، وهى مرتبة ومنسقة غاية التنسيق ، وتناول الطعام هنا فى الأسواق ليس عيباً على الإطلاق ، وقد رأيت كثيراً من الموظفين الرسميين الكبار يتناولون الطعام فى المطاعم ، وهذه المطاعم يملكها عادة النصارى ، وهناك دكاكين خاصة بالمسلمين تشابه دكاكين الهند فى كل الأمور فيما عدا الكراسى والمناضد .

(١) أى مستخدماً الحروف التى لا نقط فيها مثل الألف والحاء والدال والراء وغيرها (المترجم) .

كنت قد بدأت نظم قصيدة أثناء سفرى بالسفينة، اكتملت تماماً بعد أن وصلت إلى القسطنطينية ، وهى تتضمن أحوال السفر بشكل إجمالى ، وجعلت عنوانها : بيان مجمل لأحوال السفر من على كره إلى القسطنطينية[1] .

(١) تضمنت ٧٢ بيتًا من الشعر ، وترجمتها إلى العربية لا يفيد القارئ العربى (المترجم) .



مجمل تاريخ القسطنطينية ومختصر أحوالها

قبل أن أتناول هنا التفاصيل التاريخية بعناوين منفصلة ، فإن الضرورى هنا أن أذكر تاريخها القديم باختصار شديد إلى جانب أحوالها الراهنة بشكل مجمل ، إن بداية تاريخ هذه المدينة (التى كانت تسمى بيزنطينة) مغرق فى القدم ، ولم يمض عليها وقت طويل منذ أن سميت بالقسطنطينية ؛ حيث بناها قسطنطين الأعظم سنه ٤٧٦ م ، وظلت عاصمة لقياصرة الروم منذ ذلك الوقت وحتى عهد محمد الفاتح ، وقد تناولت كتب الجغرافيا الإنجليزية والإسلامية الحديثة تاريخها بشىء من التفصيل ، وقد تعرضت لذكرها كذلك كتب الجغرافيا القديمة عند المسلمين ، ولا أعرف مؤرخًا إسلاميًا غير ابن بطوطة كتب عن أحداث رآها بعينه فى ذلك الوقت ، وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة سنه ٧١٥ هـ حين كان يحكمها النصارى ، يقول ابن بطوطة : « وهى متناهية فى الكبر منقسمة قسمين ، بينهما نهر عظيم المد والجزر ، وأحد القسمين يسمى إستانبول وهو بالعدوة الشرقية من النهر ، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس ، وأما القسم الثانى منها فيسمى غلطة ، وهذا القسم خاص بنصارى الإفرنج يسكنونه - ويمتدح ابن بطوطة تجارتها وثراء تجارها ويهجو قذارتها - فيقول : « وجميعهم أهل تجارة ومرساهم من أعظم المراسى ، رأيت به نحو مائة جفن من

القراقر وسواها من الكبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة ، إلا أن الأقذار غالبة عليها ، ولا يستثنى من ذلك حتى الكنيسة » .[١]

حاول المسلمون الاستيلاء عليها في القرن الأول ، وكان أول من ضرب بسيفه على الباب الحديدى لسور هذه المدينة هو عبد الله بن المطلب قائد جيش الخليفة الوليد بن عبد الملك ، ثم تابع الخلفاء والسلاطين الهجوم عليها من بعده ، إلا أن نهاية قياصرة الروم كانت على يد محمد الفاتح الذى رفع لواء الإسلام بدلاً من الصليب على هذه العاصمة الكبيرة سنة ٨٥٧ هـ ، ومن الأمور الجديرة بالذكر عن هذه المعركة المدهشة هى أن طريق الميناء كان محصنًا من ناحية البحر ، فقام الأتراك بفرش خمسة أميال كاملة من الأرض الصخرية التى بين البوسفور وجولدن هارن[٢] بألواح خشبية ، وقاموا بتثبيت السفن على عجلات وسيروها عليها ، وهكذا نقلوا جميع الجيوش إلى جولدن هارن ، وكان عمر هذا الفاتح الشهير آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا والمادة التاريخية لهذا الفتح « بلدة طيبة » .

وهذه المدينة فى الوقت الحالى عامرة على جانبى الفرع الطويل الممتد للبوسفور، ولهذا السبب فهى مقسمة إلى جزئين ، الجزء الأول يسمى إستانبول وفيه جميع المساجد الكبيرة الجامعة والمكتبات ومقابر الملوك والسلاطين ، ويقطنه أيضًا المسلمون بكثرة . والجزء الثانى يبدأ

(١) نقلت هنا وصف ابن بطوطة حتى يمكننا مقارنة ذلك بالحالة الموجودة الآن (المؤلف)
– ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار الكتاب اللبنانى – بيروت – ص ٢٢٣ – ٢٢٤ (المترجم)
(٢) أى القرن الذهبى .

من بيرة ، ونهايته عند « بشكطاش » حيث قصر الخليفة وقصر العدل ، وعلى الجانب الآخر لبيرة توجد « غلطة »، وبها يسكن جميع التجار الأوربيون الكبار ، كما أن سفراء الدولة يقيمون هنا ، ومن المناسب أن نسميهما المدينة الأوروبية .

يقال ليس فى العالم مدينة تضارع القسطنطينية حسنًا وبهاء ، والواقع أنها من حيث الشكل لا يمكن أن يتخيل العقل أجمل منها ، ومن أجل ذلك يطلق الإنجليز على مينائها اسم « جولدن هارن » أى القرن الذهبى ؛ حيث تمتد هنا سلسلة المبانى على شاطئ البحر ، والأرض الفضاء التى أمام المبانى ممهدة ونظيفة للغاية ، وسطحها يساوى تماماً سطح الماء ، ومن هنا يبدو المنظر ساحراً بهيجاً .

ويمكن أن نقدر اتساع المدينة وتمدنها من البيانات التالية : فى إستانبول وحدها خمسمائة مسجد جامع ، و١٧١ حماماً ، و ٣٢٤ رباطاً ، و ١٦٤ مدرسة قديمة ، و ٥٠٠ مدرسة حديثة ، و ١٢ كلية ، و٤٥ مكتبة ، و٣٠٥ خانقاه ، و ٤٨ مطبعة ، ووسائل المواصلات كثيرة ومتعددة منها عربات الترام واثنتا عشرة سفينة بخارية ومترو الأنفاق والقطارات العادية ، التى تتحرك كل نصف ساعة وتسير فى كل الأوقات ، وبالرغم من هذا فإن الشوارع تظل مزدحمة بالمشاة فى كل وقت ، وكأنهم فى عيد من الأعياد ، وضريبة الجسر الذى يربط غلطة وإستانبول قرش واحد على كل عابر، ولا يقل الدخل اليومى من عبور عن خمسة أو ستة آلاف روبية .

المقاهــى :

المقاهى هنـا كثيـرة جـداً ، وفى اعتقـادى أنـها لا تقل عن أربعة أو خمسة آلاف مقهى، وبعضـها فخم للغاية وتضاهى مبانيها القصـور الملكية ، ويتوفر فى هـذه المقاهى كل أنواع المشروبات والعصائر والشاى والقهوة ، وبعض هذه المقاهى على شاطئ البـحر ، وبعضـهـا فى وسط البـحر وتصلها بالشـاطئ جسور خشبيـة ، ويوجـد فى هذه المقاهى الصحف والجرائد اليومية حيث يجلس الناس يشربون القهوة ويطالعون الصحف ، وتعد المقاهى فى القسطنطينية بل فى جميع هذه البلدان من ضروريات الحيـاة اليوميـة ، وعندمـا سمع منى أصـدقـائى العرب أن المقاهى غير رائجة فى الهند عجبوا لذلك وقالوا « بايش يتسلون ؟ » أى كيف يفرج الناس عن أنفسهم هناك . وفى هذه البلدان يجد الناس فى المقاهى الفرصة سانحة للقاء الأصدقاء وتجاذب أطراف الحديث معهم .

وللأسف فإن الهنود لا يميلون إلى هذه الأمور ، ولا يعرفون أن هذا النوع من التجمع العام ضرورى إلى حد ما لمتعة الحياة ، وكم لها من تأثير على جمال الطبع ، نعم لدينا مجالس الأصدقاء وهـى علـى النحو التالى حيث يجتـمع أحيانًا صديقان أو أكثر ويلتقون فى منـزل أحـد الأصـدقـاء ، لكـن هنـاك عيـبين كبـيرين فى هـذه الـطريقة أولهـمـا أن مجالس التفريح يجب أنْ تكون فى الأماكن الخلوية لكى تستفيد صحة الإنسان من الهواء النقى العليل . وثانيهما وهو الأسوأ فلأن هذه الجلسة تُعد جلسة خاصة لا يذكر فيها شىء ذا بال سوى الغيبة والنميمة ومثل هذا النوع من اللغـو ، أمـا المقـاهى فـهى على العكس من هذا فـلا تسنح الفرصـة لمثل هـذا النوع من الأحـاديث بسبب هذا التجـمع العـام ، كنت

دائمًا أجلس فى القسطنطينية ومصر مع الأصدقاء فى المقاهى ليلاً ، لكن هذه المجالس كانت نزيهة، ولم أسمع فيها أحد يغتاب أخاه أو يلهو ، وكان حديثهم عن الطرف والنوادر .

نماذج للحضارتين الأوربية والآسيوية :

ومن أكبر مميزات القسطنطينية أن المرء إذا أراد رؤية الحضارتين الأوربية والآسيوية مجتمعتين معًا فى مكان واحد يمكنه أن يرى ذلك هنا ، فلو أنت تجولت فى دكاكين باعة الكتب تجدها واسعة جداً ، وقد فرشت بالرخام وبها دواليب جميلة من الزجاج والكتب سواء كانت فى مجلد أو عدة مجلدات غير عادية ، وهى عموماً مذهّبه وصاحب الدكان يجلس على كرسى أمام مكتب ، وهناك شابان أو ثلاثة بملابس قشيبة يقومون بالعمل هنا وهناك ، وما أن تضع قدمك فى الدكان يأتيك شاب ويضع كرسيا أمامك ويعطيك قائمةً بثمن الكتب ولا يقبل المساومة .

ومن ناحية أخرى هناك كتب مكدسة وغير مرتبة على مصاطب على قارعة الطريق وقد فرشت على الأرض وفى مكان ضيق ولا يتسع لأكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص وتقضى ساعات فى المساومة على تحديد الثمن .

وهكذا يوجد كلا النموذجين من الدكاكين فى كل حرفة وصنعة وجميعها بشكل عام نظيف ومرتب ومزين ، ولو زرت مدينة غلطة لحسبتها قطعة من أوروبا ، الدكاكين مرتفعة ومزدانة والشوارع والطرق واسعة وممهدة ،لا ترى فيها شيئًا من الوحل والقانورات ، وعلى العكس من ذلك مدينة إستانبول التى معظم سكانها مسلمون ، فشوارعها غير نظيفة وبعضها غير ممهد يصعب المشى عليه .

وغالبًا فإن الفكرة التى تطرأ على بال السائح الذى يأتى إلى هذه المدينة لأول وهله هى لماذا هذا القدر من الاختلاف البيّن بين قسمى دار الخلافة المعظمة ، وقد كانت هذه الفكرة أول ما طرأ على بالى ، وبحثت واستفسرت كثيرًا فى هذا الصدد عن سبب اختلاف أحوال السكان ؛ فعلمت بسهولة أن السبب هو فقر المسلمين وثراء أصحاب القوميات الأخرى ، لكن لم أستطع تحديد السبب الواضح لعدم تمهيد الشوارع والطرقات ومابها من قانورات ؛ لذا استفسرت عن هذا الأمر من موظف تركى كبير هو حسين حسيب أفندى مفتش الشرطة فقال إن ضرائب بلديتنا ضئيل للغاية وكثير من السلع معفاة من الضرائب ، أما فى مدينة غلطة فإن التجار الأوربيين يدفعون الضرائب الباهظة عن طيب خاطر، ولهذا فإن البلدية يمكنها أن تنفق ببذخ من هذه الأموال ، وفى رأىّ أنها هى نفسها مدينة غلطة التى ذكرها ابن بطوطة واشتكى من قذارتها ووحلها ، أما الآن فقد اهتموا بنظافتها من أجل هذا دفعوا الضرائب الباهظة ، وفى الحقيقة أن النظافة أصبحت اليوم سمة من سمات أوربا

المبانى والحرائق :

تختلف مبانى القسطنطينية فى هيئتها تمامًا عن مبانى الهند ، فالبيوت عمومًا مكونة من ثلاثة أو أربعة طوابق بدون أفنية ، والمبانى كلها من الخشب ، حتى إن بيوت الأمراء الكبار والباشوات من الخشب أيضا ، ومن أجل ذلك يكثر هنا اشتعال الحرائق فى البيوت ، ولا يمر شهر بل أسبوع إلا وقد اشتعلت النيران فى عدة منازل وأتت عليها ، وأحيانًا تحترق حارة أو حارات بأسرها ، والحكومة تعنى عناية خاصة بأمر إطفاء الحرائق ، وقد عُين لذلك العمل بشكل خاص مئات من الناس ،

وأعدوا لذلك برجًا عاليًا جداً يقوم عليه عدة موظفين ، يتواجدون فيه في جميع الأوقات ، يراقبون المدينة فإذا وقع حريق أخبروا المسئولين فوراً ، وعلى شاكلة هذا البرج أعد عدد آخر من الأبراج الصغيرة ، وإذا وقع حريق في مكان ما أطلقت المدافع فوراً ، وهرع رجال المطافئ بكامل أدواتهم من جميع أنحاء المدينة ، وتصدر لهم الأوامر بالإسراع ، وإذا أصابوا أحداً على الطريق بمكروه فلا شيء عليهم . سألت الناس لماذا لا تبنون البيوت من الحجارة ، قالوا إنها تسبب مشكلة كبيرة وأذى في فصل الشتاء وتضر بالصحة .

المناخ :

ومناخ القسطنطينية طيب ومعتدل جداً ، يشتد البرد في أيام الشتاء ، وأحياناً تتساقط الثلوج ، وفصل الصيف الذى عاصرته بنفسى لطيف جداً يعجز عنه البيان ، وتعجبت لماذا لا يشد أمراؤنا وأثرياؤنا في الهند الرحال إلى القسطنطينية بدلاً من شمله ونيني تال ، والماء ينحدر من الجبال وهو ماء عذب مفيد للمعدة .

الفواكه :

يتوافر هنا كل أنواع الفواكه ولاسيما العنب والبطيخ الذى لا مثيل له ، وربما يتفوق في جماله على بطيخ لكهنو ، لكن لا يصل إلى حلاوة البطيخ هنا ، والكمثرى التي يطلق عليها العرب « أجاس » هي هنا في شكل مخروطي مدهش وتشبه الجزر من ناحية الشكل لا من ناحية اللون ، لكنها لذيذة وفي غاية الحلاوة ، والتفاح أكبر وأحلى من تفاح كابل ،

وهنا فاكهة تسمى مشمش تشبه فاكهة « جامن » ، وكل أنواع الفواكه رخيصة جداً ، فكيلو العنب يصل إلى روبيتين ، ولا توجد وسيلة للتمييز بين أجود أنواع التفاح كل حبتين ببيسه (مليم) وهكذا .

الملابـــس :

الملابس كلها على الطراز الأوربى ، ولا يمكن التمييز بين المسلم والنصارى من ناحية الملبس والمظهر ، والطربوش الأحمر الذى يعتبر من الملابس المميزة للأتراك يرتديه النصرانى واليهودى كذلك ، ولهذا السبب لا توجد وسيلة للتمييز بين هاتين القوميتين ، وهذا الأسلوب حسن من ناحية أن الفروق بين الأمم المختلفة إذا أزيلت كانت سببًا مفيداً للمدنية والازدهار ، ولكن ذلك يحدث حرجًا كبيراً فى الأمور الإجتماعية ، وقد واجهت من أجل ذلك مصاعب كبيرة ، وكنت أفكر دائمًا أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أحسن حينما ألزم النصارى بلباس قومى ، ومن العجيب والمثير للدهشة أن المدرسين وعلماء الدين لم يعصموا أنفسهم من التأثير الأوربى ؛ فهم يرتدون السروال والفرق الوحيد أنهم يرتدون فوقه صديرية وعمامة جميلة ، ويرتدون جاكت بدلاً من القميص وفوقه عباءة ، وهذه هى العلامة المميزة التى تميزهم عن غيرهم من الجماعات الأخرى ، وهم لا يضعون أزراراً للعباءة ، ويلبس هؤلاء الناس عادة الطربوش التركى عامة ، لكنهم يلفون عليها شريط من القماش الأبيض ، والذى يطلق عليه العرب اسم « لفة » ، ويعتقد أنها العلامة الخاصة بالعلماء ، أما التفاصيل الخاصة بملابس النساء فسوف أتناوله عند ذكر الحياة الاجتماعية والحضارية للمرأة .

الجوامع والقصـور الملكية :

ومن الآثار التاريخية التذكارية المهمة هنا هى الجوامع والقصور الملكية ، وسنذكر المساجد الجامعة بشىء من التفصيل تحت عنوان خاص ، والقصور الملكية هنا يقال لها السرايات ، ويبلغ عدد القصور عشرين أو واحداً وعشرين ، وكلها تقع على مسافات بعيدة ، وهذه المبانى من عهود مختلف السلاطين ، وهى فى غاية العظمة والأبهة ، ويقع أحد القصور على شاطئ البحر وهو مشيد بأكمله بالرخام وواسع للغاية ومرتفع وجميل ، وعندما نزل ملك ألمانيا ضيفًا على السلطان أقام فى هذا القصر ، ومن الغريب أنه ليس بالمدينة كلها قاعة للبلدية ، والحدائق العامة قليلة جداً ولا تليق بهذه العاصمة الكبرى .

المحـــاكم :

والمحاكم كلها (عدا اثنتين أو ثلاث) فى مكان واحد ، وتسمى هذه المجموعة من المبانى بالباب العالى ، وبالقرب منها محكمة رئيس الوزراء ، وهذه المبانى ليست بهذا القدر من الجمال والبهاء ، والمحكمة العليا التى تسمى هنا محكمة التمييز تقع على مقربة من الباب العالى ،لم أدخل فيها ولكن مبناها من الخارج يبدو فخمًا وجميلاً ، وقد دخلت مبنى إدارة الشرطة فى غلطة ، وتجولت فيه، وهو مبنى عادى ، ولكنه مرتب ومنسق للغاية وقاعة الاجتماعات مفروشة بالسجاد التركى الثمين والمقاعد جميلة ومنسقة ، وقد زرت كذلك مبنى وزارة المعارف، والمبنى عادى ، لكنه يبدو جميلاً من حيث النظافة والتنسيق الخاص .

تطور التعليم

المدارس والكليات :

كان من أهداف رحلتي البعيدة هذه إلى جانب زيارة المكتبات هو استعراض المنهج التعليمي والتقدم الثقافي هنا ؛ فعنيت بذلك أكثر مما عنيت بغيره من الشئون ، ولم آلُ جهداً في هذا السبيل ، لكن لا يجب على القراء أن يعقدوا الأمل بأن أهدافي قد كللت بالنجاح التام ، وأن تقريري التعليمي قد أحاط بالجوانب كلها ، والجهود التي بذلتها في سبيل البحث والتحقيق هي أنني ذهبت عدة مرات إلى مكتب المعارف ، واستطلعت واستفسرت من المسئولين عن التعليم والمعارف ، وقمت بنفسي بزيارة المدارس والكليات الكبيرة ، وقابلت المدرسين والأساتذة ، وحصلت على التقارير السنوية للكليات الكبيرة ، وهذا لايعني أنني وفقت تماماً . ومن أعجب ما جُبل عليه الأتراك أنهم ينظرون إلى كل أمر بعين السياسة ، ولهذا لا يحبون أن يتفشى شأن من شئونهم ويظهر للعيان ، وتقرير وزارة المعارف الذي يُنشر سنوياً يتميز بالإجمال والإيجاز التام ؛ حتى إنه لا يلقي الضوء على نفقات التعليم ورواتب الأساتذة والمدرسين ، وبعض الكليات مثل الكلية الحربية والكلية الملكية تنشر تقاريرها بشكل مستقل ، لكنها لا تحتوي إلا على نتائج الامتحان والمقررات الدراسية فقط .

واعتقدت أول الأمر أننى حصلت على معلومات قليلة لضآلة وسائلى ، ولكن حينما قرأت كتاب خير الدين باشا وزير تونس اقتنعت ؛ لأنه حينما ذكر تركيا وكتب عن حالة تطورها الحضارى والتعليمى أجمل إجمالاً بالغًا ، واعتذر عن ذلك بقوله : " كل ما كتبته عن شئون تركيا إنما كتبته اعتماداً على المصادر الإنجليزية ، ولهذا لم أستطع التفصيل ، ولكن كتابات المسلمين لا تحتوى على هذا القدر كذلك " ، وبعد هذا التمهيد أعتذر وأعود إلى حديثى الأساسى .

مناهج التعليم القديمة والحديثة :

يوجد فى القسطنطينية – بل فى جميع البلاد الإسلامية – منهجان للتعليم : منهج قديم وآخر حديث ، وقد بدأ المنهج القديم للتعليم مع الحكومة التركية ؛ حيث قام أرخان المتوفى عام ٧٦١ هـ وهو الملك الثانى فى هذه السلسلة بتأسيس مدرسة فى « أرنيق » فكانت أول مدرسة أقيمت فى الدولة العثمانية ، وبعد أرخان اهتم السلاطين الآخرون بالتعليم وأسسوا مئات من المدارس ودور العلم ، وقد تحدثت عن ذلك بشىء من التفصيل فى رسالتى « التعليم عند المسلمين فى العهود الماضية » .

وقد بدأ التعليم الحديث عندما تحولت الحكومة التركية من الطراز الآسيوى إلى الطراز الأوربى ، وكان السلطان محمود هو رائد هذه الثورة ، والذى اقتفى آثار الأوربيين ، وقام بتنظيم الجيش على الطريقة الأوربية ، كما أسس هذا المجدد الكلية الحربية فى عام ١٢٥٠ هـ ، وكانت هذه الكلية نواة للتعليم الحديث ، وهذه الكلية موجودة حتى الآن

وهى المركز الأم لجميع المدارس الحربية . وبعد السلطان محمود قام السلطان عبد الحميد فى عام ١٢٦١ هـ بالتوسع فى التعليم الحديث فأقام المدارس الرشدية ، ولايزال هذا التعليم مستمراً حتى الآن فى تطور وازدهار ، و يتكون التعليم الحديث من أربع مراحل :

١ ـ **المرحلة الابتدائية** : ومدة الدراسة فيها خمس سنوات على الأكثر ، ولكن الطالب الذكى المجتهد يستطيع أن يتجاوز هذه المرحلة ، وينتهى منها فى سنتين أو ثلاثة ، بل فى سنة أو اثنتين حيث يتعلم فيها قراءة القرآن الحكيم واللغة التركية والخط العربى ومبادئ الحساب .

٢ ـ **المرحلة الرشدية** : وفترة التعليم فيها ثلاث سنوات ، ويدرس فيها الخط التركى ، ومفردات اللغة التركية ، وقواعد اللغة التركية ، والعقيدة الإسلامية باللغة التركية ، والحساب ، واللغة الفرنسية ، واللغة العربية ، والجغرافيا ، ومسك الدفاتر ، ومبادئ التجارة والرسم ، وهذه المرحلة تعادل عندنا المرحلة المتوسطة أو تزيد عنها قليلاً.

٣ ـ **المرحلة الإعدادية** : والإعدادية تأتى بعد المرحلة الرشدية ، ويقال لها المتوسطة ، وكان مجموع عدد الطلاب هذه المرحلة عام ١٨٩٢م نحو ٥٢١٥ ، وتضم جميع مدارس العاصمة ، والمحافظات . ٤ – وبعد هذه المرحلة يوجد كليات خاصة مثل الكلية الملكية ، وكلية الحقوق وغيرها ، والتى سيأتى ذكرها بالتفصيل فيما بعد . وجميع المدارس العامة والخاصة والتى يبلغ تعدادها فى القسطنطينية خمسمائة مدرسة منها ثلاث عشرة كلية كبيرة .

تطور التعليم فى عصر السلطان الحالى :

من الأمور المسلم بها عمومًا أن التعليم يتطور تطوراً عظيًما يومًا بعد يوم فى عهد السلطان الحالى ؛ فقد كان عدد المدارس الرشدية عندما تبوأ السلطان عرش المملكة ستة وتسعين مدرسة ، وقد بلغت الآن ٤٠٥ مدرسة ، وجميع المدارس الجديدة التى أنشئت فى عهد هذا السلطان خلال ستة عشر عامًا يبلغ عددها حوالى ألفين ، ومع هذا فإن عدد الطلاب فى المدارس والكليات يتضاعف بكثرة ، لدرجة أنه لا يوجد أى تناسب بين تقرير تطور التعليم فى العام السابق عنه فى العام اللاحق ، وفى المحاضرة التى ألقاها الأستاذ ويمبرى قبل عدة سنوات عن التقدم العام للأتراك ذكر فيها أن عدد طلاب كلية الحقوق ثلاثمائة ، لكن حينما كنت فى القسطنطينية كان عدد الطلاب فى هذه الكلية ألفا ومائتين ، وكنت قد قرأت فى جريدة المؤيد المعروفة الصادرة فى القاهرة أثناء إقامتى بمصر « أن السلطان الحالى عندما أمسك بزمام الحكم كانت تكاليف التعليم ثلاثمائة ألف جنية سنويًا ، ولكنها بلغت الآن ثمانمائة ألف جنيه سنويًا » ، وهذا المبلغ يعادل عندنا اثنتى عشر مليون روبية .

وفى الحقيقة أن للسلطان اهتمامًا عجيبًا بالتعليم حيث أسس السلطان بنفسه كلية الحقوق والكلية الملكية ، وهما من الكليات المشهورة فى القسطنطينية ، والسلطان يعتنى بهاتين الكليتين ويقوم بزيارتهما بنفسه .

وحينما كنت فى القسطنطينية أقام السلطان مأدبة ملكية لطلاب جميع الكليات الكبيرة ، وفى القسطنطينية حديقة تسمى « كاغذخانه » يجتمع فيها الناس مرة كل أسبوع وقد اختيرت هذه الحديقة لإقامة المأدبة السلطانية ، وقد أصدر الأمر بأن يدعى إليها طلاب جميع الكليات

بالتناوب ، وكانت أولى الكليات هى الكلية الحربية ، ثم الكلية الملكية ، ثم كلية الخدمة المدنية ثم دُعى طلاب الكليات الأخرى، وكلما خرج الطلاب من كليتهم كانت الطبول الملكية تدق أمام موكبهم بأمر من السلطان ، وكان السلطان لا يستطيع أن يشارك بنفسه فى تلك المآدب بسبب مشاغله ، فكان ينيب عنه دائمًا أحد الوزراء ليشارك الطلاب فى المأدبة ، ويقرأ على الطلاب تحية السلطان ، وحينئذ يهتف جميع الطلاب فى حماس وشوق أطال الله حياة السلطان .

ومن أهم ما سبق إليه السلطان فى مجال التعليم هو تأسيس كلية العشائر ، وبالرغم من أن جميع البلدان التابعة للدولة العثمانية تتمتع بتقدم التعليم لكن القبائل العربية كانت محرومة منه تمامًا حتى الآن ، وسبب ذلك هو بدويتهم وعدم اهتمامهم بأمر التعليم ، وبسبب هذا الأمر أصدر السلطان مرسومًا بتأسيس كلية لتعليم القبائل العربية خاصة وملحق بها دار للإقامة واسعة ومرتبة ، وكانت المراسيم السلطانية قد صدرت - خلال إقامتى هناك - إلى الحكام والأمراء أن يختاروا أبناء القبائل العربية الشريفة من الحجاز واليمن وديار بكر والبصرة وبغداد وطرابلس الغرب وحلب والموصل والشام ويرسلونهم لنيل قسط من التعليم ، وقد وافق السلطان بأن تتكفل الحكومة بكل نفقات تعليمهم ، وافتتحت هذه الكلية فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣١٠ هـ فى احتفال رائع وعظيم ، وأُديت مراسم الافتتاح ، ولا نجد مثالاً لهذا الجهد الجهيد لتربية العرب وتثقيفهم على مدار التاريخ الإسلامى الطويل .

ونجد فى « دار الشفقة » أكبر دليل على الكرم السلطانى ، وقد أُقيمت للأيتام بصفة خاصة مدرسة ، ويدرس فى هذه المدرسة ألف يتيم ، وكلهم

يقيمون فى دار الإقامة ، ويتحمل السلطان بنفسه تكاليف نفقات هذه الجماعة الكبيرة من الأيتام من طعام وملابس وجميع الحاجيات الأخرى وليس إدارة التعليم ، ونذكر فيما يلى المدارس والكليات الجديرة بالذكر هنا وهى :

(١) الكلية الحربية الملكية .

(٢) الكلية السلطانية .

(٣) الكلية الملكية .

ولأننى قد قمت بزيارة هذه الكليات الثلاث وحصلت على معلومات مفصلة عنها ، لهذا سأكتب عنها فيما بعد تحت عنوان منفصل .

(٤) **كلية الحقوق** : يدرس فى هذه الكلية المواد التالية : الفقه ، وأصول الفقه ، والقانون الرومانى ، والقانون التجارى ، وقواعد المحاكمة، والحدود والجنايات ، والقانون البحرى ، والاقتصاد السياسى أى سياسة المدن ، وقوانين الدول الأوربية : نشأة القوانين والتشريعات وتطورها ، وعدد الطلاب فيها ألف ومائتان ، ستمائة منهم مقيمون فى سكن الكلية ، والمتخرجون منها قاضى وقاضى القضاة ، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات .

(٥) **كلية الهندسة** : ومدة الدراسة فيها ست سنوات ، وتشبه كلية رور فى الهند.

(٦) **كلية الألسن** : ويدرس فيها اللغات الألمانية والفرنسية واليونانية والأرمينية واللاتينية والإيطالية والروسية .

(٧) كلية الصناعة أى المدرسة الفنية : وميزانيتها السنوية ٨٢٥٠ جنيه ، أى ٢٢٧٥٠ روبية ، وعدد طلابها ٢٤٠ طالبًا ، وجميع الطلاب أيتام، وتتحمل المدرسة نفقاتهم ، وتُدرس فيها النجارة والحدادة حتى الآن ، وفى العام الماضى طلب مدير المدرسة توفيق أفندى أن تدرس صناعة الآلات .

(٨) كلية النواب : أسست هذه الكلية على مبادئ جيدة ، ففى الماضى كان القضاة والمفتون يعينون دون امتحان فى أى نوع من التعليم ، لكن الآن تقرر أن الشخص لا يتخرج فى هذه الكلية إلا بامتحان ، وهذا الشرط سد الطريق تمامًا أمام التوصيات فى التعيين ، ويدرس فى هذه الكلية الفقه بمستوى رفيع ، بالإضافة إلى بعض مقررات التعليم الحديث حتى يقف الخريجيون على متطلبات العصر الحالى .

(٩) الكلية البحرية : يُدرس فيها فن الملاحة .

(١٠) كلية الزراعة : تُدرس فيها أصول الزراعة .

وهناك عدة أمور تتعلق بمنهج التعليم وهى جديرة بالذكر هنا :

١ – اللغة الفرنسية مادة إلزامية فى جميع المدارس والكليات تقريبًا ، ونتيجة لهذا لا يمكن أن تجد خريجًا من خريج التعليم الحديث غير ملم باللغة الفرنسية .

٢– تُدرس علوم الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا كمواد إلزامية فى جميع الكليات الكبرى ، وتدرس هذه العلوم تدريسا عمليًا ، ولهذا الغرض تتوافر آلات تلك العلوم بكثرة فى كل كلية .

٣ - يدرس التاريخ على مستوى عال ورفيع ، وقد اطلعت على مقررات الكلية الملكية وهى تقع فى ستة مجلدات ضخمة ، وفيها تاريخ مفصل لأوربا ، وأفضل ما فيها أنها ناقشت الأخطاء التى روجها معظم الكُتّاب الأوربيين فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامى وردت عليها ونقدتها .

٤ - يتم تدريس جميع العلوم والفنون فى جميع المدارس والكليات باللغة التركية اللغة القومية ، فيما عدا الكلية السلطانية التى يدرس فيها كثير من الطلاب النصارى ، وقد ترجمت جميع العلوم الحديثة إلى اللغة التركية ، ولاتزال عملية الترجمة تتم من آن لآخر ، ومع أن هذا الأمر يتطلب بحثًا مفاده هل تعد الترجمة وسيلة جيدة للتعلم أم لا ؟ لقد اختار أهل الرأى من مشاهير الهند وعظمائها جانب الرفض فى هذا البحث ، لكن هذا البحث فى الغالب يخص الهند ؛ حيث إن لغتها القومية ليست لغة الحكومة فى حين أن اللغة التركية لغة الدولة ، ولا نجد لذلك مثيلاً فى كل أنحاء العالم أن ترقى دولة ما بتحصيل العلوم والفنون بلغة أمة أخرى ، لقد بدأت نهضة إنجلترا آنذاك عندما ترجموا العلوم والفنون من اللغة اللاتينية إلى اللغة الإنجليزية ، ولا شك أنه إذا كان من الممكن أن تتطور تركيا فإن ذلك يكون عن طريق اللغة القومية .

طريقة إسكان الطلاب :

٥ - وأهم الأمور الجديرة بالذكر والجديرة بالاحترام فى مسألة التربية والتعليم هو نظام السكن ودور الإقامة ، والحقيقة أن تركيا تستطيع أن تفخر بهذا الأمر وتعتز به ، وهو أن النظام الذى تبنته فى سكن الطلاب وإقامتهم لا يرام أفضل منه ، ففى جميع الكليات الكبيرة

سكن ودور إقامة ، يقيم بها الطلاب بأعداد كبيرة جداً مع التعهد بأن تتشابه جميع الخدمات من مأكل وملبس ومسكن ومفروشات ؛ بحيث لا يكون هناك أى تمييز بين الطلاب الذين يأخذون تكاليف الملابس إلى جانب أجرة السكن ومصاريف الطعام ، وتُعدّ الكلية بنفسها وتحت إشرافها ملابس الطلاب ، ويتناول جميع الطلاب الطعام على الكراسى والطاولات ، ويُعنى بالنظافة والأناقة الفائقة فى كل شىء ، ولا تقل المصروفات السنوية عن خمسة جنيهات فى بعض الكليات فى حين تبلغ فى الكلية السلطانية أربعون جنيهاً أى ما يعادل ستمائة روبية هندية .

وهذا الكرم التركى جدير بالاحترام والتقدير ؛ فبالرغم من زيادة المصروفات الدراسية ، إلا أن الفقراء لم يحرموا من التعليم فى هذه الكليات ، ففى كل كلية عدد يعتد به من الفقراء الذين يتلقون المساعدة من جانب الأثرياء من الأتراك ، لدرجة أنهم يدفعون عنهم جميع مصروفات الكلية ، وأن الكلية السلطانية التى تبلغ مصروفاتها السنوية أربعون جنيهاً بها مائتى طالب فقير وغير قادر ، ويؤدى الأمراء وأعضاء الحكومة المصروفات الدراسية عن مائة وخمسين طالباً منهم ، بينما يدفع السلطان مصروفات خمسين طالباً من ماله الخاص ، ومن أثر ذلك أننى بعد أن دلفت من سور الكلية لم أستطع – بأى حال من الأحوال – أن أُمّيز بين أى شخص ، وأن فلاناً طالب فقير وغير قادر ، فالطلاب كلهم سواسية وقد تولدت فيهم معانى قوية للاتحاد والوطنية ، ونال الفقراء أعلى مكانة فى الحياة الاجتماعية ، وتولدت فيهم الشجاعة وبُعد النظر ومن العيوب الجوهرية فى كليات أوربا الكبرى أن الفقراء من الناس لا يستفيدون بأى فائدة من علمها ، وقد تدارك الأتراك هذا العيب وأكملوه بنجاح .

وقد تذكرت مدرستنا دار العلوم بعد أن رأيت نظام السكن هذا، وتأسفت على تفاوت درجات إقامتها ، ولم يكن أسفى فى الواقع على حالة مدرسة العلوم بل كان على أثرياء القوم الذين أعطاهم الله الثروة والمقدرة ولم يمنحهم التوفيق لكى يسعوا إلى هذه المكرمة بكرمهم ، ففى دور التعليم عندنا يبدو تفاوتًا كبيرًا بين الفقراء والأغنياء ، ولهذا فإنى أقول علانية إن الأمر الملح والأكثر أهمية فى كلياتنا القومية هو أن يُساوى بين جميع الطلاب بشكل كامل فى الملابس والهيئة والطعام والسكن ، وأن تُمحى تمامًا الفوارق المختلفة الموجودة الآن فى الكليات ، وإذا لم يتم ذلك فسوف تتلاشى الروح الوطنية فى الكليات .

زى الطلاب :

وهنا سبق آخر فى المدارس والكليات مفيد ومؤثر للغاية ، وهو أن كل طالب يضع شارة ذهبية على ياقة المعطف مثبت عليها اسم المدرسة أو الكلية التى يتلقى تعليمه بها ، وهذه الشارات مكتوبة فقط بخط نسخ رائع ، ولو أنك مشيت على طرق وممرات المدارس والكليات الساعة الرابعة تقريبًا يتراءى لك ترهة عجيبة وجذابة ، فبعد أن يخرج الطلاب من المدارس فى أسراب وجماعات ينقسمون إلى صفوف عديدة ويسيرون بهذا الترتيب والنظام ، وكأنهم جيش نظامى يمشى فى طابور ، والطلاب فى أزياء حمراء وبيضاء عليها معاطف سوداء والكليات مكتوبة على ياقات المعاطف بخط مذهب يبدو جميلاً إلى حد يعجز عنه البيان .

وعلاوة على العظمة والأبهة والفخامة فى هذا النهج هناك فائدة كبرى لذلك ، وهى أن الطلاب عندما يخرجون إلى السوق بهدف التنزه لا يستطيعون أن يأتوا بحركات غير لائقة ، كما أن ارتداء زى الكلية إجبارى فى كل الأوقات ، وهذا يجعلهم يعرفون أنهم طلاب ، ولهذا فعليهم مراعاة قوانين كلياتهم شاءوا ذلك أم أبوا ، وبناء على هذا لو شارك أى طالب فى جمع لا يليق به أو ارتكب حماقة فإن البوليس يقبض عليه ويسلمه للكلية أو للمدرسة التى يدرس بها .

إقامة الطلاب :

يبدو نظام الإقامة هنا للوهلة الأولى سيئًا ؛ فالإقامة ليست فى حجرات منفصلة ، بل يقيم كل خمسين طالبًا معًا فى حجرة كبيرة بها أسرّة مفروشة مطابقة لعددهم ، وعلى كل سرير وسادة ، وبجواره دولاب صغير يوضع فيه الملابس العادية والكتب ، وعندما رأيت الإقامة هنا للمرة الأولى احتقرتها بشكل كامل ؛ خاصة وأن غُرف الإقامة المرتبة والمجهزة فى مدرسة دار العلوم (بالهند) كانت متمثلة أمام عينىَّ ، ولكن اتضح لى بمزيد من البحث والتحقيق أن هذه الطريقة لا تخلو من فائدة ، ولا شك أن السبب الحقيقى لهذا النقص يرجع إلى كثرة السكان والأرض غير ميسرة بشكل كاف ، لكن هناك فوائد لا يمكن الحصول عليها إلا بهذه الطريقة الخاصة ، وإذا زعم زاعم أنها أعدت هكذا عن قصد ، وأن ذلك مناسب لهم ؛ فربما لا يجانبه الصواب .

لقد استخدمت هذه الطريقة بشكل مفيد للغاية حيث إن الحياة اليومية لجميع المقيمين قائمة على قواعد موحدة ، ففى الصباح – على

سبيل المثال – يوقظ الحراس ـ الذين يتواجدون فى غرف النوم طوال الليل ـ جميع المقيمين وقد ثبتوا جميع الصنابير فى الحائط مساوية لعدد الطلاب وأعدوا الأحواض تحتها ، ويذهب جميع الطلاب هناك ويجلسون معًا ، وهناك قدر من الالتزام بين الطلاب الذين يأتون معًا ، وفى بعض الكليات هناك خزان واحد ، وتفتح معًا فى وقت واحد فوهات جميع الصنابير لملئها ، وعندما يحضر جميع الطلاب فإن الخادم يملأ ذلك الحوض ويغلقه بعد مرور الوقت المحدد له ، ولو حضر أحد الطلاب متأخرًا عائد لامحالة ؛ لأنه لا يمكن أن يكون لشخص واحد فقط مثل هذا الماء الكثير مجانًا ، وبعد أن يغسل جميع الطلاب أيديهم ووجوههم يتجهون إلى حجرة القراءة ـ وهى مخصصة لمطالعة الكتب ، ويوجد فيها مدرس للإشراف ـ فيجلسون ويذاكرون دروسهم أو ينصرفون إلى المطالعة ، ثم ينهض جميع الطلاب معًا ، ويتجهون إلى صالة الطعام ، وبعد تناول الطعام تدق ساعة الكلية ويذهب الجميع للجلوس فى قاعات الكلية ، وفى الليل أيضًا يقرأ جميع الطلاب فى نفس الحجرة أى حجرة القراءة ، وعندما يحين وقت النوم ينهض الجميع معًا ويذهبون إلى غرف النوم معًا ، وخلاصة القول أن كل هذه الأعمال مثل النوم ، والاستيقاظ ، والاغتسال ، والاستذكار ، وتناول الطعام ، واللعب ، وأداء الصلاة ، والذهاب إلى الأسِّرة فى الساعة العاشرة والبقاء عليها يقوم بها جميع الطلاب فى وقت واحد، وبهذه الطريقة يتعودون على المحافظة على الأوقات فتصبح من طبيعتهم تدريجيًا ، ومن الضرورى لهذه الطريقة أن تُنظم إقامة الطلاب بحيث يكون فى كل حجرة ما يقرب من خمسين طالبًا معًا ، وإلا لا يمكن بأى حال إنجاز جميع الأعمال

معًا ، وإذا ما كانوا في حجرات منفصلة ، وفي كليتنا نجد مبنى ظهور حسين لإقامة الطلاب قائمًا حتى الآن و محافظًا على هذه القواعد .

بعض العيوب في تطوير التعليم :

على الرغم من كل هذا الاهتمام الخاص بتطوير التعليم والتوسع فيه ، ولأن الأسلوب الحديث في التعليم تم تطبيقه منذ وقت قصير ، لهذا تعيبه حتى الآن كثير من الجوانب ، ويُرجى أن تزال هذه العيوب تدريجيًا ، منها أنه ليس في أي كلية ، بل في المدينة كلها مجلس للنقاش أو جمعية علمية ، ولهذا لا تتوفر للطلاب فرصة لتنمية ملكة الخطابة ، وهذا هو السبب في أن المتخرجين منها لا يستطيعون إلقاء خطبة أو محاضرة في جمع عام ، ومن آثار ذلك أن الطبقة المثقفة لم يظهر فيها حتى الآن ذلك التنور الفكري والطموح و سمو الفكر وبعد النظر وهو ما يعد من سمات التعليم الحديث .

ومما يُعاب على هذا النظام أن الكليات والمدارس الكبرى إنما توجد في العاصمة ولا تتعداها، والمدن الكبرى الأخرى وإن أقيمت فيها مدارس كثيرة ، لكنها عمومًا مدارس « ابتدائية » « ورشدية » أي مدارس متوسطة ، وبقدر علمي ليس في بيروت ودمشق وحلب وبيت المقدس مدرسة علمية يصدق عليها كلمة الكلية .

ومن المؤسف أن جميع الكليات ودور العلم في القسطنطينية كلها ، والتي ذكرتها - تشرف عليها الحكومة ، بينما لم يهتم الشعب بهذا الجانب حتى الآن ، أي ليس في هذه العاصمة الكبرى كلية أهلية ، وأي حكومة مهما كانت ثرية وغنية لا يمكن أن تتكفل بجميع الحاجيات

العلمية للدولة كلها ، وإن تم لها ذلك فلن يكون مفيداً ، والشعب الذى تؤدى عنه جميع الضروريات تتعطل قواه الروحية والعقلية وتموت ، وتنتشر فى أوربا مؤسسات علمية عظيمة أغلبها مؤسس بمساهمات الشعب ، والجامعات الشهيرة فى إنجلترا مثل كيمبردج وأكسفورد أقيمت بالجهود الشعبية ، وفى ذلك الوقت لم توافق الحكومة على أن تكون تحت إشرافها .

وبعد هذا التقرير المجمل أتحدث - بشىء من التفصيل - عن بعض الكليات :

الكلية الحربية

هذه كلية كبيرة ، بل هى جامعة كبيرة يفتخر بها الأتراك ، وهى فى الحقيقة تستحق الفخر ، ومع أن التعليم العسكرى يختلف إلى حد ما عن المفهوم الاصطلاحى للتعليم فإن ذكر الكلية الحربية تحت عنوان تطور التعليم لم يكن مناسبًا من الناحية الشكلية ، وتدرس فى هذه الكلية - إلى جانب العلوم العسكرية - علوم الطبيعة والكيمياء والرياضيات وجميع فروع الطب ، إلى هذا الحد لا نستطيع أن نقول إنها خارجة عن دائرة التعليم الاصلاحى ، وهذه الكلية أسسها السلطان محمود سنة ١٢٥٠ هـ، وفى هذه الأيام تطورت مبانيها كثيراً ، كما وصل منهج الدراسة فيها إلى أعلى مرتبة ، وكأنها لم تصبح كلية بل أصبحت جامعة .

ويبلغ عدد المدارس الحربية التى تنتسب إلى هذه الكلية سبعًا وأربعين مدرسة ، منها ثمانى عشرة إعدادية ، وسبع وعشرون رشدية ويدرس فيها ٩٢٢٤ طالبًا ، ويتضح تفصيل ذلك من الجدول التالى :

١ ـ المدارس الإعدادية فى العاصمة بها ١٠٩٦ طالبًا مقيمًا ، ومدارس المحافظات بها ٧٤٥ طالبًا مقيمًا .

٢ ـ المدارس الرشدية فى العاصمة بها ١٥٥ طالبًا مقيمًا و ٢٤٢٥ غير مقيم ومدارس المحافظات بها ١٢٨ طالبًا مقيمًا ٢٢٢٥ غير مقيم .

والكلية الحربية كلية ذات عظمة وأبهة ، ومع أنه من العرف العام فى القسطنطينية أن لا يسمح لأى شخص بالدخول فى مدرسة إلا بعد أن يأذن لها مديرها ، إلا أن الكلية الحربية لها قيود أشد من ذلك ، وحينما أردت زيارتها قال الناس لى إنه من اللازم أولاً طلب تصريح من السلطان نفسه ، ولو كان ممكنًا فإن عثمان باشا الذى نلت شرف العمل معه فى ذلك الوقت يمنحنى الإذن بسهولة ، لكننى اعتبرت أنه من غير المناسب تكليفه بهذه المهمة ، وكنت التقى بـ حسين حسيب أفندى مدير الشرطة بدون تكلف فذكرت له ذلك فقال : « لا يُؤذن لى فى الحربية » ؛ فاضطررت الاعتماد على جهودى الذاتية ، وكنت قد أُخبرت أن مدير الكلية الحربية ذكى باشا، وهو مثقف كبير وذو كفاءة نادرة ، ففكرت فى مقابلته شخصيًا دون أى وساطة ، وهذا ما رآه الشيخ على ظبيان أيضًا فذهبنا إلى منزل الباشا المذكور .

وبالصدفة كان قد خرج من بيته ، فقال لنا شخص ما امكثوا قليلاً ريما يرجع سريعًا ، وفى هذه الأثناء رجع ، وبعد أن نزل من السيارة

اتجه إلينا ، وكنت أنا والشيخ على ظبيان فى ملابس عربية ، ومع أنه كان على رأسى عمامة حريرية وفى خصرى حزام ذهبى ، لكنى كنت أبدوا عربيًا بسبب العباءة والقفطان والشكل العام ، كان الباشا فى عجلة من أمره فألقى السلام وأدخل يده فى جيبه واستخرج بعض النقود التركية ، فتعجبت من ذلك تعجبًا شديدًا ، ثم خطر ببالى - والعياذ بالله - أن يكون قد حسبنا فقراء متسولين كعامة العرب فتملكنى حزن شديد وغضب عظيم ، وصحت به قائلاً : « شو هذا ، ما جئنا لهذا ، لسنا من الفقراء » . والباشا لم يكن يعرف العربية ، ولكنه أدرك من كلامى وغضبى أن هذا الأمر آلمنى وآذانى ، فالتفت إلى الشيخ على ظبيان وسأله عن سبب غضبى وماذا يريدون ؟ وكان الشيخ على ظبيان ملمًا إلمامًا يسيرًا باللغة التركية ، فشرح له الغرض الذى زرته من أجله فندم الباشا ندمًا كبيرًا ، وقال بلهجة اعتذار : انتظرنى فى الغرفة ، وسأحضر بعد قليل ، وكان يجتمع فى الغرفة عدد من المسئولين الكبار فاستقبلونى باحترام شديد ، وقُدِّمت القهوة كالمعتاد ، وسأل عن حال كل واحد ، وعندما علم هؤلاء الناس أننى من الهند ، وجئت إلى هنا من أجل البحث العلمى أولعوا بهذا القدر ، وأظهروا شوقهم وحبهم بكل كلمة ، وتأسفت لأننى لم أفهم التركية ولا الفرنسية وكانوا لا يستطيعون التحدث بأى لغة إلا بهاتين اللغتين ، كانوا ينهضون ويجلسون بجوارى ومع إظهار الحب يبدون أسفهم على أنهم لا يفهمون لغتى ، وبعد فترة وجيزة أرسل إلينا ذكى باشا اعتذاره قائلاً : لقد واجهنى أمر مهم ؛ لهذا لن أستطيع أن آتى بنفسى ، لكننى أمرت أحد الضباط أن يتجول بك فى الكلية بشكل جيد ، وكان ذلك الضابط رضا بك وكان يحمل رتبة

أميرالاى ، لقد كان الباشا غير مضطر لأن يذكر سبب اعتذاره ؛ فقد كان فى الحقيقة يشرف على كثير من الإدارات ، وكان يقضى اليوم كله فى جولاته على هذه الإدارات ، لكن لا شك أنه ندم على فعلته ندمًا شديداً ، وكان هذا سبباً فى عدم حضوره .

وقد علمت هذا الأمر ، وهو أن العلماء والمتصوفة عندما يلتقون بأمير أو مسئول فإنهم يلتقون به من أجل هذا الغرض ؛ حيث يأتى هؤلاء النورانيون باسطى أيديهم ، إن الحزن من سوء ظن ذكى باشا يزول ، ولكن أسفي وحزنى على حال هذه الجماعة يبقى ، وكنت أعتقد أن هذه الطريقة من النذور والهبات خاصة بالهند ، لكنى حزنت لأن تركيا لم تنج منها .

وخلاصة القول هو أننا ذهبنا إلى الكلية الحربية مع رضا بك ، وكان الحراس على بابها ، فأدى العسكر التحية العسكرية ودخلنا ؛ فإذا بالكلية مدينة قائمة بذاتها ، واصطحبنا رضا بك أولاً إلى الغرفة الخاصة به ، وكان هناك عدد آخر من المسئولين فتعارفنا عليهم ، وجاءت القهوة طبقًا للعادة ، وبعد فتره وجيزة قال لنا رضا بك دق جرس الطعام فتعالوا أولاً نتجول فى صالة الطعام ، ولأننا الآن فى صالة الطعام والمبانى الملحقة بها فقد رأيت أنها بناء جديد تمامًا ، لأن بينها وبين سلسله مبانى الكلية قدراً من المسافة الفاصلة ، وكان هذا البناء قد بنى بشكل عارض، ومهدوا شارعًا نظيفًا يربط الكلية بهذا المبنى ، وقد رأيت مشهداً رائعًا عجيباً عندما خرج الطلاب من غرفهم متجهين إلى صالة الطعام ، وكان الطلاب فى ثلاثين أو أربعين صفًا ، يسيرون بنظام وترتيب كأنهم جيش نظامى يسير ، كانوا متشابهين تمامًا فى الملبس ، والهيئة ، ولما كان الطلاب جميعًا من الأتراك أو عرب الشام ؛

لذا لم يكن هناك فرق يذكر فى اللون والشكل ، والعجيب أنه لم يكن مع هذه المجموعة من الطلاب أى ضابط مسئول ، كما أنهم لم يعلموا بحضورنا حتى لا يكون هناك أى سلوك خلافًا للترتيب والنظام المعمول بهما ، ولم نسمع شيئًا من الضجيج والصراخ وعندما دخلنا فى الصالة كان جميع الطلاب قد جلسوا على الطاولات ، وكانت الصالة واسعة جداً وجميلة ، وكان السقف مزينا بأعمال ذهبية ، وكان الطعام على نوعين أو ثلاثة ، وكان هناك وعاءً واحد بين كل أربعة طلاب وفقًا للطريقة التركية ، لم يكن هناك شوك وسكاكين بل ملاعق فقط ، لكن الطلاب كانوا يتناولون الطعام بطريقة مهذبة ، فلا يملأ أحدهم يده ولا تسقط أى فضلات على مفارش الطاولات ، وفى الغالب هناك تنبيه شديد على الطلاب بالالترام بالنظافة والنظام ، وكان يوجد فى الصالة حوالى أربعمائة أو خمسمائة طالب ، يبدو أنهم استبدلوا ملابسهم فى التو واللحظة كلما مررنا بهم وقف الطلاب قائلين : « تفضل يا مولانا » ، وكنا نأكل لقمة أو لقمتين بسبب إصرارهم ، لكننا كنا نبحث عن القورمة الهندية ، لكن من أين لنا هذا فى هذا المكان ؟

بعد أن خرجنا من صالة الطعام أخذنا نتجول هنا وهناك لفترة من الوقت حتى دق جرس الكلية وانصرف الطلاب إلى قاعات المحاضرات ، ليس لدينا فى الهند قاعات الدرس هذه من ناحية الحجم ، وهى قاعات عديدة تمتد فى صف مستقيم ، ويجلس الأستاذ على منصة مرتفعة ، ويتحلق حوله بعض المصاطب الخشبية ، وفى القاعة التى زرناها سوياً مع رضا بك نهض أحد الطلاب ، وصاح بصوت مرتفع قائلاً : « بق »؛ فنهض جميع الطلاب مع ندائه وأشاروا بأيديهم بالتحية ، وعلمنا أنه

عندما يأتى أى مسئول إلى الكلية فإن الطلاب يؤدون له التحية بهذه الطريقة ، وعرّفنا رضا بك بجميع الأساتذة ، لكن للأسف لم نستطع فهم لغة أحد .

زرنا الحمامات والمطابع قاعات الرسم وكثيراً من تلك المبانى الموجودة داخل سور الكلية وهى من الكثرة بمكّان ، لدرجة أننا لم ننته من زيارتها إلا بعد ساعتين من التجول المستمر تقريبًا ، وقاعة التشريح واسعة جداً وتتوافر فيها آلات ووسائل التشريح ونماذج الرسم والتصوير التى شاهدتها هنا لم أشاهد مثلها قط .

وقد رأيت اختراعًا فى المطبعة ؛ حيث كانت الخرائط الجغرافية تطبع بعد أن تصمم على الحجر بدلاً من الورق ، وكانت الخريطة التى تصمم فى ذلك الوقت غاية فى الدقة ، وهذا فى الحقيقة عمل يحتاج إلى تركيز شديد .

وقد شيدوا حوضًا جميلاً للترفيه عن الطلاب به أسماك متعددة الألوان وضعت الكراسى والمقاعد فى كل مكان ، وعلى مسافة قريبة يوجد حوض منفصل للأساتذة والمدرسين ، ولما أصابنا التعب من المشى استرحنا هنا بعض الوقت ، وكان بصحبتنا رجب أفندى المسئول عن تدريس الإنشاء باللغة التركية ويعرف اللغة الفارسية ، ظل معنا حتى نهاية زيارتنا ، وعن طريقه تم لنا التحدث بلا تكلف مع كبار المسئولين فى الكلية ، وقد قابلنى الأساتذة والطلاب فى محبة إسلامية وأخلاق كريمة يعجز بيانى عن ذكر روعتها ، والأمر الذى أسفت له كثيراً هو أن اليوم الذى زرنا فيه الكلية لم يكن يوم دراسة ، ولهذا السبب كانت هناك فقط تدريبات عسكرية مثل قواعد الرماية وأصولها وركوب الخيل ، ولم

أستطع رؤية أى شىء من هذا النوع ، وكان من الممكن أن أذهب لزيارتها فى أى يوم آخر ، إلا أن مكان إقامتى كان بعيداً عن الكلية ؛ فقلل ذلك من عزيمتى ، وتضم هذه الكلية فروعاً عديدة للتعليم :

١- **أركان الحرب** : أكبر فروعها على الإطلاق ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، وهذا الفرع ينقسم إلى قسمين :فنى وعسكرى، أما القسم الفنى فتدرس فيه المواد التالية : تقسيم الأراضى والهيئة ، ونظريات جر الثقيل ، والبناء ، واللغات الفرنسية والألمانية والروسية ، ومحاصرة الحصون ومبادئها الحربية ، والتلغراف العسكرى ، ووظائف الأركان الحربية ، والاستكشافات العسكرية ، والعمليات ، والأشكال الهندسية ، وشوارع البلدان العثمانية ، والخطوط الحديدية فى جميع الدول الأوربية ، وصناعة الأسلحة الثقيلة ، وعلم طبقات الأرض ، ونظام الجيوش الأوربية وأصولها ، والحروب العالمية الشهيرة وأصولها العسكرية واستراتيجيتها ، والبحث عن أسباب النصر والهزيمة ، والإقليدس والجبر والمقابلة ، وصناعة الأسلحة الخفيفة ، والخط ، وتاريخ فن الحروب ، والرسم ، والتصوير... وغيرها .

ونفس هذه المواد مقررة فى القسم العسكرى إلى جانب بعض المواد الحديثة التى تُدرس فى كلٍ من القسمين ، وقد انتهوا من أكثرها فى التعليم الابتدائى والمرحلة الرشدية والإعدادية ، وهم هنا فى هاتين المرحلتين يكملون المناهج فقط ، ولهذا السبب يمكنهم أن يدرسوا موضوعات مختلفة ومتنوعة فى غضون ثلاث سنوات ، والمدة الإجمالية للدراسة من الرشدية حتى هذه المرحلة عشر سنوات .

٢- سلاح الفروسية : مدة الدراسة ثلاث سنوات ، وتدرس فى هذا القسم بجانب التدريبات العملية المواد التالية : الرسم الهندسى ، والبولوجرافيا النظرية والتطبيقية ، واللغات الفرنسية ، والألمانية ، والروسية ، والكيمياء ، وفن الأسلحة ، والاختراعات العسكرية ، والجغرافية العسكرية .

٣ - سلاح المشاة : مدة الدراسة فيه ثلاث سنوات ، وتُدرس فيه - بجانب التدريبات العملية - الجغرافيا العسكرية ، وفن الأسلحة ، واللغات الألمانية والفرنسية والروسية ، والاختراعات العسكرية ، ومبادئ الصحة .

٤ - البيطرة : أى طب الحيوانات ، ومدة الدراسة أربع سنوات ، وتدرس فيه الأمراض العامة ، وعلم التوليد ، وفن الفروسية ، والأمراض الداخلية ، والجراحة ، والأمراض الخارجية ، واللغة الفرنسية ، والخط ، والكيمياء العضوية ، ومبادئ طب التشريح ، ووظائف الأعضاء والنبات ، وعلم الحيوان ، والكيمياء غير العضوية ، وعلم طبقات الأرض والمعادن ، ويدرس فى هذه الأقسام الأربعة نحو ستمائة طالب ، وبعد حصولهم على الشهادات يفوزون بمناصب الضباط حسب ترقيتهم ، وضمن هذه الأقسام فصول المراحل الإعدادية والرشدية ، ومدة الدراسة فيها سبع سنوات ، وتدرس فى هذا القسم : التاريخ ، والجغرافيا ، والحساب ، وإقليدس ، والطبيعة ، ويبلغ عدد جميع الطلاب الذين يدرسون فى الفروع المختلفة لهذه الكلية ألفًا وخمسمائة ، منهم ألف يقيمون فى سكن الكلية وعدد الأساتذة والأساتذة المساعدين والمدرسين يبلغ سبعة وثمانين ، وأكثرهم يقيمون فى حرم الكلية ، وأكثر الأساتذة من كبار

المثقفين والمسئولين العظام ، ومن بينهم ستة يحملون لقب باشا وهم : المدير ثروت باشا ، وفائق باشا أستاذ الكيمياء العضوية ، وهزبر باشا أستاذ الفروسية ، وتفوق باشا أستاذ علم طبقات الأرض ، وشاكر باشا أستاذ أركان الحرب ، وعثمان باشا أستاذ اللغة الألمانية ، وتسعة أساتذة يحملون رتبة أميرالاى .

الكلية السلطانية

وهى أيضًا كلية قديمة ، تتميز عن جميع الكليات عدا الكلية الحربية ، وتقع فى غلطة حيث يقطن التجار الأوربيون بأعداد كبيرة ، ولهذا السبب فإن نسبة الطلاب المسيحيين فيها أكثر من جميع الكليات الأخرى ، وللأسف أننى زرت الكلية أيام إجازتها ، ولم يكن بها أى موظف غير اثنين هما المدير ونائب المدير ، ومبنى الكلية من طابقين ، وفى الطابق العلوى قاعة المحاضرات وأماكن الإقامة ، وبها قاعة كبيرة جدًا لتدريس علم الحيوان ، وفيها كل أنواع الحيوانات النافقة وهياكل الحيوانات الكبيرة ، ورأيت هناك هياكل أسماك لم أرها من قبل ، وهناك آلات غالية الثمن بكثرة ، وذلك لإجراء التجارب الكهربائية والكيميائية .

ومن الأمور التى أعجبتنى فيها أنهم أعدوا للمرضى من الطلاب المقيمين قاعة فسيحة جدًا ومزينة يتوافر فيها الأسرة بكثرة ويتردد عليها كثير من الخدم فى كل وقت ، وبهذه الطريقة يسهل على الأطباء علاج هؤلاء الطلاب وعيادتهم ، كما أنهم يستطيعون أن يروا جميع المرضى فى وقت واحد ؛ فلو كانوا فى غُرف مستقلة لكان من الصعوبة بمكان

الوصول إلى كل مريض على حدة والكشف عليه والاستفسار عن حالته بشكل كافٍ .

تبلغ النفقات السنوية لهذه الكلية ثمانية عشر ألف جنيه بما فيها المنح الدراسية للطلاب المحتاجين والعدد الإجمالى للطلاب ثمانمائة ، معظمهم فى الكلية ، وغرفة نوم واسعة جداً ومرتبة ورائعة ، وأذكر فيما يلى ملخصا لعدد من مواد قانون الإقامة :

١- سوف توفر الكلية من جانبها لجميع المقيمين فيها الطعام والملابس والكتب والأوراق والأقلام وغيرها .

٢ - سوف يحصل من الطالب المقيم مصروفات قدرها أربعون جنيهًا سنويًا .

٣ - يمكن للطالب أن يلتحق كذلك بدار الإقامة إذا استطاع أن يدفع ثلث أو ثلثى المصروفات أو حتى إذا لا يمكنه أداءها جميعًا ، لكن هذا يقتصر على عدد محدود، ويتخذ القرار فى ذلك بعد الاستفسار من مدير إدارة الشئون العامة ، فى بداية كل سنة يجب ملاحظة أن السلطان وأثرياء المدينة يؤدون بقية المصرفات عن هؤلاء الطلاب ، ولهذا السبب لا يشعرون بأى نوع من التمييز بينهم وبين الطلاب القادرين من حيث الطعام والملابس والأثاث وغير ذلك .

٤ - يحصل من كل طالب على خمسة عشر جنيهًا للملابس عند الالتحاق بالكلية .

٥ - الطلاب الذين لا يبيتون فى دار الإقامة مصروفاتهم عشرون جنيهًا ، ولا يمكن تخفيضها تحت أى سبب .

٦ – مصروفات غير المقيمين عشرة جنيهات سنوياً ، ولا يمكن أن تقل عن ذلك بأى حال .

٧ – يسمح للمقيمين بالذهاب إلى منازلهم مرة واحدة فقط كل أسبوع ، ومن الضرورى أن يصاحبهم موظف كبير عند الذهاب والإياب .

٨ – لا يحتفظ أى مقيم معه بأكثر من عشرة قروش فى الأسبوع ، ومن خصائص هذه الكلية من الناحية التعليمية هى أن جميع العلوم والفنون تدرس باللغة الفرنسية ، لهذا السبب فإن معظم الأساتذة فرنسيون أو ألمان ، كما تدرس معها اللغة التركية على أعلى مستوى ، وتدريس اللغتين العربية والفارسية إجبارى وإن كان بمستوى أقل ، وباقى اللغات كاليونانية والأرمنية والإنجليزية والألمانية والإيطالية واللاتينية تدخل ضمن المنهج ، ويتعلمها كثير من الطلاب بشكل اختيارى غير إجبارى .

ويدرس الطلاب – علاوة على اللغات التركية والعربية والفارسية – الأدب والقرآن الكريم والعقائد والفقه والأخلاق وتاريخ الدولة العثمانية ، والقراءات والتجويد والحديث والتفسير ، وتبدأ دراسة القراءات والحديث والتفسير من السنة الرابعة ولحصة واحدة فى الأسبوع ، وتدرس اللغة الفرنسية منذ بداية التعليم وحتى نهايته ، أى مدة سبع سنوات متواصلة ، كما تدرس مواد النحو والصرف والأدب وقواعد الإنشاء وفن البلاغة حتى مرحلة متقدمة ، وتدرس المواد التالية كذلك باللغة الفرنسية وهى الحساب والجبر والمقابلة والجغرافيا والهندسة والكيمياء وعلم الحيوان والطبيعة والنبات والكهرباء وعلم الأصوات وعلم طبقات الأرض والرسم الهندسى والرسم التقليدى .

وعدد المدرسين والأساتذة أربعة وسبعون ، منهم ستة وعشرون من ألمانيا وفرنسا ، والباقى من تركيا .

والحقيقة أنه ليس فى القسطنطينية بأسرها كلية تضاهيها فى اتساع مبانيها وتوفر الأجهزة العلمية فيها ، وتنوع الدراسة فيها وحسن الإدارة ، ولكن للأسف الشديد أن المتعلمين فى مراحلها العليا أكثرهم من النصارى ، والمسلمون قلة قليلة ، وقد أعطانى الشيخ عبد الفتاح أفندى تقريراً بنتيجة امتحان العام الجارى فلاحظت فيه أن الحاصلين على أعلى الدرجات معظمهم من النصارى ، ولا أحسد النصارى على تقدمهم - لا قدر الله - ولكنى أتأسف على تخلف المسلمين.

الكلية الملكية

هذه الكلية هى كلية الخدمة المدنية ، أقامها السلطان على نفقته ، ويعتنى بها عناية خاصة ، وقد حضرت بنفسى لزيارتها مرتين .

كان بها فى البداية خمس مراحل ، ثلاثة منها للتعليم الأولىّ واثنان للدراسات العليا ، وبناء على هذا كانت مدة التعليم بها خمس سنوات ، لكن أضيفت إليها مرحلتان للتعليم العالى المتخصص ، فصارت مدة التعليم بها سبع سنوات ، وتعليم اللغات الفرنسية واليونانية والأرمينية إلزامياً ، وتدخل اللغتان العربية والفارسية ضمن مقررات الدراسة ، ولكنهما مادتان إختياريتان ، كما تدرس المواد التالية : التاريخ والجغرافيا والكهرباء ، والطبيعة ، والاقتصاد السياسى ، ومبادئ القانون والدستور ، والقانونون الأوربى ، وتدرس جميع هذه المواد

بمستوى راقٍ ، ولقد طالعت مقررات التاريخ بنفسى وهى ستة مجلدات ضخمة ، ويُعين خريجو هذه الكلية فى مناصب رفيعة ، وقد تم تعيين أكثر من مائتين فى ذلك الوقت فى مناصب ملكية ، من بينها بعض المناصب الرفيعة ، ويزيد عدد الطلاب الذين يدرسون فى الكلية فى ذلك الوقت عن ستمائة طالب ، وقد تجولت فى هذه الكلية بشكل جيد ، وكان مدير الكلية – وهو من أسرة تركية عريقة – لا يفهم العربية ، ولكن كان معى مترجمًا فأمكننا التحدث بلا تكلف ، وقد لفت نظرى فى هذه الكليات عمومًا ، وأعجبنى أيما إعجاب أمر مهم ، وهو أن المدير رجل ذو منصب رفيع ، ويبدو من طريقة حياته العظمة والجاه ، وحجرة السيد المدير مرتبة ومزينة كالعادة ، وقد وصلت إلى الكلية فى وقت الراحة فكان الطلاب منهمكين فى لعب الكريكيت ، وبعد فترة وجيزة دخل الطلاب إلى قاعات الدراسة قام المدير بالتجول معى فى جميع قاعات الكلية ، وكانت صالة الطعام مرتبة ومعدة بشكل متناسق جداً ، حيث وضعت مفارش نظيفة للغاية على الطاولات ، وكانت أوانى الطعام ثمينة وجميلة والأباريق مطابقة لعدد الطلاب ، وكانت من الزجاج بصفة عامة ، وكأنها جزء لا يتجزأ من زينة الطاولة ، وتوجد أجهزة دقيقة بكثرة فى حجرة تدريس الكيمياء وغيرها ، وهناك مسجد صغير بين مجموعة المبانى ، مبناه مبنى عادى ليس فيه ما يستحق الذكر، لكنه كان مفروشًا بالسجاد التركى الوثير غالى الثمن من الداخل والخارج ، ويبدو مزينًا جميلاً ، وكانت هناك رقعة رائعة مكتوبة بخط النسخ معلقة على حائط فى أحد جوانبه ، فاستفسرت عنها فقيل لى إنها مكتوبة بيد السلطان عبد العزيز خان بخط رائع .

فـى تلك الأثناء حان وقـت صـلاة الظهر فـاستـعد الطلاب المسلمـون للصلاة – والطلاب النصارى هنا عددهم غير قليل – وكانوا يرتدون البنطلون والچاكت عمومـًا ، وتوضـأوا بهذه الملابس بأدب ووقار ، وذهبوا إلى المسجد جماعة بعد أخرى باحترام وجدية فطرأ على قلبى تأثير مدهش ، والحقيقة أنه إذا كـان تطور المسلمين مـرهـونـًا بتـحـررهـم من الأثر الدينـى فـإن التـدهور أفـضل ألف مـرة من هذا التطور ، وعلى كل حـال بعد الصـلاة استمر الوعظ فترة وجيزة ، ولكن قلة قليلة من الطلاب شاركوا فيه .

منـهـج التـعـليـم القـديم والمدارس القـديمـة

كمـا ذكرت آنفًا فإن الأتراك بدأوا التعليـم جنبًا إلى جنب مع بداية تأسيسـهم دولتـهم ، وكـان ذلك التـعليم هو نفسـه الذى نطلق عليـه اليوم التـعليم القـديم ، ولاشك أنه كـان فى وقت من الأوقـات فى منزلة رفيـعـة وتشهد عليه حتى اليوم مؤلفات حاجى خليفة وجلبى ، والعلامة قوشجى ، وأفـضل الدين خـونجى وغـيرهـم ، إلا أن التـعليـم الحـالى وصـل إلى هذا الحد من الانحطاط ، وإذا ما قـارناه بالتعليم عندنا فى الهند فإن التـعليم عندنا يعد متفوقًا عليه ، والشىء الذى كدرّ علىّ سعادتى فى هذه الرحلة هو انحطاط التـعليم ، وهذه القضـيـة لاتزال الآن مـثـارة موضـوع النقـاش فى الهند كذلك ، والناس يعربون عن أسـفـهم وحزنهم على فسـاد التـعليم القديم ، ولكن أسفى كـان نوعـًا آخر من الأسـف ؛ لأن المثقفين الجدد فى بلدنا يظهرون الأسف والحزن تجـاه التعليم القديم وهو فى الحقيقـة ليس حزنًا بل استهزاءً وشمـاتة ، ومـع أننى أفضل التـعليم الحديث وأحبذه من كل قلبى ، إلا أننى رغم ذلك من أشد المدافعين عن التعليم القديم .

وأرى أن التعليم القديم ضروري وملح من أجل المحافظة على القومية الإسلامية ، ومع هذا فإننى عندما أرى منهج التعليم الحالى أجده بلا فائدة وبلا معنى فأتألم كثيراً رغماً عَنى ، وكنت أتدبر هذه الفكرة فى الهند، وهى أن الشيء الذى لا تتولاه الحكومة برعايتها يكون مصيره الفشل ، وهذا أمر طبيعى ، ولكننى بعد أن رأيت هذه الحالة فى مصر والشام والقسطنطينية حزنت حزناً شديداً .

والموضوع باختصار أن التعليم القديم منتشر بكثرة هنا ، ولأن طلاب هذا النوع من التعليم يُعرفون بوضوح من ملابسهم ومن هيئتهم ، لذا يمكن تقدير كثرتهم بسهولة فى الطرق العامة والمساجد ، وقال لى بعض الناس إن عدد المدارس فى القسطنطينية وحدها لا يقل عن عشرين ألف مدرسة ، وإن الطريقة التى يقضون فيها أوقاتهم تبعث على الأسف والتعجب فى آن واحد ؛ ففى جميع المدارس القديمة هنا تمتد الإجازة إلى ثلاثة شهور متصلة وتبدأ من رمضان المبارك ، وفى هذه الشهور يخرج جميع الطلاب من القسطنطينية لجمع الزكاة والتبرعات من القرى والمدن ، ويعتمدون عليها فى معاشهم طوال السنة ، وفى بعض المدارس يقررون لهم بعض أرغفة الخبز ، لكن لا يوجد أى ترتيبات للملابس وغيرها ، ويسكنون فى حجرات المدرسة وهى ضيقة جداً ومظلمة .

وتتكون المدرسة من صحن صغير، وعلى أطرافه الثلاث حجرات صغيرة جداً ، وفى الصحن توجد « السقاية » وهو حوض يجلسون عليه للوضوء ، فالمدارس الكبيرة التى ابتناها السلاطين مثل محمد الفاتح وسليمان وغيرهما والقائمة حتى اليوم غرفها واسعة وجيدة التهوية ، لكن غرف جميع المدارس الأخرى ضيقة جداً بحيث تختنق أنفاس من فيها .

وبالرغم من كل هذه الأمور فإنه لابد من الاعتراف بالخدمات العلمية للأتراك ، لأنها مهما كانت قليلة إلا أنهم خلفوا آثاراً علمية خالدة حتى اليوم وهى ذكرى تتناسب مع حضارة ومدنية ذلك العهد ، أما عندنا فى الهند فمع هذا الاتساع والرحابة ، ورغم أن الهند فى حد ذاتها قارة حكمها الإسلام لمدة ستة قرون ، إلا أنه لا يوجد أثر علمى خالد فيها .

ومن أكبر مساوئ المنهج القديم فى التعليم هو أن مستوى التعليم ضئيل ومحدود فليس فيه أثر للأدب ، ومن الكتب الرائجة إيساغوجى والشمسية فى المنطق والفلسفة ولا أدرى هل هناك مدرسة يدرس فيها الصحاح الستة، وهذا أيضًا هو حال علم المعانى والبلاغة وأصول الفقه ، وإن كان لهم اهتمام كبير بالفقه ، ولكن تدريسه ليس فيه اجتهاد ، بل منهج عام وتقليدى ، ولقد التقيت ببعض العلماء فكانوا يتحدثون حول مسائل وقضايا جزئية وعامة فتعجبت وتأسفت .

الوضع العلمى للأتراك

لم يقض الإسلام تمامًا على اللغات القومية لبلدان العالم التى حكمها الإسلام فكان من الضرورى أن يتحول وضعها العلمى إلى اللغة العربية ، فالهند وفارس وإسبانيا وأفغانستان ، وإن كانت لغاتها القومية تختلف عن لغة الإسلام ، لكن اللغة العربية كانت ، ولاتزال – اللغة العلمية فى جميع هذه البلدان ، والاتراك كذلك ليسوا استثناء من هذا التأثير العام ، لكن أمة الأتراك يمتازون عن جميع الأمم الإسلامية بهذه الميزة ، وهى رغم أنهم خضعوا للغة العربية ، لكنهم لم يحرموا لغتهم أيضا من الكنوز العلمية ، ففى الوقت الذى كانت العلوم القديمة سائدة ،

كانت تلك العلوم كلها موجودة ومتوفرة باللغة التركية آنذاك ، ولاتزال موجودة حتى الآن ، وقد امتلكتنى الدهشة عندما رأيت أن الكتب الضخمة كتاريخ ابن خلدون وتاريخ الطبرى ، وتاريخ ابن خلكان ، وتاريخ المقريزى ، والتى يصل بعضها إلى سبعة مجلدات كلها مترجمة إلى اللغة التركية ، وعلى العكس من ذلك لا أجد مثالاً لذلك فى أفغانستان وفارس ؛ فإذا ذكرت الكتب المترجمة علاوة على المؤلفات التركية الأصلية فإن علىّ إعداد قائمة طويلة بها ، وقد حكى لى صديق تركى خبير بعدة لغات واقعة ، ذكرها ليس على سبيل الفخر ، وهى أن كتب التاريخ ، والمسرحيات ، والروايات ، والرحلات ، والأدب ، والإنشاء ، والبلاغة ترجمت بكثرة من اللغة الفرنسية إلى اللغة التركية إلى حد أنه ليس من المغالاة فى شىء إذا قيل إن الأدب الفرنسى قد نقل بأكمله إلى اللغة التركية ، كما ترجمت مئات من كتب العلوم والفنون الحديثة ، ومن أجل هذا فإن جميع الكليات فى تركيا عدا الكلية السلطانية تدرس فيها هذه العلوم والفنون باللغة التركية وعلى مستوى رفيع .

كتب التاريخ فى اللغة التركية : لقد أُلفت فى تركيا كتب مستقلة كثيرة فى جميع فروع العلوم والفنون الحديثة ، والكتب المقررة فى الكليات والمدارس عموماً كتب مؤلفة غير مترجمة ، فأين تسنح الفرصة لى حتى أقف على جميع المؤلفات الحديثة! لا غرو فقد اطلعت على كتب التاريخ والرجال التى تتفق مع ميولى ، وبناءً على ذلك أستطيع أن أقول إنه بعد اللغة العربية لا توجد لغة آسيوية تضارع اللغة التركية فى كثرة الثروة التاريخية ، بل إنها تتفوق على اللغة العربية من ناحية أن كتب

التاريخ باللغة العربية عبارة عن مجموعة من الأحداث والقصص البسيطة التى توجه جل اهتمامها إلى أصول الرواية فقط ، وعلى العكس من ذلك فإن كتب التاريخ باللغة التركية ألفت وفق أصول ومبادئ فلسفة التاريخ ، وبناءً عليه فإن أوربا أوصلت هذا الفن إلى منزلة رفيعة ، لقد ألقيت نظرة إجمالية على كتب التاريخ التى تدخل ضمن مقررات الكلية الملكية فلاحظت بسلسلة الأسباب والعلل فى جميع الأحداث ، ووجدت النقد والتحقق والأحكام فى موضع آخر ، وإلى جانب هذا وجدت عرضاً مفصلاً للحالة العلمية والأخلاقية والحضارية لهذا العهد فى نهاية حكم كل مرحلة .

سير الرجال والتراجم : وهنا سلسلة مفيدة جدًا للسيرة اسمها " مشاهير الرجال " تحتوى على حياة ومآثر الأعلام والنوابغ ، وقد كتبت فى تنسيق رائع وبأسلوب علمى ، وللأسف فإن هذه السلسلة تُركت دون أن تكتمل ، وإلا كانت مجموعة مفيدة للغاية ، وفى الوقت الحاضر تؤلف موسوعة خاصة باسم « قاموس الأعلام » تحتوى إلى جانب الرجال على تذكرة للأماكن التاريخية والمبانى والمدن الشهيرة ، وتضم فهرسًا بالمؤلفات والمصادر العربية والفرنسية وغيرها ، التى استخدمت فى تأليف هذا القاموس ، وقد طالعت أسماء الكتب العربية فوجدتها كتبًا قيمة ونادرة وموثوقا بها ، ولا توجد إلا فى القسطنطينية ، ولا يمكن أن تجدها فى مكان آخر ، وهذا القاموس مرتب على حروف الهجاء ، وقد وصل الآن إلى حرف الزاء .

وعلاوة على علم التاريخ فقد تطور علم الجغرافيا كثيراً ، وأُلفت فيه كتب مفيدة كثيرة وأعدت بكثرة خرائط كبرى للعالم بشكل مجمل وللدول المختلفة بشكل مفصلٍ ، وربما لا يوجد مثيل لها فى العالم إلا فى أوربا ، وهذه الخرائط دقيقة وجميلة وعلمية ، ولا تقل بشكل من الأشكال عن الخرائط المعدة فى أوربا ، وللأتراك ولع خاص بهذا الفن .

كثرة المؤلفات التركية : المؤلفات التركية كثيرة للغاية ، ولا يمكننى أن أذكرها بالضبط ، لكن ذات مرة ألقيت نظرة إجمالية فى مكتب إدارة التعليم على قائمة الكتب التى طبعت خلال شهر واحد فقط فى القسطنطينية خاصة ؛ فكان عددها ألفين، ومع أنها تحتوى على كتب بالأرمينية واليونانية والفرنسية ولغات أخرى ، لكن كان معظمها بالتركية، ومن المؤسف أن أغلبها روايات ومسرحيات وهى نفس الآفة[1] المنتشرة فى بلادنا التعيسة .

وقد تطور الأدب التركى تطوراً عظيمًا كذلك ، وهذا أمر مدهش؛ فهو يتشابه فى كثير من الخصائص مع أدبنا الأردى ، فالأدب التركى القديم يعادل الأدب الأردى القديم : فكلاهما متكلف وملىء بالاستعارات وملتزم بالقوافى ، لكنه الآن كالأدب الأردى الحديث يراعى فيه البساطة والسلاسة والوضوح ، وقد كتبت المؤلفات الجديدة كلها على هذا الأسلوب ، ومن الأساتذة المبدعين لهذا الأسلوب الحديث كمال بك وحامد بك والأستاذ ناجى وغيرهم ، وعندما بدأت تعلم التركية أردت قراءة المؤلفات القديمة لكن أصدقائى وأستاذى أيضًا قالوا لى إن الفرق بين

(١) يقصد المؤلف هنا الروايات والقصص الرومانسية (المترجم) .

التركية القديمة والحديثة كالفرق بين السماء والأرض ، وأن تعلم اللغة القديمة ربما لا يكفى لتعلم اللغة الجديدة ، وفى المحاضرة التى ألقاها الأستاذ هامبرى عن الحضارة التركية الحديثة - وبعد أن قارن بين اللغة القديمة والحديثة - اعترف بدهشة بصفاء وسلاسة اللغة الحالية .

المؤلفون الأتراك : من أعلام المؤلفين الأتراك ومن أكثرهم شهرة هذه الأيام نذكر أحمد مدحت، وجودت باشا ، والأستاذ ناجى ، وأبو الضياء سامى ، وعلى نصرت ، والأستاذ ناجى شاعر ، ويطلق عليه شاعر العاصمة ؛ فلا يوجد هنا أى لقب لملك الشعراء وإلا نال هذا اللقب ، ومع هذا فهو يعتقد أنه شاعر العاصمة ، وأحمد مدحت هو أعظم الكُتّاب ، كتب تاريخًا مفصلاً للحكم التركى يقع فى اثنى عشر مجلدًا ، وألف كتابًا مفصلاً للرد على التهم والشبهات المنسوبة للإسلام يقع فى ثلاثة أجزاء ، وأطلق عليه اسم « الدفاع الإسلامى » ، وكان يجيد اللغات التركية والفارسية والعربية علاوة على اللغة الفرنسية ، وقد عين ممثلاً من طرف تركيا فى الجلسات العديدة التى عقدها مؤتمر الاستشراق فى أوربا ، كما عُهد إليه برئاسة قسم اللغة العربية والفارسية وغيرهما فى مؤتمر أستوكهلم .

وجودت باشا شخص ذو مكانة رفيعة ، وهو عضو فى مجلس الوزراء أى وزير وياور ، وعمره بين الستين والسبعين تقريبًا ، وهو نحيف وضعيف الجسم بسبب تقدمه فى السن ، وقلما يشترك فى جلسات مجلس الوزراء ، ومن مؤلفاته كتاب « القواعد العثمانية » وهو فى النحو والصرف التركى ، وهو ضمن المقررات الدراسية ، وقد التقيت به ، وتحدثنا ردحا من الوقت ، ويستطيع التحدث بالعربية والفارسية دون

عناء ، وقد تحدثت معه بالعربية ، وأعظم إطراء يُقال فى حقه أنه يعيش حياة بسيطة للغاية بالرغم من ثرائه ومنصبه الوزارى ، وهو فى الغالب مشغول بأعماله العلمية .

الصحف والمجلات التركية : من الضرورى عند ذكر الأدب التركى الإشارة إلى المجلات الشهرية والصحف ؛ لأن هذه المطبوعات تعد فى الوقت الحاضر جزءًا مهمًا من الأدب ، وأقول إن الأدب التركى للأسف فى حالة تخلف فى هذا المجال ، إن عدد الصحف التركية ليس قليلاً ، حيث تصدر كثير من الصحف اليومية فى إخراج جيد وعباراتها بسيطة جداً وسلسة وإقبال الناس على الصحف ينتشر فى جميع أنحاء الدولة ، وكثير من المقاهى مخصصة للصحف حيث توجد فيها الصحف بكثرة ، ولهذا السبب يطلق عليها « المقرأة » بدلاً من « المقهى » .

هذا كل شىء ، لكن الشىء الذى يعد روح الصحيفة وأعنى الحرية فلا وجود له على الإطلاق فى جميع الصحف ، فالصحف لا تحتوى إلا على الأحكام الرسمية والأنباء العادية، ونتيجة لهذا حرمت اللغة التركية من قوة الاستدلال وطريقة الكتابة السياسية، والحقيقة أنه إذا لم يتوفر عنصر الحرية فى اللغة فأنّى وكيف يمكن أن يكون فيها حماس التأثير ، وجذالة اللغة ، وقوة البيان ، وسمو الخيال ؟! فانظر إلى العربى حتى عصر الخلفاء الراشدين حيث كانت الطبائع حرة ، والاعتداد بالنفس ، كانت اللغة العربية تفيض بالتأثير والحماس منذ العصور التى تأسست فيها الحكومات الفردية (الملكية) والأسرة الأموية تم تقييد حرية العربى فلم يبق التأثير فى اللغة ، ولم يعد فيها الحماس ، ولا شك أن العصر التالى ثرى وغنى بسبب كثرة المعلومات لكن لا يتضح التأثير

والحماس السياسى وأسلوب الكتابة الحر والمعالجة النقدية فى جميع مؤلفات ذلك العصر .

ومع كل هذه الأمور يجب الاعتراف بأن حرية الصحافة أمر مهم وضرورى تقتضيه الأوضاع السياسية التركية ، وذلك لاختلاف دين الرعايا ، وحسد الدول المعادية ، وصحف المعارضين ، ومجاورة الدول الأوربية ، وفى مثل هذه الظروف حيث تتحقق الحرية للحكومة الحرة وهو ما فعلته تركيا ، وقد أصدرت الحكومة الديمقراطية لفرنسا الأوامر التى تتعلق بحرية الصحافة الآن فقط ، وعليه يكون من الظلم أن تكون تركيا وحدها موضع اتهام.

الرقابة على طباعة الكتب : لا شك أن الرقابة الموجودة هنا ، والتى تتعلق بطباعة الكتب جديرة بالاعتراض والرفض إلى حد ما ، فالقاعدة العامة هنا أنه إذا أراد شخص طباعة كتاب قديم أو حديث ، فإنه عليه أن يقدم أولاً الكتاب إلى إدارة المعارف ، وهناك قسم خاص بالمراجعة والفحص ؛ حيث يقوم المسئولون فى هذا القسم بقراءة الكتاب من أوله إلى آخره ، وفى بعض الأحيان تمنع طباعة الكتاب وفقًا لتقريرهم ، أو يجرى عليه إصلاحات وتعديلات ، وترجع أهمية هذه القواعد لأن بعض الناس يقترفون كثيرًا من الافتراءات فى تأليف الكتب ، فمثلاً قام النصارى فى بيروت بطباعة كتاب « الألفاظ الكتابية » فغيروا فيه « قال الله » ب « كما قيل » ، و « كما فى القرآن المجيد » ب « كما قال القرآن » خلافًا للطريقة الإسلامية وآيات القرآن الكريم ؛ لأنه لا يمكن أن تخرج هذه الألفاظ التى تنسب للقرآن الكريم من قلم أى مسلم ، وأكثر من ذلك أن هؤلاء النصارى طبعوا مختارات من القرآن الكريم

فإذا ذكرت أى واقعة خلافًا للروايات النصرانية في أى آية من الآيات كتبوا بين قوسين » « هذا خطأ والصواب كذا » ، ولا شك أن دولة إسلامية كتركيا لا يمكن أن تحتمل مثل هذا التصرف ، ولنفس هذا السبب فإن الحكومة تتوخى الحيطة والحذر وغاية الدقة عند طباعة الكتب .

لكن للأسف فهذا المنهج قد تجاوز حد الاعتدال فى هذه الأيام ، فهذهِ الإدارة أقيمت بهدف منع التحريف والتغيير ، ولكن فى بعض الأحيان تقوم هى نفسها بالتغيير والتحريف ، فأمامى كتاب « شرح عقائد النسفى » طُبع فى أحد المطابع أسقطت إدارة المعارف من الكتاب جميع العبارات التى ناقشت موضوع الخلافة وحديث " الأئمة من قريش " وطبع صاحب المطبعة هذه النسخة المحرفة مضطراً ، وقد رأيت النسخة الأصلية التى تصرفت فيها المعارف ، وأتذكر أننى فى ذلك الوقت استشطت غضبًا وحزنًا رغمًا عنى لهذا السبب ، وربما تحمس هؤلاء الناس لهذا التصرف اعتقاداً منهم أنه على رغبة السلطان نفسه ، لكن لو اطلع السلطان على هذا التصرف فلن يرضى به أبداً .

إن الصحف – كما ذكرت آنفًا – لا تحمل أى قيمة ، لكن المجلات والدوريات الشهرية التى تصدر باللغة التركية ذات قيمة كبيرة ، ومن أكبرها وأشهرها مجلة « معارف » التى تصدر أسبوعيًا ، وتُنشر فى هذه المجلة دائمًا الدراسات القيمة ، وينشر معظم المتخصصين فى العلوم الحديثة من الأتراك أفكارهم فى هذه المجلة ، وأغلب الموضوعات تدور حول الآلات الحديثة والعلوم الطبيعية ، ولا تخلو صفحة من صورة وعدد النسخ أيضًا ليس بقليل ، وقد سألت صاحب المطبعة فقال إنها تصدر فى خمس آلاف نسخة ، وهناك مجلات علمية أخرى غير معارف ،

وتنشر باهتمام شديد ، وقد رأيت منها : رسملى غزنة ، ومصور جهان ، وثروت فنون ، وهى تضاهى المجلات الشهيرة فى أوربا من ناحية الشكل الخارجى وأوراقها وخطها وجودتها وجمالها .

ولا شك فى أن العلوم والفنون تطور يومًا بعد يوم فى تركيا ، وتنشر على نطاق واسع مؤلفات جديدة فى كل فن ، وهى من هذه الناحية تتفوق على جميع دول آسيا .

المطابع

المطابع هنا كثيرة جدًا ، ولا نظير لها فى جودة الخط ، والنقاء والجمال ، والآلة الكاتبة العربية اخترعها عالم تركى هو أبو الضياء لا مثيل لها فى جميع العالم ، واليوم تطبع الكتب العربية فى كل مكان ، إلا أن الكتب المطبوعة فى بيروت تعد أفضلها جميعًا ، ولقد قال لى أهل بيروت أنفسهم إن الآلة الكاتبة فى الأصل من مخترعات الأتراك ، وأنهم يقلدونهم و، لأن الكتب التركية عمومًا تطبع فى القسطنطينية ولا تصل إلى هذه البلاد لذلك اشتهرت بيروت بشكل عام ، ونتيجة للرفاهية ورغد العيش فإن الكتب التى تطبع فى القسطنطينية تطبع طباعة فاخرة وعلى ورق غالٍ خلافًا لما فى مصر والهند ؛ حيث يستخدم للكتب ورق تنظيف الأحذية ، ولهذا السبب لا لغيره فإن الناس فى هذين البلدين لا يفهمون حتى الآن قيمة العلم وقدره .

وللأسف لايوجد هنا مطبعة ضخمة كبيرة وثرية إلى حد ما مثل مطبعة نولكشور فى الهند ، وأسف على أسف أن أكثر المطابع لغير

المسلمين ؛ والمطبعة التى أذكرها الآن يملكها نصرانى أيضًا ، أما مطابع المسلمين فأشهرها مطابع « ترجمان حقيقت » ، و « مطبع عثمانى » و « شركت صحافيه » ولقد زرتها جميعًا ، والشركة الصحافية تعد جديرة بالذكر ، وقد أسست برأس مال مشترك ، وجميع المساهمين فيها من المسلمين ورأس المال العام حوالى ثمانية عشر ألف جنيه أى ما يعادل مائتى ألف روبية ، وجميع الأعمال تتم بواسطة الآلات ، وآلة الطباعة كبيرة جدًا ، ويقوم بتشغيلها نحو عشرة أو أحد عشر - وفى الوقت الذى وصلت فيه كانت تطبع شرح البخارى للعينى ، وكانوا قد انتهوا من طباعة مجلدين كبيرين حتى ذلك الوقت ، وقال القائمون على الطباعة إن هناك ثمانية مجلدات أُخَر مثلهما ، وهذا هو المصنع المشترك للمسلمين فى القسطنطينية كلها ، وإلا وجب على المسلمين أن يسيطروا على التجارة أولاً ، وإذا قاموا بهذا العمل لسبب ما مصادفة فقلَّ أن يلتقى شخصان أو أربعة أشخاص ، وهكذا فهذه المطبعة من هذه الناحية هى ضرب من ضروب خرق العادة .

المكتبات

وصلت إلى هذا العنوان متأخرًا بسبب سياق الحديث وترتيب الموضوعات ، وإلا لكان هذا الموضوع من ناحية هدف الرحلة والرغبة الشخصية مقدمًا على ما سواه متناولاً إياه بشكل أكثر تفصيلاً ، والواقع أن أكبر ما يفتر به الأتراك ويفتخرون به من بين مآثرهم العلمية هى هذه المكتبات ، إن البلدان التى تشتهر بالعلم والتعليم فى العالم

الإسلامى اليوم هى الهند وجزيرة العرب ، ومصر ، وبلاد الشام ، وبلاد المغرب ، وفارس ، وإيران ، وقد رأيت بنفسى الثروة العلمية فى كثير من هذه البلاد ، والتى لم أرها أعرفها من خلال مصادر موثوقة تعادل الرؤية ، وبناء على هذا فإننى أستطيع القول - بيقين كامل - إن القسطنطينية تعد أكبر مركز للكتب العربية فى العالم الإسلامى .

ويبلغ العدد الإجمالى للمكتبات فى هذه المدينة خمسًا وأربعين مكتبة ، وهنا مكتبة ملكية فى قصر همايون ، وهى قديمة جداً ، وإلى جانب هذه المكتبة فإن عدد الكتب فى جميع هذه المكتبات حوالى خمسة وثمانين ألف كتاب ، وهذا العدد ليس كبير ؛ فلدينا فى الهند كتب أكثر من هذه الكتب ، ولكن القسطنطينية تمتاز بالكتب القيمة والنادرة ، وأذكر فيما يلى أسماء عدد من هذه المكتبات وهى : مكتبة جامع آياصوفيا ، ومكتبة جامع بايزيد ، ومكتبة جامع يول ، والمكتبة الحميدية القديمة ، ومكتبة شيخ الإسلام عاشر آفندى ، ومكتبة نقيب الأشراف أسعد آفندى ، ومكتبة جامع محمد الفاتح ، والمكتبة الحميدية الجديدة، ومكتبة الشهيد على باشا ، ومكتبة النور العثمانية ، ومكتبة لاله بى ، ومكتبة حكيم أغلى على باشا ، ومكتبة محمد باشا كوبريلى ، ومكتبة قلج على باشا ، ومكتبة ولى الدين آفندى ، والمكتبة السليمانية ، ومكتبة فيض الله آفندى ، ومكتبة السلطان محمد قاضى زادة ، ومكتبة جامع والدة السلطان ، ومكتبة عاطف آفندى ، ومكتبة شهرزاده داماد إبراهيم باشا ، ومكتبة خسرو باشا ، ومكتبة مهرشان ، ومكتبة محمد آفندى ، ومكتبة مصطفى آفندى، ومكتبة توفيق آفندى ، والمكتبة السليمانية ، ومكتبة محمد آفندى مراد ، ومكتبة راغب باشا ، وقد طبعت فهارس مفصلة لأربع عشرة مكتبة منها ، وستطبع على الأرجح بقية الفهارس تدريجياً .

وهذه المكتبات - كما يبدو من أسمائها - أقامها الأمراء والباشوات السابقون، وكلها وقف عام ، وهناك قدر من الأملاك أو الأطيان موقوفة مع كل مكتبة ، وذلك لدفع رواتب الموظفين ولنفقاتها العادية مثل ترميم المبانى والسجاد والأثاث العادى ، ومن خلال تلك الأمور أعترف أن مكانة الأتراك فى الإنفاق على الأمور العلمية أسمى من جميع الشعوب الإسلامية ، لقد ظل الحكم الإسلامى ردحًا من الزمن فى الهند ، وكان فى شأن عظيم وتعاقبه أمراء ووزراء ذاعت شهرتهم ، لكن لا يوجد اليوم أثر واحد من مآثرهم العلمية .

وتجد الدليل على هذا الرأى من خلال تلك المكتبات ، وهو أن جماعة الأمراء الأتراك مثقفون ، نالوا أعلى درجات التعليم ، ومعظم الذين أوقفوا المكتبات منهم لهم كتب موجودة سواء مؤلفات شخصية أو مكتوبة بأيديهم ، وهى شاهدة على ذوقهم وسعة أفقهم ، علاوة على هذا فإن هذا النوع من الكتب القيمة والنادرة جُمعت بعد بحث وتحقيق ، وهى فى حد ذاتها تدل على أن الذوق العلمى لهؤلاء الجامعيين لم يكن ذوقًا عاديًا .

وهذه المكتبات فى مستوى عادى من حيث جمال المبنى والتجهيزات الأخرى ، لدرجة أن بعض المكتبات ليس فيها دواليب ، وإنما توضع الكتب مكدسة على مصطبة يلتف حولها سور حديدى ، وقد فرشت الأرض فى جميع المكتبات بالسجاد ، وكل ما هناك هو وجود مقاعد مفروشة ، وضعت عليها الكتب للقراءة ، أما المكتبة الحميدية التى أقيمت فى الوقت الحاضر ، والتى تعد من مآثر العهد المبارك للسلطان المعظم ، فعلى الرغم من عظمتها وأبهتها ، واتساع مبناها وجماله ، وهذا القدر من المفارش الحريرية على الكراسى والطاولات ، فهى مستثناة من

المكتبات الأخرى ، ومع هذا فلا يمكن أن تتساوى مع المكتبة العامة فى إله آباد .

ولأن إدارة جميع الأوقاف مرتبطة بالحكومة ، فإن المكتبات كذلك تحت إشراف الحكومة ، ولهذا السبب فإن الكتب محفوظة بعناية ، ورغم امتداد العصور فلم تفقد ورقة واحدة ، والموظفون - رغم قلة الراتب - فى غاية التدين والاستقامة ، إن وقف مكتبة عاشر آفندى قليل إلى حد أن أمناء المكتبة لا ينالون أكثر من الطعام العادى وروبيتين شهرياً ، وعلى الشخص الذى يُعين أمينا للمكتبة أن يلتزم بأداء واجباته ، وأن يكون متديناً ولا شىء أكثر من هذا ، وعناقيد العنب مدلاة على حوائط المكتبة ، وذات يوم قلت له : لو بعت هذا العنب يمكن أن تحصل على دخل معقول ، فقال : طبقًا لشرط الوقف فإن هذا العنب فقط لهؤلاء الناس الذين يأتون إلى المكتبة بغرض قراءة الكتب ، ولهذا لا أستطيع الاستفادة منه بأى طريقة ، وبسبب قلة الراتب لم يتزوج هذا المسكين أيضاً فليس عنده أى منزل للسكنى ، وينام الليل فى المكتبة .

وتتضح خصائص ومزايا المكتبات وأحوالها الإجمالية مما يلى :

١- أعظم هذه المزايا أن الكتب الموجودة هنا عموماً مكتوبة بخطوط قديمة وصحيحة ، وقد أصلحها الأساتذة السابقين ، بالإضافة إلى أنها كتب قديمة ونادرة لا يوجد فى العالم منها إلا نسختين أو أربع نسخ وهى أصحهم جميعاً ، وإلا ما كان لها قيمة ، وفى مكتبات مصر كتب قديمة ، وهى ليست قليلة ، لكن معظمها مكتوب فى العصر الحالى ، ولهذا السبب ليست موثقة وهى صحيحة إلى حد ما ، لقد أصابتنى الحيرة بعدما رأيت كتب القسطنطينية ؛ فمن أين جمعوا مثل هذه النسخ

الغريبة والنادرة ؟ كنت أبحث منذ مدة عن كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، وقد عثرت على نسخة وحيدة فقط فى الهند ، لكنها كانت مليئة بالأخطاء وغير معتد بها ، ورأيت فى القسطنطينية عدة نسخ منه ، وكلها فى غاية الصحة ومكتوبة بخط قديم ، وكذلك توجد نسخ صحيحة وموثوق بها ككتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وتذكرة ابن حمدون ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، وكتاب أنساب الأشراف للبلاذرى ، والتاريخ الكبير للبخارى .

٢- بعض المكتبات مثل المكتبة الحميدية القديمة تتميز بأن أكثر الكتب فيها مكتوبة على أوراق مذهبة أو منقوشة بماء الذهب ، والحاشية موشاة بإطار ذهبى ، وإلى جانب هذا التكلف والبذخ فإن الخط فى غاية الجمال ، ولأنه قلما توجد كتب بهذا البذخ فى العصور القديمة ، فإن مؤسس المكتبة يُعد ويجهز معظم الكتب باهتمام شخصى منه ، وقد اطلعت على كتب عديدة منها نسخة كاملة من كتاب الشفاء لأبى على سينا ، وقد أعطانى إياها صاحب المكتبة المحب للنفائس بلا تكلف .

٣ – كنت أظن أن الكتب المصرية واليونانية المترجمة فى عهد الدولة العباسية قد انعدمت من الدنيا، ولكنى عرفت خطأ ظنى هنا ، وعلى الرغم من أن الثروة الموجودة لا تساوى من هذه الناحية الكتب التى ترجمت بكثرة ، إلا أن القدر الموجود يعد غنيمة .

ومن المعروف أن الأتراك كان لهم اهتمام خاص بالمؤلفات القديمة ، وهكذا فقد استفادوا من جهود أوربا فى هذا الجانب ، لقد كتب ابن رشد خلاصة جامعة ومفيدة جداً لمؤلفات أرسطو ، وهذه الخلاصة الأصلية مفقودة ، إلا أن ترجمتها اللاتينية موجودة فى مكتبات أوربا

حتى ذلك الوقت ، فقام العالم التركى أسعد أفندى بترجمة هذه الخلاصة اللاتينية إلى العربية ، وقد أضاف بعض الإضافات فى بعض المواضع ، وقد رأيت الترجمة فى مكتبة راغب باشا ، وهى مجموعة كبيرة ونموذج جيد للجهود العلمية للأتراك .

٤ - رأيت فى الأدب والتاريخ بعض المؤلفات التى تعد من الروائع ، وكنت أبحث عنها منذ فترة ، ولا يعرف هذا النوع من المؤلفات إلا مؤلفات أوربا الحالية ؛ فمثلاً ألفت كتب كثيرة فى أحوال القضاة ، ولكن لم يهتم فيها أحد بنقل أحكامهم وأقضيتهم إلى جانب حياتهم ، فيمكن فى الوقت الحاضر موازنتها مع طريقة الفصل فى القضايا ، ويوجد كتاب من هذا النوع فى مكتبة بنى جامع ومؤلف الكتاب هو أبو بكر محمد بن خلف الوكيع ، وهو مؤلف من عصر متقدم جداً ، ويذكر جميع الأحداث بسند متصل ، وقد التزم هذا الكتاب بأن ينقل إلى جانب أحوال كل قاضٍ كثيرًا من أحكامه وأقضيته وذكر أحوال القضايا .

ولم أر كتابًا فى الأدب من هذا النوع ، بل لم يكن يخطر على بالى كتاب كهذا كتبه المسلمون يؤرخ للموضوعات الشعرية ، أى أن الشاعر الفلانى كان أول من نظم فى الموضوع الفلانى ، وتدريجيًا أضاف الشاعر الفلانى هذه الإضافة أو بدل فى صوره الشعرية هكذا ، وقد رأيت فى مكتبة عاشر أفندى كتابًا ضخمًا خاصًا بهذا الموضوع ، زعم فيه المؤلف أن عرب الجاهلية أبدعوا جميع أنواع الموضوعات ثم جاء المتأخرون وطوروها ، وابتدعوا أساليب جديدة ، والكتاب كله يؤكد هذه الدعوى ، واستشهد المؤلف ببيت شعر لعرب الجاهلية فى كل مضمون ، ويذكر أن الشاعر الفلانى من الشعراء الإسلاميين قد غيرّ قليلاً فى هذا

المضـمون ونظمـه بهـذا الشكل ، ثم ولّد منه بعـد ذلك شـعـراء الدولتين الأموية والعباسية صوراً أخرى ، وبعد قراءة هذا الكتاب اندهشت لسعة نظره وآرائه الدقيقة الصائبة ، وتأسفت لأن المتأخرين لم يستطيعوا أن يقلدوا هذا النوع من التـأليف النادر ، وكناقد وجدت كتباً عديدة فى هذا الموضوع .

٥ – توجـد هـنا كـتب للفـلاسـفـة وللأئمـة المعـروفين بوفـرة لا نجـد مثلها فى أى مكان ، وتوجد هنا معظم كتب الإمام الغزالى ، وأبى على سينا ، والفخر الرازى ، والفارابى ، وهى مؤلفات نادرة نعرف أسماءها عن طريق كتاب ابن خلكان (وفيات الأعيان) وغيره .

وفيما يتعلق بالتصوف والحقيقة فإن المراسـلات التى دارت أولاً بأول بين أبى على سينا والسلطان أبى سعيد أبى الخير موجودة فى شكل رسائل ، وبالنسبة لابن سينا فإن هذه القضية تحتاج إلى بحث منذ فترة ، وهى هل أضاف شيئًا إلى الفلسفة اليونانية أم لا ؟ لقد كتب فى كتاب « الشفاء » : « إن الذى أكتبه هو فلسفة أرسطو ، أما فلسفتى الخاصة فقد كتبت الحكمة المشرقية » ، وقد جد الأوربيون كثيراً فى البحث عن هذا الكتاب أى « الحكمة المشرقية » ، ولأنهم لم يجدوا هذا الكتاب ؛ لذا ذكر الأستاذ مونك فى كتابه « العلاقة بين الفلسفة اليهودية والإسلام » « إننا لم نعثر على « الحكمة المشرقية » ، والكتب التى عثرنا عليها تؤكد أن ابن سينا لم يضف شيئًا ويوجد نسخة قيمة من هذا الكتاب النادر فى مكتبة جامع آياصوفيا ، ولن يجد المسلمون مشقة فى قراءتها ومقارنتها بالفلسفة اليونانية ، ولو وجد الأوربيون هذا الكتاب فلا شك أن هذا السؤال : « هل أضاف المسلمون شيئًا إلى الفلسفة اليونانية أم لا ؟ كان قد وجد إجابة شافية ، وقد تصفحت هذا الكتاب بشكل

مختصر بسبب ضيق الوقت ؛ فكان يبدو ظاهرياً أنه ليس فيه أى جدة ، ولو سنحت الفرصة لقراءته بعين فاحصة لأمكننى أن أكوّن رأياً عنه .

بعض نوادر كتب التاريخ والأدب :

وأذكر فيما يلى أسماء بعض الكتب التى اطلعت عليها هنا من الكتب النادرة فى الأدب والتاريخ وهى : « تاريخ الخطيب البغدادى » كاملاً ، و « تاريخ الإسلام » للعلامة الذهبى فى ثلاثة مجلدات ، و « تاريخ الحكماء » لجمال الدين القفطى ، و « التاريخ الكبير » للإمام البخارى فى ثلاثة مجلدات ، و « تجارب الأمم » لابن مسكويه ، و « المنتظم » لابن الجوزى ، و « مرآة الزمان » للبسط بن الجوزى ، و « مسالك الأبصار » لابن فضل الله فى عشرة مجلدات ، و « عقد الجمان » لبدر الدين العينى فى ثمانية عشر مجلداً ، و « مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر » لجمال الدين بن مكرم الأنصارى فى أربعة مجلدات ، و « رحلة ابن خلدون » ، و « نهاية الأرب » للنويرى ، و « طبقات الأدباء » لياقوت الحموى ، و « الطبقات الكبرى » لابن سعد ، و « طبقات الأمم » « لابن صاعد الأندلسى ، و « كتاب الأشراف » للبلاذرى كاملاً و « سيرة العمرين » لابن الجوزى ، و « كتاب البيان والتبيين » للجاحظ ، وكتاب « الصناعتين » للعسكرى و « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجانى و « تذكرة ابن حمدون » و « شرح التبريزى على ديوان أبى تمام » و « ديوان أبى نواس » كاملاً ، و « سرقات المتنبى» لابن العميد، و « مجموعة رسائل أبى إسحاق الصابى » .

وعند ذكر المكتبات فإننى أقول مع الأسف إن هذه الكتب النادرة هنا بلا فائدة تمامًا ؛ لأن هذه المكتبات تفتح لمدة ساعتين أو ثلاثة فقط فى اليوم ، وإلى جانب هذا فإنها تظل فى إجازة لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر متصلة فى العام ، وإلى جانب هذه الأمور نجد أن قلة الذوق الرفيع تجعل من هذه الكتب القديمة والنادرة بلا جدوى ؛فلم أر أى شخص يقترب منها ، وكنت دائمًا أريد الاستفسار عن أى نوع من الكتب أمام القراء فى المكتبة ، ولكنى لم أجد أمام أحد منهم أى كتاب قط سوى مختصر المعانى ، وايساغوجى ، وشرح الوقاية ، وتفسير الجلالين ، وأحيانًا كان يحضر علماء معروفون من دول أخرى لكى يبحثوا عن تلك الكتب العمدة والنادرة .

والحقيقة أن مناهج التعليم فى العالم الإسلامى كله متخلفة وعقيمة ، كما أن الناس – فيما عدا بعض الكتب الدراسية – لا يرغبون فى أى نوع من المعلومات الحديثة ، وكان من نتيجة ذلك أن سُلبت خاصية الاختراع والتجديد من الناس ، وظلوا كما هم بلا حراك ، ولا أمل فيهم فى المستقبل .

إن ما ذكرته بالتفصيل فى وصف المكتبات كان لهدف خاص ، وأريد أن أوجه نظر الناس نحوه ، وهو أن عدة جمعيات تأسست فى أوربا هدفها جمع كتب التراث القديمة ثم طباعتها ونشرها ، وعن طريق هذه الجمعيات تيسرت لنا الكتب القديمة والنادرة باللغة العربية ، والتى لم يكن يخطر على بالنا الحصول عليها ، وهذه الجمعيات هى نفسها التى جمعت نسخة كاملة من « التاريخ الكبير» لأبى جعفر جرير الطبرى وطبعته فى مجلدات عديدة ثم نشرته فى الوقت الذى فقد فيه علماء مصر

والشـام الأمـل تمامًا فى هـذا الكنز التـاريخـى الـنـادر ، وكـان شـاه عبد العزيز قد أكد أنه قد فقد من العالم ، ولا شك أن هذا يعد خدمة عظيمـة قـامت بـهـا أوربا ، ويجب أن نعـتـرف بذلك عـلانيـة ، وأرجـو من أعيان الأمة أن يؤسسوا هذا النوع من الجمعيات الهادفة ، وأن يُجمع رأسمال كاف من التبرعات العامة ، وأن يعين خُبراء لاختيار كتب كبار المؤلفين على أن تنقل الكتب من مصر والقسطنطينية وتطبع ثم تنشر ، وهذا العمل يعد فى الظاهر عظيمًا ، لكنه يبدو مستحيلاً من حيث الوضع الراهن للأمة ، إلا أن الحقيقة على عكس هذا ، فلو أن مائة مسلم من بين أربعمائة مليون استعدوا ودفعوا تبرعات قليلة فلن يكون هناك أى عقبات لإنجاز هذا العمل ، إن المؤسسة التى أقيمت فى حيدر آباد الدكن باسم دائرة المعارف الدكنية ، ومن كبار أعضائها نواب.اقبال يارجنك بهادر. إننى آمل أن يهتموا بطلبى هذا ، ونحن نعترف بخدماتهم العلمية ونشكرهم عليها ، لكننا فى حاجة إلى المزيد من هذه الجهود ، وآمل أن تتجه دائرة المعارف إلى هذا الهدف بمزيد من الاهتمام .

الزوايا والخانقاهات (التكايا)

الخانقاهات التى يسمونها هنا التكية أو التكايا كثيرة ، ويذكر التقرير الأخير أنه هنا فى القسطنطينية ثلاثمائة وخمسة خانقاه ، وقد ذكر التقرير أسماءها بالتفصيل إلى جانب أماكنها وأحوالها الأخرى ، ولكن المعنى المقصود من كلمة « خانقاه » يختلف عما هو فى بلدنا ، ففى هذه البلاد طريقة فريدة للضيافة ، وهى فى الحقيقة مثيرة للدهشة ؛

حيث توجد فى كل مدينة كبيرة زاوية لكل بلد ولكل طائفة على حدة ، يلجأ إليها مسافر تلك البلاد وتلك الطائفة ، وفى تلك الخانقاه لا يجد أى نوع من العوائق ، ويمكنه القيام بها إلى ما شاء ، ويقدم إليه الطعام كما يقدم له الشاى لمرة واحدة وكل هذا مجانًا ، وتوجد زوايا مستقلة للهنود فى جميع تلك البلاد : ديار بكر ، والموصل ، وحلب ، وبيت المقدس ، ودمشق ، والقسطنطينية رغم بُعد المسافة وقلة الأصدقاء ، وتقرر لهم كمية مناسبة من اللحوم والمواد الغذائية .

وهذه الزوايا أسسها الأمراء والأغنياء ، وأوقفوا عليها أملاكًا وعقارات تكفى دائمًا للنفقات المقررة ، وفى كل زاوية شيخ يتقاضى راتبًا مناسبًا إلى جانب الطعام ، يقوم بالإشراف على الزاوية ، وقد زرت العديد من الخانقاهات وبعضها مبانيها واسعة وجميلة ، كما أن نوع الطعام فيها وكميته مناسبة ، والنفقات السنوية لزوايا القسطنطينية لا يقل بشكل خاص عن خمسمائة ألف جنيه تقريبًا ، إن الكرم التركى فى الحقيقة أمر مشهود ، ولا شك أن العصر الذى اتبع فيه هذا المنهج كان مناسبًا لتلك الترتيبات .

ولعلكم قرأتم فى كتب التاريخ العربية أن الرحالة وطلاب العلم ظلوا يجوبون جميع الدولة الإسلامية عن طريق هذه الزوايا والخانقاهات ، وكان ابن بطوطة قد وجد العون فى رحلته العالمية عن طريقها أيضًا ، ولهذا ذكر فى رحلته هذه الزوايا بأسمائها ، لكن الأمر الطبيعى أنه عندما تحل أيام الانحطاط بأمة ما فإن النظام المفيد يتحول إلى نظام ضار ، فإقبال المسلمين على تحصيل العلم ، والبحث الجغرافى ، والرحلات لايزال باقيًا ، ولهذا فالشائع هذه الأيام أن هذا الأمر أصبح

وسيلة للتسول والحصول على الطعام بالمجان ، وقد أضر ذلك ضرراً فادحًا بحياة الأمة ، وقد زرت بنفسى معظم هذه الزوايا فوجدت المسافرين الذين قدموا منذ عدة سنوات لا عمل لهم ولا وظيفة ولا مهنة ، وقد سمعت أن الحال كان هكذا فى عهد أمراء لكنهو ، والآن أرى بعينى أن الشيوخ الذين تسلموا إدارة الخانقاهات ، والذين يشرفون على توزيع النقود والطعام هم بالعموم خونة ولا ذمة لهم ، ويعيشون فى رغد وتنعم ، ولا يعطون للمسافرين نصف أو ثلث أو ربع الكمية المقررة لهم ، والشيخ المسئول عن الخانقاه الهندية رجل قد اصطحب معه عدة زوجات ، وابتنى لهن بيتًا منفصلاً فى الخانقاه يعيش أكثرهن فيه ، وكان يتصرف تقريبًا فى اثنين ونصف كيلو من اللحم المقرر يوميًا للخانقاه ، ولا يحصل المسافرون حتى على الطعام العادى ، والقاذورات فى كل مكان فى الخانقاه ، وتظل أكداس القمامة فى صحن الخانقاه ، وخلاصة القول أنها صورة كاملة للخراب والوحشة ، والخانقاهات التى زرتها على الرغم من أنها كانت أفضل فى كل شىء من الخانقاهات الهندية ، لكنى لم أجد مظاهر الصدق والتدين فى أى مكان ، وهكذا تهدر بشكل مثير للغاية مبالغ سنوية تقدر بعدة آلاف .

المساجد والجوامع والأماكن الشهيرة

لا مثيل للقسطنطينية فى العالم من حيث كثرة مساجدها وجوامعها وجمالها وبهائها ، فمنذ عهد محمد الفاتح حين صارت أول عاصمة لدار الخلافة وحتى اليوم يوجد لكل خليفة من الخلفاء (عدا قلة) مسجد جامع فى غاية الفخامة والشموخ ، ومن أشهر هذه الجوامع جامع

الفاتح ، وجامع سليمان ، وجامع بايزيد ، وجامع والدة السلطان ، وجامع السلطان أحمد ، وجامع آيا صوفيا ، وأكبر هذه الجوامع وأجملها جامع آيا صوفيا ، وعمارة هذه المساجد تختلف تمامًا عن عمارة المساجد عندنا ، فهى عبارة عن قبة واحدة فقط بلا صحن ، ولا محراب ولا قاعة ، ولكنها تتسع لعدة آلاف من الناس ، ومع أنه لا يمكننى القول إن عمارات هذه المساجد وجمالها يتناسب مع الذوق الهندى ، إلا أن ارتفاع المبنى والتساع غير المتناهى للقبة أمر يثير حيرة الإنسان بل تصيبه بالدهشة والرعب ، وفى كل مسجد عدد من النجف الحديدى ، ويبدو أن انتشار « النجف » يرجع إلى أزمنة ضاربة فى القدم ، وغالبًا فإن المقصود من كلمة ثريا فى التاريخ العربى للأندلس هو ذلك النوع من (النجف) ، ولاشك أن هناك فرقًا إلى حد ما ؛ فهى هناك مصنوعة من الزجاج والبلور بينما هنا من الحديد ، وعمومًا فإن جميع المساجد يسودها شكل خاص ، يمكن القياس عليه ، وهو أن جميع سلاطين الأتراك كانوا متمسكين تماما بالمذهب السنى ويظهرونه فى كل أمر ، ويوجد فى كل مسجد بشكل عام أربع كوات كبيرة على الأطراف الأربعة له مكتوب عليها بماء الذهب : أبو بكر رضى الله عنه ، وعمر رضى الله عنه ، وعثمان رضى الله عنه ، وعلىّ رضى الله عنه ، بحروف كبيرة وبخط ، جميل وهى تمامًا مثلها مثل لوحات كتبها فنانون لتعلق على الحوائط للزينة .

وجميع المساجد مزينة وتفرش بالسجاد الغالى الجيد فى أيام العيدين والجمع عادة ، وتوجد قطعة أرض صغيرة فى أحد أطراف المسجد بها ميضة (سقاية) للوضوء ، وقد أعجبنى هذا الأمر كثيراً ؛ لأن الحوض غير معروف هنا قط .

وجامع آيا صوفيا أكبر هذه الجوامع وأعظمها ، وجميع المساجد تبنى على منواله ، وكان فى الأصل كنيسة كبيرة بناها قسطنطين فى سنة ٣٢٥ هـ ، واستغرق بناؤها سبع سنين ، وعمل فى بنائها مائة بنّاء وعشرة آلاف عامل ، وبدلها محمد الفاتح وحولها إلى مسجد ، وقد زار ابن بطوطة هذه الكنيسة وهى فى حالتها ، يقول : « وهى كنيسة عظمى ، وإنما نذكر خارجها ، وأما داخلها فلم أشاهده، وهى من أعظم كنائس الروم ، لها حرم نحو ميل ، عليه باب كبير ، وهو شبه مشور مسطح بالرخام ، تشقه ساقية تخرج من الكنيسة ، لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة ، والأشجار منتظمة عن جهتى الساقية ، ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرض من الخشب مرتفع عليه دوالى العنب ، وفى أسفله الياسمين والرياحين ، والباب مصفح بصفائح الفضة والذهب ، وذكروا أن عدداً كبيراً من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهى إلى آلاف ، وأن بعضهم من ذرية الحواريين » .

وللأسف لم تبق الصورة التى وصفها ابن بطوطة الآن ، فإن النهر الذى كان فى داخل السور أصبح خارج المسجد تماماً وتحول إلى مقهى .

والحقيقة أن هذا المبنى عجيب ومثير للحيرة ، إن قطر القبة التى تتوسطه ١١٥ قدم ، وارتفاع السقف ١٨٠ قدم ، وبه ١٧٠ عموداً ، وجميعها من الرخام وأحجار السماق ، وقطر هذه الأعمدة لا يقل عن ثلاثة أو أربعة أذرع ، والباب الذى هو من أيام قسطنطين ، وكذلك القفل عليه صور ورسوم من العهود القديمة ، لا تزال قائمة حتى اليوم ، والصور التى كانت على السقف للسيدة مريم وعيسى عليه السلام لا تزال موجودة حتى الآن .

والأماكن الجديرة بالمشاهدة هنا كثيرة ، مثل معابد اليونان القديمة ، والخزانة حيث يوجد صور جميع السلاطين العثمانيون بكامل قدهم فى ملابسهم الأصلية وأسلحتهم وجواهرهم ومصنع المدافع ، والمتحف القديم الذى يحتوى على الآثار والنقوش الحجرية العتيقة ، وفيه التابوت الحجرى للإسكندر اليونانى وغيرها ، ولكنى لم أتمكن من رؤية معظم الأماكن ، ولهذا سوف أكتفى بالذى زرته .

« ترس خانة » - أى مصنع بناء البواخر - مصنع عظيم وكبير ، ولأنه ينتمى إلى الإدارة العسكرية لا يستطيع أى شخص الذهاب هناك بدون تصريح كتابى من مصلحة البحرية ، ومن حسن حظى أن صديقى الشيخ على ظبيان كان يعرف مسئولاً كبيراً فى مصلحة البحرية استطعنا أن نستفسر منه بالتفصيل عن كل شىء ، وينقسم هذا المصنع إلى أقسام مختلفة ، والمبنى الرئيسى فيه عبارة عن مبنى مكون من طابقين على شكل مستطيل كبير فيه العديد من الآلات والماكينات الكبيرة والضخمة وعن طريقها تدور آلاف من التروس ، وقد اصطحبنا مرشدنا فى البداية إلى الطابق الأعلى ، وأخذنا أولاً إلى غرفة كبيرة بها عدد من كبار الضباط يجلسون حول طاولة طويلة يُصممون رسمًا هندسيًا لإحدى السفن ، وعندما أُعد الرسم الهندسى أُرسل إلى مكتب آخر لكى يصمموا نموذجًا مصغراً للسفينة مطابقًا للرسم الهندسى ، وهو نموذج خشبى ، وبه صورة كاملة للسفينة بالرغم من كونه مصغر ، ويقدم هذا النموذج أولاً إلى السلطان ليطلع عليه ، وبعد الموافقة تُبنى السفينة طبقًا لذلك النموذج ، وأنَّى لى أن أفهم دقائق وتفاصيل تلك السفن ، ولكنها كانت تبدو من الظاهر أنها عمل متقن وفى غاية الدقة .

وبعد رؤية هذه الأشياء نزلنا إلى أسفل ؛ حيث كانت آلاف الماكينات تدور ، وكانت تعمل منفصلة عن بعضها ، وأمام هذا المبنى سور كبير جداً ، حيث كانت هناك باخرة ، اكتمل بناؤها تقريبًا ، ولم يتبق إلا رفع الشراع فقط ، ورأينا هنا سفنًا بخارية كثيرة كانت تبنى فى تلك الترسانة ، وكانت مُلقاة فى البحر ، وهذه البواخر أعلى درجة ولا يفوقها أى نوع آخر من البواخر ، وتبدو الباخرة كلها عبارة عن منصة خشبية واسعة عليها أدوات وأسلحة الحرب وجميع أنواع الأشياء الضرورية أى غرفة الطعام والنوم والمطبخ ، والخلاصة أن بداخلها كل ما يمكن أن يحتاج إليه ، وقام مرشدنا باصطحابنا لزيارة إحدى السفن ، ولكن لشدة ضيق المكان بدأ يضيق تنفسنا بعد فترة وجيزة فخرجنا بسرعة ، والأمر الجدير بالثناء هو أن مصنعًا عظيمًا وضخمًا إلى هذا الحد يديره أتراك فقط ، فكل الضباط والعمال والموظفين أتراك ، ويوجد موظف أوربى واحد فقط وهو موظف عادى وقد أُبقى عليه لأقدميته ، وتصنع هنا الآلات ، ويذكر الأتراك أنها لا تقل بأى حال عن الآلات المصنوعة فى أوربا ، وقال لى أحد الضباط إننا لا نحتاج إلى أوربا فى جميع الأعمال فى هذا القسم .

قتلى ينى چرى[1] : تحمل كلمة « ينى چرى » أهمية كبيرة فى تاريخ الأتراك ، فقد أمر السلطان أرخان – الملك الثانى من ملوك الترك

(١) وردت ينك جرى بكاف فارسية وجيم مثلثه ، لكن المعروف والمتداول هو ينى جرى بجيم مثلثه (المترجم) .

- سنة ٧٦٣ هـ بأن يُعد جيش باختيار عدد خاص من أسرى الحرب الذين يتزايدون كل عام ، وقد أطلق حاجى بكتاش مستشار الملك على هذا الجيش اسم « ينى چرى » الذى يعنى « الجيش الجديد » فى اللغة التركية ، وقد أضيف أعداد يعتد بها إلى هذا الجيش بعد كثرة الانتصارات ؛ حتى صار هذا الجيش عماد الدولة الذى تستند إليه بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ، ومن الأمور العجيبة أن أسرى الحرب بالرغم من أنهم من نسل النصارى بشكل عام فإنهم عندما التحقوا بالجيش ظلوا فترة طويلة على دينهم القديم ، إلا أن إخلاصهم للحكومة التركية كان أكثر من إخلاص الجنود الأتراك أنفسهم ، وكانت انتصارات الأتراك على أوربا لعهد من العهود بسبب هؤلاء الأبطال ، وعندما أراد السلطان محمود إعداد الجيش طبقًا للمبادئ الحربية الأوربية عام ١٨٢٦ م ثار جنود الجيش الجديد ، وكان السلطان قد أعد جيشًا جديداً من قبل ، وقد ساند أهل المدينة أيضًا الجيش الملكى الجديد ، وخلاصة القول أن حربًا حامية الوطيس نشبت فى القسطنطينية أبيد على أثرها جيش « ينى چرى » عن آخره ، كما لحقت بالجيش الملكى خسارة فادحة ، وأسلم رئيس الوزراء وشيخ الإسلام الروح ، وقد بنى هذا المكان ذكرى لهذه الحرب الطاحنة ، وأقيمت تماثيل كاملة لرئيس الوزراء ، وشيخ الإسلام ، ولجميع القادة وكبار الضباط فى جيش « ينى چرى » وكذلك الجنود وقادة الجيش فى أشكال مخيفة ، فى ملابس وأسلحة حرب العصور القديمة ، وفى عالم الصمت والسكون ، وكل هذه الأمور مجتمعة خلقت جواً من الرهبة والهيبة ؛ بحيث يتملك الخوف عندما تذهب هناك فى النهار ، وقد رأيت بطلان مدججان بالحديد من رأسهما إلى قدمهما ، على الرأس خوذة ، وعلى الوجه - ، وفى الكفين قفاز حديدى ، وعلى الجسم درع ، وحذاء حديدى حتى الركبتين ، المهم أنه لا يبدو أى جزء

من جسمهما سوى العينين ، وسألت فقيل لى : إنهما شابان كرديان كلفا بمهمة خاصة ، وفى اعتقادى أن الأثقال التى كانت على جسميهما لا تقل عن مَنْ من الحديد ، والعجيب كيف كانوا يحاربون مع هذا الكم من الأثقال ، أماَ الضباط فإن ملابسهم غريبة ، وهنا الحرس الرسمى يقوم بالحراسة فى جميع الأوقات ، ولا يستطيع أى شخص الذهاب هناك بدون الحصول على تذكرة .

المتحف : يوجد هنا متحفان : الأول متحف حكومى يحتوى على الآثار والنقوش الحجرية القديمة وما شابه ذلك من الأشياء التذكارية ، وفيه التابوت الحجرى للاسكندر اليونانى ، وللأسف لم أزره.

والمتحف الثانى أنشأه تاجر نصرانى ، والمبنى وجميع الأشياء فيه عادية ، والشىء الذى يستحق الزيارة هو تماثيل لرجال من مختلف أنحاء العالم ، وقد نحتت هذه التماثيل بإتقان شديد فتبدو كأنها حقيقية ، ورأيت هنا امرأة كانت شفتاها غليظة جداً ، وفى شفتها السفلى ثقب معلق فيه حلقة خشبية ، ويبدو أنها كانت للزينة عندهم ، فتعجبت أيما تعجب فى البداية ، ثم راودتنى هذه الفكرة أنهم فى بلادنا يثقبون الأنف والأذن يضعون فيها الأقراط ، فأى عيب فى الشفاة حتى تترك محرومة من الزينة!!

وقد رأيت هنا مشهداً عجيباً أثّر فى قلبى تأثيراً كبيراً ، وظل أثره لفترة من الوقت ؛ حيث رأيت فى إحدى الغرف المنفصلة صوراً لعدد من النساء يسامون العذاب بمختلف ألوانه ، إحداهن تسحب من رقبتها والأخرى وضع قضيب من الحديد المحترق على ظهرها ، وهكذا كانت الأخريات تُعذبن بطرق عجيبة ، وهؤلاء النساء يبدو من ملابسهن وهيئتهن وصورهن وصورهن أنهن من أُسر شريفة وثرية ، وأكثرهن

فتيات صغيرات وجميلات ذوات أجسام غضة ، وكنت أعجب من تلك الأيدى الظالمة التى اقترفت جريمة تعذيبهن ، فبحثت عن سبب ذلك ، فعلمت أنه حينما تم القضاء على الدولة الإسلامية فى الأندلس ، وقامت على أنقاضها دولة نصرانية أُجبر المسلمون على تغيير دينهم ، وكان لا يمكن محو تأثير الإسلام من القلوب بسهولة ؛ لذا أذيقوا ألواناً مختلفة من العذاب ، وتعرضت النساء لتعذيب أكثر بسبب ضعفهن وقلة حيلتهن ، وهؤلاء النساء المعذبات هن ذكرى لتلك الأحداث المؤسفة ، وحينئذ قلت فى نفسى هؤلاء هم النصارى الذين يتهموننا قائلين إن الإسلام انتشر بقوة السيف !!!

ولم أفهم هذا اللغز ، فبأى هدف وضع مؤسس هذا المتحف النصرانى هذه الصور هنا ، فهل يريد عرض الأعمال الخالدة للنصارى ؟ والحكومة التركية التى لم تعترض على ذلك هل تريد أن تثبت وتبرهن على تسامحها وعدم تعصبها ؟ فأنا أعترض بشدة على هذا الأمر ؛ فكيف تسترجع أمم العالم المختلفة الأحداث غير المستساغة التى وقعت فيها فى أى عهد من العهود الغابرة مرة أخرى على الملأ .

المتنزهات

فى القسطنطينية وضواحيها متنزهات طبيعية بهيجة كثيرة ، والشىء الطيب أن سكانها يقدرون هذه النعمة حق قدرها ، وهناك يوم محدد للنزهة فى كل متنزه ، وتجتمع المتعة هناك فى ذلك اليوم ، وللأسف فإن الناس فى بلدنا (الهند) لا يعرفون الاستمتاع بالمناظر الطبيعية

وإلا لشد أهل القسطنطينية الرحال لرؤية تلك المتنزهات خاصة والاستمتاع بها ، ولا يفكر فى هذا الأمر العجيب ، وقد زرت متنزهين أو ثلاثة منها ، وأذكرها هنا باختصار .

يعد « خونكرموى » أجمل وأروع متنزه من بين المتنزهات القسطنطينية ، وبناء على هذا فهو منسوب إلى اسم السلطان المعظم ، وكلمة « خونكر » تحريف للكلمة الفارسية « خونكَر » وتعنى كلمة « خون » بالتركية ملك أو « خون ريز » يعنى ملك الزمان ، وموى يراد بها الماء والنبع ، وبناء على هذا فإن الترجمة الحرفية لـ « خونكر موئى » النبع الملكى ، وهذا المتنزه يقع على بعد خمسة وعشرين ميلاً من المدينة ، وقد امتدت سلسلة من الجبال على البعد ، وهى خضراء خصبة ، وتظهر فيها قطعة من الأرض مستوية تقع فى أعلى قمة الجبل ، وفى هذا المكان خاصة يجتمع فيه المتنزهون ، وهو مكان واسع رائع جداً حيث الأشجار الظليلة فى صفين على جانبيه ، وتمتد الخضرة اليانعة على امتداد البصر ، وهناك شلال فى أحد الأطراف تتجمع ماؤه فى أحد الأحواض ، وينقسم الناس إلى مجموعات صغيرة يجلسون تحت الأشجار يشربون الشاى والقهوة معًا ، وتعزف الموسيقى حول الحوض وسط تقليد المهرجين والأغانى التركية والفرنسية .

وبعد أن تصعد خمس أو ست درجات على السلم تجد القمة الأصلية للجبل وهى مسطحة ومستوية وظليلة ، وهى مكان خاص لجلوس النساء ، وتتجمع فيه النساء التركيات بكثرة ، كما أن النساء اللطيفات تجدهن على بعد مسافة عشر ميلاً يقمن بصعود الجبل أو ركوب الخيل والبغال ، وهو أمر لا يجهدهن إلا قليلاً ، ولكن هذا المكان له سحر خاص حتى إن التعب مستساغ لديهن .

والمتنزه الآخر هو « مقر كوئى » وهو مقهى على شاطئ البحر وموقعه ممتاز ؛ حيث تطلاطم الأمواج وتصطدم به مراراً مما يسر النفس ويروّح عنها ، ومن الأمور العجيبة هنا أن سبع سيدات يهوديات جالسات على مصطبة مرتفعة يغنين أغانى عربية ، ولأننى لم أسمع أغانى عربية من قبل ؛ لذا اثرت فىّ تأثيراً خاصاً ، حيث كن يغنين معاً فى صوت واحد ويعزفن الموسيقى على إحدى الآلات وهى نوع من أنواع الدفوف .

احتفالات محرم فى القسطنطينية

شهر محرم هنا من الأمور الجديرة بالذكر ؛ فالشيعة يحتفلون به احتفالاً صاخباً على اختلافهم وعددهم لا يقل عن خمسين أو ستين ألفاً ، وهم موظفون فى كثير الإدارات الحكومية ومعظمهم من التجار والحرفيين والعمال، ومع أن هؤلاء الناس منتشرون فى جميع أنحاء المدينة إلا أن معظمهم يعيش فى حى يسمى « والده خانه » ، حيث تكثر ملحمة البكاء والعويل ومجالس الحزن والحداد فى أيام شهر محرم ، وليس من المعتاد فى مجالس محرم هنا إظهار مشاعر الحرقة والألم فحسب بل إلقاء المواعظ كذلك ، وهى فى الحقيقة نفس عادة مجالس العزاء (فى الهند) ، والطريقة المعتادة إظهار مشاعر هنا هى أن يقف فى البداية رجل بالقرب من المنبر ، ويلقى أبياتاً من الشعر ، تتعلق بمناقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب والإمام الحسين (رضى الله عنهما) ، ثم يجلس على المنبر علاّمة كبير فيتحدث عن أحداث كربلاء فى شكل موعظة بلغة فى غاية السلاسة والجمال ، وقد سررت أيما سرور بهذا الأمر، وهو أن الأتراك – بشكل عام – يشاركون فى هذه المجالس بأدب وإخلاص ، لدرجة أنه فيما

عدا مجلس أو مجلسين ؛ فإن جميع المجالس يقوم فيها الأتراك بالوعظ باللغة التركية .

وهناك عدة طرق لإقامة مجالس العزاء ، بعضها مؤثر وعجيب للغاية ، أقل درجة هى أن يتجمعوا ويتصايحوا بقوة هائلة لدرجة أن يمتلئ ذلك المكان بالضجيج ، والطريقة الثانية هى إقامة العزاء باستخدام الأصفاد والسلاسل ؛ حيث يتحلق ثلاثون أو أربعون رجلا ويضربون صدورهم أو ظهورهم بالسلاسل بقوة بحيث يصل الصوت إلى مسافة بعيدة ، والطريقة الثالثة هى الاحتفال بالسيوف ، وهذه الطريقة قاصرة على ليلة الشهادة حيث يقف المحتفلون بالمأتم فى صف والسيوف بأيديهم ويقولون يا حسين وهم فى عالم عجيب من الحماس والذهول والغياب عن الوعى ، ويضربون رؤوسهم وجباههم وأكتافهم بالسيوف حتى تتطاير قطرات الدم من جروحهم وتلطخ أجسادهم ، ويصبح المجلس كأنه ميدان الحرب ، ويتزاحم الناس بكثرة لرؤية هذا المشهد المؤثر ومن الصعوبة بمكان الوصول إلى هناك .

سلاملق الموكب السلطانى وعيد الأضحى

ليس فى القسطنطينية شىء أعجب وأمتع من « سلاملق » ، وسلاملق كلمة تركية ترجمتها الحرفية تعنى التحية والسلام ؛ حيث تأتى إلى هذا المكان الجيوش و قواد الجيوش لتحية السلطان والسلام عليه ، ولهذا سمى هذا التقليد بـ « سلاملق » ، والسلطان لا يخرج عامة من قصره الملكى ، إلا لصلاة الجمعة فيحضر إلى المسجد الجامع ، ويمارس

هذا التقليد هنا فى الجامع ، والحقيقة أن الجلال والعظمة والأبهة التى تظهر فى هذه المناسبة يعجز اللسان والقلم عن وصفها ورسم صورتها ، ومع أن هذا التقليد يمارس فى كل شهر أربع مرات ، وفى كل سنة ثمان وأربعون مرة حتى أصبح بمثابة عادة ، لكن رغم ذلك يزدحم المشاهدون فى أعداد كبيرة يغص بهم المكان ، فيصعدون فوق الأشجار وأكتاف الناس لرؤية الموكب ، حتى السياح الأوربيون الذين يزورون القسطنطينية يشاركون فى مشاهدة هذا التقليد ، وتوجد شرفة عالية على ممر الموكب السلطانى يسمح لوجوه الناس بالجلوس فيها بعد أن يحصلوا على تذاكر ، وهكذا فى كل جمعة يوجد جمع غفير من المشاهدين ، وفى أثناء إقامتى هناك حضر وفد على مستوى رفيع من أعضاء الحكومة المجرية لزيارة القسطنطينية ، وشاركوا فى هذا الجمع .

كنت قد سمعت فى الهند عن هذا الموكب ، ولهذا عندما وصلت إلى القسطنطينية أردت مشاهدته أولاً ، وكنت حينئذ قد تعرفت على أحد العرب الشوام فاصطحبته معى ، ووصلت إلى جامع الحميدية ، وبعد أن وصلت إلى هناك رأيت جمعًا هائلاً من الجنود يمتد لمسافات بعيدة ، ومن الصعب على الإنسان أن يرى حتى الموكب السلطانى فاضطررت إلى العودة ، وكان حسين آفندى وهو تركى عاش فى وقت من الأوقات فى بومباى ، وهو الآن مدير البوليس فى القسطنطينية يعرفنى ، والسبب فى ذلك هو أننى أثناء الحرب التركية الروسية[1] كنت قد أرسلت إلى

(١) يقصد الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٧ م ، وكان مولانا شبلى يكتب المقاولات ، وينظم الأشعار معلنا عن مساندته لتركيا ، كما جمع ٣ آلاف روبية وأرسلها لمساعدة تركيا ، وكان يبلغ من العمر أنذاك ٢٠ عاما . (المترجم) .

القسطنطينية عن طريقه مبلغا قدره ثلاثة آلاف بوصفى سكرتير الجمعية ، وبناء على هذه العلاقة حضرت إليه ، فقابلنى بمودة شديدة ، وقال سأترك لك تذكرة عند مجيئك إلى جامع الحميدية يوم الجمعة ، لكن لسوء حظى أو لحسن حظى فإننى عندما وصلت هناك لم يكن موجوداً ، وبقيت لفترة من الوقت أنتظره على باب المسجد ، وعند الساعة الواحدة عندما وصل موكب السلطان انتشرت الجنود لمسافات بعيدة واصطفوا على شكل هلال ، وأغلقت جميع الشوارع ، ودخلت المسجد بعد أن أصابنى اليأس ، وتأسفت على ضياع هذه الجمعة أيضًا ، وكان قد انقضى وقت قصير وانبعث صوت هادر وعم الصمت جميع أنحاء الميدان فأدركت أن موكب السلطان قد اقترب ، وأن هذه كانت صيحة « بادشاهم جوق[1] يشا" أى أطال الله عمر ملكنا ، وهى الصيحة القومية للأتراك ، وارتفعت هذه الصيحة ثلاث مرات متتالية ، وكان الموكب السلطانى قد وصل إلى المسجد ولم تخف حدة الصيحات ، ورفع المؤذن صيحة الله أكبر ، وكان ينتظر مشاهدة جمال السلطان ، وامتزج الصوتان فتركا أثرًا عجيبًا على القلب ، وكان السلطان يركب عربة مكشوفة ، ولأن صحن المسجد ليس داخل المسجد أى لا يصلون فيه ويمكن أن يمشوا فيه وهم يلبسون الأحذية ، فإن السيارة وصلت حتى الصحن وتوقفت بعد أن اقتربت من الحائط ، ويتكون المسجد من طابقين ، وأعدت مقصورة فى الطابق الثانى من المسجد وهى مكان لصلاة السلطان خاصة ، وبعد أن نزل السلطان من السيارة ذهب إلى الطابق العلوى ، ومع ذهابه أغلق باب المقصورة حتى لا يستطيع أحد أن يراه .

(١) الترجمة الحرفية لها هى « ليعيش سلطاننا عمراً مديداً » (المؤلف) .

وبعد أن جلس الناس مطمئنين ، بدأ الخطيب خطبة الجمعة ، ولكن للأسف كان الخطيب تركيًا وليس عربيًا ، ولهذا لم يكن في صوته ذلك التأثير الذي ينفرد به العرب ، ثم بدأ الخطبة الثانية فأشار بيده إلى السلطان المعظم ، وقرأ هذه الكلمات بصوت حماسي : « اللهم انصر هذا السلطان ، السلطان ابن السلطان ، الخاقان ابن الخاقان السلطان عبد الحميد خان ، امتلك الأفئدة وسحر النفوس ، ودمعت عيناى وخرجت كلمات الدعاء للسلطان على لساني ، في نفس المكان كانت هناك مجموعة أشخاص نحو خمسة عشر أو عشرة يقفون و في أيديهم طلبات يعرضون فيها أحوالهم ، فكانوا يرفعون أيديهم ناحية السلطان ويتضرعون بالدعاء ، وهم يقدمون هذه الطلبات ، وكان الحاجب يجمعها ، وقد رأيت بعضهم بعد أن يشير بيده ناحية السلطان ينحني حتى الأرض ، ويلامس الأرض بيده ثم يُقبّل يده ، وبالرغم من أن جميع هذه الأمور كانت خلافًا للسكون والحبور في الخطبة ، إلا أنها لا تخلو من مغزى . وقد استفسرت عن ذلك فعلمت أن هؤلاء الناس لا يمكنهم الوصول إلى السلطان المكرم بأي طريقة ، وهم لذلك يقدمون مطالبهم بهذه الطريقة ، ولأن طبيعة السلطان تتسم بالكرم والرحمة بشكل عام ، لذا لا تُمنع هذه الطريقة .

وبعد الصلاة قابلت حسين حسيب أفندي بالصدفة ، وقال لي إنني بحثت عنك فأين كنت ؟ لم أتمكن من الحصول على تذكرة الطابق العلوي ، لكنني أعددت لك مكانًا أفضل بكثير منه ، وبعد الصلاة خرج كل الناس ، ونزل السلطان من المقصورة على درجات سلم حتى يستطيع رؤية السلاملق بسهولة ولا يستطيع أي شخص أن يرى السلطان ، بينما وقف

ضباط الجيش والباشوات مصطفين فى الناحية اليمنى من صحن المسجد ، أخذنى حسين حسيب وأوقفنى فى هذا الصف ، وقال للناس وهو يعرفنى بهم هذا ضيفى ، فتقهقر أحد كبار الضباط للخلف بدماثة خلق وأخلى لى مكانًا .

وبعد فترة وجيزة بدأ مجىء الجنود فى ممر واسع يربط القصر السلطانى بالمسجد ، وكان الجنود يقفون فى صفوف على شكل هلال ولمسافات بعيدة فيمرون من أمام القصر الملكى ، ويدخلون من بوابة المسجد الرئيسية ثم يخرجون من البوابة الثانية ، وكانت جماعات والبحرية والبرية والمدفعية ، والأتراك والأكراد والعرب يسيرون فى جماعات منفصلة ، فى خطوات منتظمة ثابتة ، ومعهم أسلحة متنوعة براقة ولامعة يمرون من أمام سلطانهم بحماس ووفاء ، كلن ذلك مشهداً عجيبًا ومثيراً ، ولا يمكن وصفه بأى طريقة ، وكانت كتيبة العرب ضمن حرس السلطان تمضى وعلى رؤوسهم عمائم ، بينما كانت العباءات الخضراء تتطاير فى الهواء فتبدو ذات بهجة ، وظل هذا الجيش يتدفق كأمواج البحر لمدة ثلاث ساعات متصلة ، وقد مر قرابة عشرة آلاف جندى ، وفى النهاية جاء ابنا السلطان ، وقد حضرا فى شكل مهيب بالملابس العسكرية عاقدين سيفهما فى خصريهما ، ومع أن عمرهما نحو عشرة أو أحد عشر عامًا إلا أن الطريقة التى كانا يمتطيان بها فرسيهما ، والجرأة والعظمة التى كانت تبدو على وجهيهما لا يمكن وصفها ، وبعد أن مر الأميران نزل السلطان من المقصورة ، وكان ضباط الجيش والباشوات يقفون فى صفوف وأنا فى معيتهم فأدينا له التحية وقد غبت عن الوعى فى أول الأمر وزاغت الأبصار ، وأردت فى

البداية أن ألتقى بالسلطان وذلك سوف يجعلنى أقدم له التحية بتضرع وخضوع شديدين ، لكنى كنت فى عالم من الذهول عن النفس حتى إن الصف بأكمله ظل فى ركوع لفترة من الوقت وأنا واقف هكذا شاخص النظر بينما كان لسانى رطباً بكلمات الدعاء ، ولم أكن أقصد ذلك قصداً ، ولكنها كانت حالة عفوية .

وبعد أن ترجل خمس خطوات ركب السلطان السيارة ، وحيّاه القادة مرة أخرى ثم غاب عن الأنظار فجأة وسط هذا المشهد العجيب.

وفى الوقت الذى نزل فيه السلطان من المقصورة متجهًا نحو السيارة كانت المسافة بين صفنا وبين السيارة أربعة أذرع ، ولهذا السبب أمكننى رؤيته بشكل جيد ، وحلية السلطان هى : قد متوسط بل يميل إلى الطول قليلاً ، الجسم ممتلىء ، الوجه بيضاوى فيه طول ، ويقطر من هيئته الوقار والرصانة، بل يعتقد أنه يفكر فى شىء ما ، والملابس كانت بسيطة أى حلة سوداء وعمامة تركية عادية .

يحتفل الأتراك بمهرجان السلاملق هذا منذ فترة ، حتى صار جزءاً من مراسم المملكة ، ولم يكن الهدف منه إظهار الجلال السلطانى والجاه فحسب ، بل إن أعظم فوائده هو عرض جزء كبير من الجيش كل أسبوع ، وهكذا فإن الجيوش التى تعسكر فى العاصمة وأطرافها تتعرض للملاحظة السلطانية عدة مرات فى السنة ، ويستطيع السلطان الحالى أن يقف على حالة الجيش واستعداده بشكل جيد ، وبالتالى تتجدد معانى الوفاء والحماس فى قلوب الجيش نحو السلطان .

وقد عدت إلى مقر إقامتى بعد رؤية هذا العرض، وقد امتلأ قلبى تأثرًا وحماساً ، وتحركت قيثارتى الشعرية تلقائياً ، وكانت الأبيات تجرى

على لسـانى ، فجلست وأمسـكت بـالورقة والقلم وقـيدت بعض الأبيات ، وراودتنى هـذه الفكرة بـأن هذه المناسـبـة ربما كـانت تفـوق يوم العـيـد ، وكتبت ما شـاهدته ، وهـكذا كانت الأشعار مناسبة للحدث .

لم يكن هـناك سلاملق يوم العـيد ، ولهذا السـبب كان عـدد الجيش أقل ، لكنه من حيث العظمـة والأبهة والجاه والجلال ، والحمـاس والتـأثير يتفـوق على « السـلاملق » قليلاً ، ويدأ مجىء الجنود فى السـاعة الثـامنة تقريبًـا ، وظلوا يتوافدون لمدة سـاعـة ونصف السـاعة ، ثم جـاءت بعدهم سيارات كثيرة خالية من الركاب ، وتـعجب الناس فما عسـاه الهـدف من ذلك ؟ وفـجـأة ظهـر من بعـيـد طـابوران من المشـاة ، واتضح أن جـمـيـع الوزراء والبـاشـوات ، وقـادة الجـيش وكـبـار المسـئولين فى الدولة جـاءوا مـتـرجلين فى جلوس السلطـان ، وكـان هـذان الطـابوران مـتـصـلان على جانبى الطريق لمسافة تمتد إلى نصف ميل ، وكانت هيئتهم وملابسـهم تعكس الجـاه والعظمـة وعلى أكتـافـهم نجـوم ذهـبيـة ، والشـارات على الأسـاور واليـاقـات والأوسـمـة الذهـبيـة والمرصـعة مـعلقة على صـدورهـم ، تنعكس عليـهـا جميعًـا أشـعة الشـمس فتضـىء الميدان بأكمله، وبعد أن انتـهى هـذا الطـابور تجلى الجمـال السلطـانى للعـالم ، وكـان السـلطـان فى مـلابس بسـيطـة للغـاية يمتطى فـرسًـا ثم جـاء فى ركـابه عـدد من كـبـار مشـاهير قـادة الجيش ، وكـان الفرس يمشى الهـوينا ومع كل خطـوه كانت ترتفع صـيحـة أطال الله عمر ملكنـا ؛ فيتردد صـداهـا فى جميـع أنحـاء الميدان .

ورجـعـت بـعـد رؤية هـذا المشـهـد فـأمـسكت بالقلـم والدواة ، فـالذى رأيتــه بنـفـسى أسـتـطـيع أن أعـرضـه علـى الآخـرين ، ولكـن للأسـف

الشديد فإن القلم عاجز تمامًا ، والمشاهد التى وصفتها كانت كلها مشاهد غير كاملة .

أخلاق الاتراك وحالتهم الاجتماعية :

مع أننى أقمت فى القسطنطينية نحو ثلاثة أشهر متصلة ، لكن جهلى باللغة التركية حال دون اختلاطى بالأتراك ، وكان محيط أصدقائى وأحبائى لا يتجاوز العرب الشوام ، ولذلك فإن معرفتى بأخلاق الأتراك وعادتهم مجملة وعابرة ، وقد تكونت لدى من خلال زيارة معظم الكليات والمدارس وبعض المصانع ومن لقاءاتى مع بعض الموظفين الرسميين فى مكاتبهم ومنازلهم ، وأحيانًا من لقاء أحدهم فى المقاهى ، وتعرفت على بعضهم فى الترام والقطار ، المهم أننى تعرفت على أخلاق الأتراك وعادتهم فى هذا النوع من الأماكن ، وما سأكتبه فى هذا الصدد مبنى على هذه الأحداث .

ومع أن وسائل معرفتى محدودة بهذا القدر ، إلا أننى فى بعض الأمور متأكد مما كتبت تمامًا ، وأن رأيى الذى بلورته حولها يعد رأيًا صائبًا بشكل قاطع ، ولا يحتمل الخطأ ، وأن أفضل ما يتحلى به الأتراك هو الضيافة والأخلاق الكريمة ، ولا شك أن الأتراك يتسمون بأخلاقهم الرحبة السمحة وكرمهم ، ولا يشوبهم شىء من الاستكبار والصلف والكبر وازدراء الآخرين ، ويتساوى فى ذلك الأغنياء والفقراء ، والعمال والرؤساء ، والشريف والوضيع ، والعالم والجاهل ، وذلك فى جميع الطبقات التى تعاملت معهم ، وكأنهم جميعًا تلاميذ مدرسة واحدة ، وتمت صياغتهم فى قالب واحد ، وهذا فيما يتعلق بضيافتهم ودماثة

خلقهم ، وكان كل من المجاهد عثمان باشا الذى كان معروفًا فى العالم بأسره فى معركة « بلونا » ، ودرويش باشا الذى نال حفيده شرف مصاهرة السلطان من هذا الصنف من الناس ، ومثلهم فى الهند كمثل الحاكم العام أو حاكم الإقليم ، وقد التقيت بهما وما لمسته فيهما من تواضع ودماثة خلق لايزال أثره فى قلبى حتى الآن .

ومن الأمور العامة لديهم أنك إذا كنت تسير فى السوق وسألت شخصًا ما عن الطريق فإنه يلتفت إليك باهتمام ومحبة ، مهما كانت مكانته الاجتماعية ، ويرشدك إلى الطريق ، وقد تصادف فى بعض الأحيان مرورى من حارات وشوارع ضيقة وملتوية ، وضللت الطريق لفترة من الوقت ، وبالصدفة ظهر أحد الأتراك فلم يكتف بأن يدلنى على الطريق فحسب ، بل اصطحبنى وأوصلنى إلى حيثما كنت أقصد ثم رجع إلى حال سبيله .

إكرام الضيف : إن الضيافة والكرم من الصفات العامة للأتراك حتى إن الناس من الطبقة الدنيا أيضًا سباقون للجود وفى غاية الكرم وهذه خصلة شائعة فيهم ، فلو أنك التقيت بشخص ما فى مطعم أو قهوة مصادفة فإن هذا الشخص سوف يتولى دفع نفقات القهوة وغيرها ، وكأن جميع الناس ضيوف لهذا الشخص وهو مضيفهم ، وقد مر بنا آنفًا ذكر متنزه « خونكر موى » وقد ذهبت للتنزه فيه ، وكنت بصحبة خوجى أفندى ، ولأن هذا المتنزه يبعد عن القسطنطينية نحو خمسة وعشرين ميلاً ، وكان معى عدد من الأصدقاء أيضًا فإن أجرة السفينة والسيارة وغيرها من النفقات والمبلغ الإجمالى دفعه خوجى أفندى ، وكان أصدقائى الشوام أنفسهم كرماء وأغنياء ، إلا أن خوجى أفندى لم يستسغ

أن يكون تحت إحسانهم ، ولم نستطع أن نصّر عليه أكثر من هذا ؛ لأن هذه عادة الناس هنا .

وذات مرة ذهبت لزيارة منزل درويش باشا ، وكان قد حضر إلى هناك عدد آخر من علية القوم وتعارف الجميع ، وامتد الحديث بينهم ردحًا من الوقت ، ولم أكن حتى ذلك الوقت قد بدأت فى استعمال الحذاء التركى ، ومن غير اللائق هنا ارتداء الحذاء الإنجليزى والدخول به إلى داخل البيت ، فخلعت الحذاء على الباب ، وكان عدم وجود حذاء فى القدمين عند الأتراك يدخل من باب عدم اللياقة ، ولهذا لاحظ الجميع ذلك ، وكان من بين الحاضرين رجل عظيم من الأعيان ومدير مدرسة ؛ فنهض فى صمت وأحضر خفًا ووضعه أمامى ، وكان هذا الرجل العظيم هو كاظم أفندى ، وهو شاب يعدونه فى زمرة الرياضيين ، عندما قدموه فى حضور السلطان وقد قال لى عند الرحيل سوف تتذكر بعدما ترجع إلى الهند أنه كان لك صديق فى القسطنطينية يدعى كاظم .

وكان لقائى بحسين حسيب أفندى - وهو من كبار الشخصيات العامة ومدير الشرطة ـ يتميز بالمودة والمحبة التى لا يمكننى وصفها ؛ حيث أصر على تقديم الطعام ، وفرّجنى على القصر والحديقة ، وأزاح الستائر وأرانى جميع الحجرات فى المكان المخصص للنساء ، وعند مغادرتى قال لى إننى ذاهب إلى « كجرى » فلنذهب سويًا ، وهكذا اصطحبنى فى سيارته ، وأخذنى معه لمسافة بعيدة ، والعجيب أن وسيلة تعارفى آنذاك لم تكن سوى أننى مسلم من الهند ، ومن المؤكد قطعًا من خلال هذا النوع من الأحداث أن أخلاق الأتراك الفاضلة أمر طبيعى تمامًا ، وهى بالنسبة لهم وسيلة التعارف ولا تحتاج إلى تزكية العزة والجاه .

الحياة الاجتماعية للأتراك : إن أسلوب الحياة الاجتماعية للاتراك محبب للغاية وجدير بالتقليد ، فالأغنياء وكبار المسئولين من ناحية ، والفقراء والبسطاء من ناحية أخرى يعيشون عيشة نظيفة منظمة ، لا نشاهد مثلها عند الأغنياء والأثرياء الكبار عندنا فى الهند، وقد زرت منازل الذين يتقاضون عشر آلاف روبية راتبًا شهريًا وبيوت الذين لا يتقاضون إلا عشرين روبية ، التفاوت الكبير بين أحوال كل منهم ، لكنهم كانوا يتساوون فى النظافة والنظام وحسن التنسيق .

وحجرة الطعام هنا على الطريقة القديمة ، لاتزال رائجة حتى الآن بين الطبقة المتوسطة ؛ حيث يعدون مصطبة طويلة بمحاذاة طول الحائط بعرض ذراعين تقريبًا ومتصلة بالحائط وتفرش بالفرش والبسط ، أما الآن فإن الكراسى والطاولات أكثر رواجًا ، ومع ذلك فإن تردد العلماء والصوفية الدائم على الأثرياء الأتراك جعل من الضرورى عليهم أن يعدوا لهم حجرة صغيرة على الطريقة القديمة ، وقد رأيت عدة حجرات على هذا النسق فى قصور عثمان باشا ودرويش باشا ، والطريقة الأوربية هى الأكثر رواجًا فى الوقت الحالى ، وقد أجرى الأتراك عليها بعض التعديلات ؛ ففى الحقيقة تعديلات جديرة بالثناء ، وفى حجرة الطعام التى فرشت بالسجاد التركى الفاخر من أولها حتى آخرها وضعت فيها « مشايات » بعرض ذراع أو ذراعين من السجاد على شكل ممر يمر عليه المترددون على الحجرة فلا يستطيعون وضع أقدامهم هنا أو هناك ، بالرغم من أن أحذية الأتراك غير ملوثة بالأتربة والأوساخ ، إلا أن السجاد بهذه الطريقة يظل نظيفًا وطاهرًا .

يتناول الأتراك الطعام على الطريقة الأوربية أى على الكراسى والطاولات ، ولاشك أن هناك فروقًا فى بعض الأمور ، وهى تحتاج إلى إصلاح من وجهة نظرى ، والطريقة المعتادة هى جلوس جميع الناس على

الكراسى حول المائدة ، ومن ثم يأتى الخادم ويضع أمام كل فرد طبقًا فارغًا ، وتتوالى بعده أطباق الطعام المختلفة وتُوضع فى وسط المائدة ، ويأكل جميع الناس من طبق واحد ، وتوجد الشوك والسكاكين ، ولكن أكثر الناس يتناولون الطعام بأيديهم ، وقد تناولت الطعام عند درويش باشا وحسين أفندى مدير الشرطة ، وكان معنا على المائدة أحمد باشا بن درويش باشا ، وهو والد زوجة السلطان المعظم ، فكان يأكل بهذه الطريقة ، ويذكر الناس أنهم أقلعوا عن هذه الطريقة الآن ، وأن المثقفين فى الوقت الحاضر يتناولون الطعام على الطريقة الأوربية تمامًا .

وعلى عكس العادة المعمول بها فى الهند فإن أبواب المنازل تظل مغلقة دائمًا ، وبالداخل يوجد « ترباس » يغلق تلقائيًا أثناء إغلاق الباب ، وتوجد حلقة فى الناحية الخارجية من الباب ، وعندما يذهب شخص ما للقاء أحد فإنه يدق الباب بالحلقة فيفتح صاحب المنزل أو الخادم بمجرد سماع صوت الطرق ، ويوجد عند الأغنياء جرس مثبت على الجانب الخارجى للباب ويدق الجرس بالداخل بمجرد الضغط عليه فيعرف الخادم ، وهذه الطريقة معروفة جدًا حتى إن أبواب الفقراء هنا لا تظل مفتوحة ، ومع أن هذه الطريقة كانت قد اُختيرت فى الأصل للمحافظة عليهم من البرد ، لكن نشأ عنها تلقائيًا منهج حضارى فى الحياة الاجتماعية ، وبذلك يعمل كل فرد بقول الله تعالى : « لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » .

وملابس الأتراك كما ذكرت سابقًا أوربية خالصة ، لكنهم بلا شك طوروا شيئًا ما فى الحذاء ، وهو فى الحقيقة جدير بالمدح ، وهذا الحذاء يجمع بين الجورب الجلدى و (الشبشب) ، والجورب على هيئته حذاء كامل ، ولكن بدون رقبة ومثبت من (سوستة) عند رقبته من

داخل الخف ، وعندما ترتديها بعد ارتداء الجورب فإن الجورب يدلف فيها ، ويصبح كلاهما مثل حذاء خاص ، يلبسونه ويتجولون به في الأسواق ، لكنهم يخلعون الخف (النعل) على السجاد ، ويبقون على الجورب فقط لأنه خالٍ من الأتربة ، وبالتالى لا يترك أثرًا على السجاد .

وطريقة الزيارات واللقاءات عندهم محببة ومهذبة للغاية ، فما أن تذهب للقاء أحد ما ، وتطرق الباب حتى يأتيك الخادم فى نفس اللحظة ويفتح الباب ، وفى البيت حجرة خاصة يتم فرشها بالسجاد لهذا الغرض فيُجلسك الخادم فيها ، ويقدم لك الشاى أو القهوة ثم يخبر صاحب البيت بعد ذلك ، وهو جالس فى حجرة الاستقبال فيستدعيك إلى هناك ، وهذه بعينها هى الطريقة المتبعة عند لقاء كبار المسئولين ؛ فلا يتم الانتظار طويلاً والبقاء فى شرفة خارج سور البيت مثلما يفعل الإنجليز .

وطريقتهم فى السلام والتحية عجيبة ، فهم يضعون أيديهم أولاً على الصدر ثم الشفاه ثم على الجبهة ، وليس من الضرورى أن تلمس باليد هذه الأعضاء ، بل يكفى أن تكون بالمحاذاة ، ومع أن السلام بهذه الطريقة تجتاز فيه اليد ثلاث مراحل ، لكنهم بسبب تعودهم يطوون هذه المراحل الثلاث بسرعة بحيث لا يستغرق السلام وقتا طويلاً ، والفائدة من هذا الاختراع هو ألا يحنوا هاماتهم . وفى نفس الوقت لا يتخلوا عن آداب التحية الآسيوية، أما طريقة السلام فى المجالس فهى أكثر تكلفًا أى بعد الجلوس يخاطب كل شخص من الحاضرين على حدة ويسلم عليه ، وهم فى ذلك يشبهون تمامًا طريقة التحية فى لكنهو ، وليس معروفًا من ذا الذى علّم الأتراك التكلف اللكهنوى[١] .

(١) اشتهر عن أهل لكهنو فى الهند الإغراق فى التأدب والتكلف فيه (المترجم) .

وأعظم ما فى هذه الحياة الاجتماعية للأتراك هو أنه ليس فيهم - رغم هذه النظافة وحسن التنظيم - شىء من التكلف لدرجة أن كبار الأمراء والوزراء عندما يخرجون إلى السوق يخرجون فى ملابس عادية ، وقد رأيت موكب رئيس الوزراء عدة مرات ، ولا يصحبه فيه سوى فارسين أو ثلاثة فرسان ، ولم يزد عدد المصاحبين لعلى رضا باشا القائد العام للجيش عن خمسة فرسان ، ولديهم بساطة فى جميع أمورهم الاجتماعية داخل بيوتهم ، إن عثمان باشا ودرويش باشا وذكى باشا - وهم أناس ذو مكانه كبيرة - كان يجب ألا تكون منازلهم أقل من قصور « فكانما » و« بشير باغ » فى حيدر آباد ، لكنها لا تعادل حتى قصر « مولوى مهدى على » عندنا فى الهند ، وليس عندهم خدم وحشم بكثرة مثل ما لدى الأمراء عندنا ، والحقيقة أن فخر الأتراك بهذا الأمر فى موضعه ، وأقصد أنهم لم يتخلوا عن الجندية، وظلوا فى كنف الخلافة لمدة ستمائة عام فى حين أن دول مثل الدولة العباسية والفاطمية والدولة الأموية فى الأندلس والدولة التيمورية[1] حكموا لمدة تتراوح بين مائة أو مائتى عام .

تعليم المرأة ولباسها : من أكبر الفضائل الجديرة بالذكر فى حضارة الأتراك ، والتى ينبغى أن يُقلدوا فيها مسألة تعليم المرأة وتربيتها ووضعها الاجتماعى ؛ فهذه المسائلة عند اثنين من أكبر الشعوب فى العالم أهما الأوربيون والآسيويون - إفراط وتفريط - وهما على طرفى النقيض فى هذه القضية ، ولهذا السبب فإن كلا الحالتين جديرة

(١) يقصد الدولة المغولية فى الهند التى أسسها بابر (المترجم) .

بالنقد ، لكن الأتراك انتهجوا منهجًا معتدلاً جامعًا بين محاسنهما ، وبعيداً عن مثالبهما ، فالنساء التركيات مثقفات لكن لم يتعلمن الوقاحة والخلاعة والاستهتار والحرية الفوضوية والرقص (وأيضًا مع رجال أجانب) وهن ملتزمات بالحجاب ، ولكن لسن أسيرات فى البيوت ، يجهلن ما فى العالم ، ولسن كالإنسان الحيوان ، وهناك مدارس حكومية وأهلية كثيرة لتعليم البنات مع العناية التامة بالحجاب والحشمة ولا يتردد الشرفاء قط فى إرسال بناتهم إليها ، وتدرس فيها اللغة الفرنسية إلى جانب المواد العلمية ، وبعض المدارس تعلم الموسيقى ، وهناك مدرسة خاصة لتعليم المدرسات ، ومديرتها السيدة رفيقة ، سيدة مثقفة ثقافة عالية ، وقد نالت وسام من الدرجة الثانية فى حضور السلطان ، وتوجد مدرسة عالية من بين المدارس الصناعية يطلق عليه اسم « كلية » ومديرها عزيز أفندى ، وملحق بهذه المدرسة دار للإقامة أيضًا ، ومديرتها سيدة فرنسية هى السيدة هانلى ، والمسئول عن الإسكان أحد الأتراك المثقفين واسمه حسن أفندى ، ولديهم مدرسة صناعية كبرى أخرى ، والمعلمة الأولى فيها هى السيدة خيرية .

وعن طريق هذه المدارس انتشر التعليم إلى الحد الذى يصعب معه أن تجد امرأة فى العصر الحالى لم تنل قسطًا مناسبًا من التعليم ، وكثير من النساء يكتبن المقالات ، وتنشر مقالاتهن فى الصحف الشهيرة ؛ فالسيدة فاطمة بنت جودت باشا مؤلفة مشهورة ، وقد نشر لها فى الوقت الحاضر رواية رائعة بعنوان : « نساء الإسلام »[1] ، وله ترجمة عربية نشرت فى بيروت ومثلها كاتبات أخريات .

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الأردية ، ويطبع الآن فى مطبعة « محمدن بريس » فى على كره (المؤلف) .

وقد نالت النساء هنا الحرية الكاملة فى التجول والتنزه ، فجميع طبقات النساء يخرجن إلى السوق ، ويذهبن إلى المتنزهات ، ويشاركن فى المجالس العلمية ومجالس الدعوة ، ولكن بالرغم من وجود هذه الحرية فإنهن لا يتجاوزن دائرة الحشمة والتحفظ قيد أنملة ، وفى كل الاجتماعات يظل تجمع النساء بمعزل عن الرجال ، ولا تستطيع أى امرأة - عدا حالات خاصة - التحدث مع رجل أجنبى .

وملابس النساء هنا أوربية كاملة ، ولكن عندما يخرجن يرتدين ملابس حريرية فضفاضة واسعة من الرقبة حتى القدمين ، وهو البرقع الذى يغطى الجسم من أعلى إلى أسفل ، وبذلك لايظهر منهن إلا الوجه ، فلا تبدو ملامح أجسادهن ، وعلى رأسهن غطاء ، وغطاء الوجه يخفى وجههن إلى ما بعد الأنف بقليل ، ويكشفن مساحة صغيرة تحت العينين إلى جانب العينين وجزءاً من الأنف ، وهذا الغطاء الرقيق شفاف بحيث يمكن لأى شخص أن يرى العينين عن قرب ، ويعرف لون البشرة ، ولكن من يستطيع أن يكون بهذه الجرأة والوقاحة .

كنت جالساً ذات مرة فى مكتبة عاشر أفندى فإذا بأحد الأتراك قد قدم أيضاً ، وكانت يعرفنى جيداً ، وكانت هناك بالصدفة فتاتان إحداهن متزوجة وقد جاءتا للقائه فقدمهما لى ، فوقفت هاتان الفتاتان العفيفتان أمامى بخجل ورزانة واحترام ، فبدا لى أنهن ليستا بفتاتين ، بل هما حوريتان عفيفتان طاهرتان .

هنــود فى القسطنطينية

ربما لا يخطر على بال أحد فى الهند أن السادة الهنود يمكن أن يحضروا إلى القسطنطينية ، ولم أكن أنا نفسى أعتقد هذا الاعتقاد ،

وتعد الزاوية (التكية) الهندية التى ذكرتها آنفًا المقر الدائم للهنود حيث يتجمع هناك معظم الهنود ، لكنهم عمومًا يحترفون التسول فيما عدا ثلاثة أو أربعة أفراد يقيمون فى بيوت مستقلة وحالتهم ووضعهم ليس بالسيئ ، وأذكر هنا أسماءهم وأحوالهم بشكل مختصر .

١- نصرت على خان ، هذا السيد يطلق على نفسه لقب الدهلوى ، وكان يصدر إحدى الصحف فى القسطنطينية ، ولأن موضوعاتها كانت معارضة للحكومة الإنجليزية وشى بها سفير إنجلترا ، وأغلقت الصحيفة ، وهو الآن موظف فى إدارة التعليم ، ويتلقى راتبًا شهريًا قدرة مائة وخمسون روبية ، وقد تزوج من سيدة تركية وله منها بنتان صغيرتان ، وبشرته سوداء لكن بشرة ابنتيه تميل إلى اللون الأبيض .

٢ - مرزا محمد بيك ، هذا الرجل من سكان أوده ، وكان ضابطًا كبيرًا فى الجيش الملكى ، وكان قد رحل إلى مكة المكرمة قبل الثورة الهندية ، وهو الآن مقيم فى القسطنطينية منذ نحو عشر أو خمس عشرة سنة ، وقد قرر له السلطان راتبًا شهريًا قدره مائة وخمسون روبية وهو رجل شريف الطبع ، حسن الخلق .

٣ - حسن على آفندى ، وهو ابن عم بدر الدين طيب جى رجل القانون الذى يسكن فى بومباى ، كان يتاجر فى البضائع الهندية ، وازدهرت تجارته ازدهارًا كبيرًا فى بادئ الأمر ، فكان يدفع ثمانمائة شهريًا إيجارًا للدكان فقط علاوة على النفقات الأخرى ، والآن لم يعد لهذه البضائع قيمة بعد أن تغيرت الموضات ، فتدهورت تجارته ، ومع ذلك ، يعيش فى رغد من العيش ، ويعد من الأغنياء إذا ما قارنًا منزله بمنازل القسطنطينية وقد ألحق بمنزله حديقة أيضًا وجميع الناس

هنا يحترمونه ، ونال ميدالية من السلطان كذلك ، يتقن الإنجليزية ، وهو رجل دمث الأخلاق ، وكريم ، ومتقد الضمير ، وجميل الطباع ، له ألفة ومحبة عجيبة مع الهنود ، وقد كان حب الوطن وسيلة للتعارف بينى وبينه ، ذات مرة كنت أتجول فى السوق فمررت من أمام ذلك الآفندى المذكور فما أن رآنى حتى هب من فوره وسألنى : « ألست هنديًا » ، وكانت ملابسى فى ذلك الوقت ملابس عربية ، فمن العجيب أننى فى إجابتى نطقت بكلمة « نعم » بدلاً من « هاى » تلقائيًا ، فكيف لى أن أخفى كونى هنديًا ؟ فتعلق بعنقى وقال : « أنت بغيتنا فأين كنت تتوارى عنا » ، وكان يحضر كثيرًا إلى بيتى مادمت هناك ، ودعانى عدة مرات واصطحبنى إلى بيته . ولست أعلم هل إكرام الضيف صفة متأصلة فى طبعه أم هى من أثر البيئة فى القسطنطينية خاصة ، وعنوانه هو : حاجى حسن على آفندى الهندى ، مجوهر بدستاذه ـ القسطنطينية ، والهدف من ذكر عنوانه هو لو أن أحداً قصد القسطنطينية فمن الضرورى أن يلتقى به لن يندم على لقائه .

أصدقاء القسطنطينية

لعله من الجحود الشديد أن أختم قصة القسطنطينية الرائعة ، دون ذكر أصدقائى الأعزاء بها ، الذين كانوا لى نعم الصديق الوفى فى الأيام القليلة التى أقمت بينهم ، وقد ظلوا مرافقين ومصاحبين لى فى الخلوة والجلوة وفيما عدا الشيخ عبد الفتاح والشيخ على ظبيان الذى سبق ذكرهما من قبل وسوف أذكر أسماء باقى الأصدقاء وأحوالهم باختصار .

١- فؤاد بك : هو طالب ممتاز فى الكلية الملكية ، وهو من مدينة حصَباية قرب دمشق حيث تقطن بها أسرة من نسل خالد بن الوليد رضى الله عنه ، وهم أناس أثرياء إلى جانب أن لهم نفوذاً فى حكمها ، ولذلك فإن الحاكم الذى يُعين على تلك الأقاليم حتى الآن من قبل الحكومة التركية يُختار من تلك الأسرة ، وكانت علاقتى بفؤاد قد وصلت إلى حد الصداقة الوثيقة ، وكان له أخ يدعى سامى بك قد قدم إلى القسطنطينية فى تلك الأيام ، وقد اصطحبته إلى البيت الذى استأجرته حيث أقام فى إحدى حجراته ، وكان يستعد للالتحاق بكلية الحقوق ، وكان امتحان المنطق ضمن امتحان القبول فطلب منى أن أشرح له جميع قضايا المنطق بشكل مختصر ، ومع أننى كنت فى أوقات حرجة فإننى قمت من أجله هو وثلاثة من الطلاب معه بشرح المنطق لهم ، ومن حسن الحظ أن هؤلاء الطلاب نجحوا فى امتحان القبول ، وهكذا قويت أواصر الصداقة والمحبة بيننا ، فكنا كل ليلة نحن الثلاثة أو الأربعة نجلس سوياً على القهوة التى على حافة البحر ، ونستمتع بتلك الصُحبة ، وأحياناً كنا نؤجر مركباً بعد المغرب ونتنزه به فى البحر ، وكان فؤاد يغنى ، والعجيب أنه كان يغنى أغانى عربية ، وذات يوم طلب منى أن أسمعه شيئا من الغناء الهندى ، فقلت له : يا أخى أنا رجل دين وليس لى علاقة بالغناء ، لكنه لم يقتنع ، وفى النهاية اضطررت إلى أن أقرأ عليه بصوت عذب بيتين من الشعر الأردى ، وقلت له إنهم يغنون هكذا فى اللغة الهندية .

٢ - عبد السلام آفندى ، وهو من أسرة مشهورة من سادات بيت المقدس ، وعضو بارز فيها ، ومفتى القدس الذى سيأتى ذكره لاحقاً من

هذه الأسرة ، وكان من قبل حاكمًا عسكريًا عامًا ثم عُزل لسبب ما ، ولهذا جاء إلى هنا ، وكان رجلا متوقد الذهن ، ومثقفًا ، ومؤهلاً للغاية ، وقد بقينا أنا وهو فى بيت واحد فترة من الوقت ، لهذا السبب تعارفنا جيداً ، وكنا نتباحث ونتناقش فى كثير من البحوث العلمية ، وكان دارساً للفلسفة الحديثة ومؤيداً لها ، ويرى أن القرآن الكريم لا يعارض أى قضية من قضايا الفلسفة الحديثة ، وقد تناقشنا كثيراً حول هذه المسألة ، وأنا مدين له بالكثير لعاطفته الإسلامية وإكرامه للمسافرين ، وقد واجهت مشكلة ما فكانت مواساته لى مثاراً للإعجاب ، وسوف أذكرها فى المكان المناسب .

٣ – خواجه آفندى ، رجل ذو مكانه رفيعة ، متزوج من ابنة أخ درويش باشا ، يتحدث الفارسية بتكلف وهو إنسان متواضع ذو أخلاق حسنة ، كان دائمًا يُعد الشاى بيده ويسقينى ، وذات يوم حضر إلى بيتى وجلس مدة طويلة ، كان هو الذى اصطحبنى للتنزه فى « خونكرموى » .

٤ – ملا محمد آفندى ، من سكان الموصل ، درس *اللغة العربية* بقدر الحاجة ، ويمكنه التحدث باللغة الفارسية بشكل جيد ، ولم يكن له أى وسيلة للعيش ، فاضطر أن يقيم فى إحدى *التكايا* ، وكان يعيش فى فقر وفاقه ، ورغم ذلك كان غيوراً ولديه حمية كبيرة ، وعندما أردت تعلم *اللغة* التركية ذكر لى أحد الأصدقاء اسمه ، ولم أكن حتى ذلك الوقت قد تعرفت عليه قط ، ولهذا فإننى رغبت فى تقرير راتب شهرى له ، وكنت أعطيه له فى الخفاء ، لكن عندما تبين له أننى جئت إلى هنا للبحث العلمى فقط رفض أخذ المقابل ، وظل يدرس لى مجانًا ، وكان كثيراً ما يأتى إلى بيتى ليدرس لى والقليل الذى تعلمته من اللغة التركية قد علمنى إياه ، وللأسف لم يظل محفوظًا فى ذاكرتى .

لقاء المجاهد عثمان باشا ومنحى الوسام المجيدى من الدرجة الرابعة

المجاهد عثمان باشا هو ذلك القائد الشهير الذى قتل ثمانية آلاف روسى وجرح منهم عشرين ألفًا فى موقعة « بلونا » ، والذى فقد ملك الروس فى نزاله جيشه عن بكرة أبيه ، وكان هو نفسه قائدًا للجيش : حارب الروس بكامل قواتهم بالرغم من قلة جيشه ، وقلة المؤن وقد جُرح فى ميدان القتال ، ثم أسر وقام ملك الروس بوضع السيف فى خصره بنفسه واستضافه لعدة شهور ، هذه الأحداث معروفة فى جميع أنحاء الهند آنذاك عن طريق الصُحف ، وكان الأطفال يعرفون اسم هذا البطل الشهير ، ومع أننى لم ألتق فى القسطنطينية بأى قائد جيش ولم أرغب فى لقاء أحد ، لكن كان من غير الممكن ألا يكون فى قلبى شوق لرؤية وحيد زمانه المجاهد عثمان باشا .

ومع أن الباشا المذكور إنسان بهذه المكانة والمنزلة التى لا يدانيه فيها ولا يساويه أحد فى تركيا ، من هنا كان من الممكن أن يتضاءل أملى فى الوصول إليه ، إلا أن حرارة الشوق جعلتنى أصطحب مترجمًا وأذهب إلى منزله ، ضغطت على الجرس فانفتح الباب وسمح لى البواب بالدخول ، وجلست فى حجرة المقابلات طبقًا للعادة ، وكان قد حضر إلى منزله أحد المسئولين الأتراك ، وأكرمنى إكرامًا بالغًا ، وقدم لى القهوة بعد السؤال عن أحوالى ، وبعد فتره وجيزة أخبرنى أن الباشا كان فى جناح الحريم ، وأنه سيأتى بعد قليل ، وبعد عشر دقائق تقريبًا جاء موظف وأخذنى إلى الحجرة العلوية ، وكانت حجرة جميلة منسقة

فجلست هناك ، وبعد وقت قصير حضر الباشا المذكور ، وكان السيد الذى أحضرته معى للترجمة موظفًا فى إدارة التعليم فتقدم طبقًا للعادة وقّبل طرف ذيل الباشا ثم تقهقر إلى الخلف بأدب ، وسلمت عليه طبقًا للسنة ورد الباشا السلام ، ومد يده لمصافحتى ، وبعد السؤال عن أحوالى سألنى عن اسمى وموطنى ؛ فقال المترجم إنه « من علماء الهند وحضر إلى هنا بهدف البحث العلمى » ، وبعد أن سمع هذا أبدى اهتماماً ومودة عظيمة ، وظل وقتًا طويلاً يسألنى عن وضع المسلمين فى الهند ، ونهضت بعد أن استأذنت فنهض هو أيضًا ، وقال سيكون من دواعى سرورى لو زرتنى مرة أخرى .

والباشا المذكور قصير القامة ، عريض الجسم ، أبيض اللون وضّاء ، تقطر الشجاعة من وجهه يتراوح عمره ما بين الستين والسبعين ، ولكن لا يبدو عليه أثر الكبر قط ، ويعرف اللغة الفارسية بقدر الحاجة ، ولأنه ظل عاملاً على اليمن لفترة من الوقت فإنه يستطيع أن يتحدث اللغة العربية بلا صعوبة، وبعد معركة « بلونا » نصبه السلطان وزيراً للحربية وقائداً للجيش ، ولكنه بسبب هذه المسئولية لم يكن يستطيع المجىء باستمرار إلى مجلس السلطان لذلك عين السلطان فؤاد باشا فى هذا المنصب ، وأسند إليه وظيفة الاتصال بينه وبين الباشا ، ولهذا السبب كان غالبًا ما يحضر فى خدمة السلطان ، ولا يعتمد السلطان على أى مسئول أو أى صديق وقريب أكثر مما يعتمد على عثمان باشا ، ولهذا السبب لا يبعده عن جواره حتى إن السلطان حينما يأتى إلى المسجد لصلاة الجمعة والعيد لا يجلس أحد فى السيارة بجواره إلا عثمان باشا .

ذهبت لزيارته مرة ثانية ، وكان جالسًا فى الحجرة قبل مجيئى فدخلت عليه فنهض من على الكرسى ، وتقدم خطوتان نحوى ،

وصافحني كما فعل في الزيارة الأولى ، وكنت إذا لقيته بعد ذلك ألاقيه بنفس هذه الطريقة ، لقد أكرمني هذا الباشا كثيراً ، وعندما اقترب موعد رحيلي قلت له أنا الآن ضيف هنا لبضعة أيام ، فقال لي قابلني قبل السفر بيوم أو يومين ، وفي هذه الفترة طلب من السلطان منحي الوسام المجيدي ، فوافق السلطان على ذلك ، ولم يكن لدي خبر بذلك ، وكنت ذات يوم نائماً في بيتي في القيلولة فجاءني أحد الأصدقاء مهرولاً فأيقظني وقال لي : « يا شبلي والله لقد طلع لك النيشان » [1] فتعجبت من ذلك وقلت : من أين لك هذا ؟ قال : قد نشرت ذلك جميع الصحف ، فنهضت في ذلك الوقت ، واتجهت إلى حجرة القراءة ، وطالعت الصحف ، فكان هذا الخبر صحيحًا ، وجاءتني في ذلك الوقت فكرة أنني من الرعايا الإنجليز ، ولهذا السبب يجب عليّ أن أُخبر السفير الإنجليزي بذلك ، وفي اليوم الثاني ذهبت إلى السفير ، ولكنه مصادفة لم يكن في السفارة ، فتركت بطاقة التعارف الخاصة بي ، وفي اليوم التالي جاءني جميع الأصدقاء ليباركوا لي ، وكنت قد أعددت العدة للدعوة إلى اجتماع مصغر ، وشارك في هذا الاجتماع كل من الشيخ علي ظبيان ، وعبد السلام آفندي ، وفؤاد وسامي وشريف وباقي الأصدقاء ، وفي صباح يوم الدعوة ذهبت إلى عثمان باشا للقاء الوداع ، وكان خبر الوسام قد انتشر في كل مكان ، وما أن وصلت إلى منزل الباشا المذكور حتى قال لي الحارس أولاً وقبل كل شيء « مبارك الوسام المجيدي » فاندهشت وكيف علم بالخبر ؟ وعلمت أن خدم الأمراء والباشوات هنا مثقفون

(١) وردت هذه العبارة باللغة العربية في الأصل (المترجم) .

عمومًا ، ويقرأون الصحف فى الأوقات المناسبة ، وعند لقائى بالباشا بارك لى على الوسام ووضعه أمامى على المنضدة ثم أخرجه من الصندوق ثم وضعه على عينية أولاً (الأتراك يقدسون أقل شيء من قبل السلطان إلى هذا الحد من التعظيم) ثم سلمه لى ، فانتفضت واقفًا ودعوت للسلطان وبعد فترة وجيزة نهضت بغرض الاستئذان ؛ فقال لى عثمان باشا تفضل بالجلوس قليلاً ، وبعد أن قال هذا طلب القهوة مرة ثانية ، وتجاذبنا أطراف الحديث هنا وهناك ، وفى النهاية قال لى أشكرك على حضورك ، وأثناء المشى قال : بعد أن تصل إلى الهند بَلّغ سلامى إلى جميع المسلمين ، وخاصة العلماء والفضلاء ، وقل لهم إن عثمان يُكن لكم محبة قلبية ، فشكرته بحماس وإخلاص عظيمين ، وقد أهدى لى الباشا المذكور صورة له وكتب عليها هذه الكلمات بخط يده « أهديت صورتى هذه إلى شبلى النعمانى فى محرم الحرام ١٣١٠ هـ » وهذه الصورة موجودة عندى الآن ، وأعتبرها علامة فخر وكرامة عظيمة ، وسوف يتذكرها أحفادى وأسرتى إلى الأبد ، ومنحنى المرسوم التالى مع الوسام : « نرى أن شبلى النعمانى أفندى المعلم الأول بدار المعلمين بعلى كره فى الهند يستحق التشريفات السلطانية ، ولهذا أصدر المرسوم بمنحه الوسام المجيدى من الدرجة الرابعة ، وأصدر هذا المرسوم العالى كشهادة له فى ١٤ محرم الحرام سنه ١٣١٠ هـ » .

ومن الصدف العجيبة أننى لم أستعمل هذا الوسام فى أى مكان فى القسطنطينية وبيروت ومصر مطلقًا، وبعد أن وصلت إلى الهند فكرت فى الحصول على تصريح من الحكومة لأستعمله ، وبناء على هذا توسط السيد هاريس حاكم على كره للحصول على الإذن من الحكومة عن طريق خطاب رسمى ، فجاءه الرد من هناك على الطلب المؤرخ بتاريخ

٢مايو ١٨٨٦م هكذا : « إن الحكومة الإنجليزية لا يمكن أن تسمح لأحد رعاياها بقبول أو استعمال أى نيشان أو وسام لأى دولة أخرى ، ما لم يحصل هذا السيد على تصريح من مكة المكرمة » ، ولم أستعمل هذا الوسام تطبيقًا لهذا الحكم .

مغادرة القسطنطينية فى ٢٦ محرم ١٣٠٩ هـ[1]

أقمت فى القسطنطينية ثلاثة شهور كاملة حتى سئمت نفسى أخيراً لدرجة أننى لم أستطع انتظار الاحتفال بجلوس السلطان على العرش ، ويحتفلون به احتفالاً مهيبًا ، وهو احتفال ليلة جلوس السلطان على العرش، وتوافق الليلة الثامنة من شهر صفر كل عام ، حيث تُضاء المدينة كلها بالمصابيح ، ويضىء جميع سكان المدينة بيوتهم باهتمام وتكلف هائل ، ولأن هذه الطريقة دليل على حب السلطان والإخلاص له فإن الأمراء والباشوات يهتمون بذلك أكثر من هذا الحد ، لقد قال لى الشيخ على ظبيان إن منزل درويش باشا كان قد أُضئ فى العام الماضى بأربعة عشر ألف من المصابيح الشمعية ، ويقدر عدد المنازل فى الشارع تكتب هذه العبارة بحروف من نور على تلك الأبواب وهى « باد شاه هم جوق يشا » أى « ليعيش ملكنا طويلاً » ، ولم تكن هذه الطريقة قاصرة على المسلمين ، بل إن الفرنسيين والألمان والإنجليز والأمم الأوربية الأخرى المقيمة هنا أو الذين جاءوا للتهنئة يكتبون على أبواب بيوتهم هذه العبارة بأحرف من نور .

(١) الصحيح سنة ١٣١٠ هـ ، وهذا خطأ مطبعى فى الأصل الأردى (المترجم) .

وللأسف الشديد فإننى لم أتمكن من رؤية هذا المشهد الحماسى الرائع ، وكانت هناك عدة أسباب اجتمعت علىّ إلى جانب اعتلال صحتى ؛ لذا كان من المستحيل الاقامة أكثر من ذلك ، كما قال لى الناس إن هذا الاحتفال يتم فى جميع أنحاء الدولة التركية فأينما ستتوجه تستطيع أن تشاهد هذا الاحتفال ، لكن على ما يبدو فإن هذا الاهتمام والأبهة والعظمة الموجودة فى دار الخلافة لا يمكن أن يكون لها مثيل فى أماكن أخرى ، ومن المفارقة أنه – لسوء حظى – لم يكن لى نصيب من رؤية هذا الاحتفال العادى أيضًا ؛ لأننى كنت فى هذا التاريخ فى عالم البحار أى كنت على ظهر السفينة ، وبعيداً عن اليابسة .

أذكر أننى عندما قدمت إلى القسطنطينية كنت وحيداً ، لكن عند العودة كنت ضمن جماعة من الأصدقاء ، كما أن جميع الأحباب أتوا معى حتى الميناء ، وعند الوداع كانوا يعانقوننى بحرارة شديدة ، ويعدوننى إلى جانب كلمات الدعاء باستمرار أواصر الصداقة والمراسلة .

وعندما وصلت إلى الباخرة كان حسن الهندى موجوداً هناك فى انتظارى منذ البداية ، وقد سعدت أيما سعادة بلقائه ، وقد أخذنا نتجاذب أطراف الحديث بحب وود لفترة من الوقت ، وأبحرت الباخرة قرب المغرب ، وكان الشيخ على ظبيان رفيقى وأنيسى فى هذه الرحلة ؛ إذ كان عائدا إلى وطنه دمشق على هذه الباخرة ، وقد وصلت الباخرة إلى بيروت بعد أن مرت على رودس وسمرنا وقبرص ، وذات يوم وقعت على الباخرة أحداث مؤسفة وتمرد عجيب ، حيث يوجد فى قبرص مدينتان هما لرناكة ولمونة ، وتتوقف الباخرة فى كلا المدينتين ، وكان من بين الركاب الذين ركبوا الباخرة فى لرناكة أحد أعيان قبرص ، ولأنه كان

ذاهباً إلى مدينة لمونة فقط ، لذا جلس بالقرب من فراش صديقنا الشيخ على ظبيان على سطح الدرجة الثالثة ، وكان الشيخ المذكور رجلاً عصبى المزاج رغم فضله وعلمه ، وقد وضع هذا الثرى شيئًا ما على فراشه فغضب لهذا الأمر غضبة مضرية ، ولأنه عجوز ضعيف فقد لاذ بالصمت المطبق ، إلا أن خادمه - وكان يبدو من هيئته - أنه قوى لم يستطع أن يتمالك نفسه ، فاحتدم النقاش لدرجة أن ركاب الباخرة - وكان أكثرهم من عرب الشام - تجمعوا من كل مكان وازداد صديقنا حدة ويأسًا معتمداً على العرب ، فقال له الخادم لماذا تغضب ؟ نحن لسنا من رعاياك ، إن مدينتنا تحت الحكم الإنجليزى .

وبمجرد خروج الكلمات من فمه غضب جميع العرب ، وأمسكه أحد العرب من مئزره ورفعه قائلاً : « أيها الوغد سوف ألقى بك فى البحر » ، وبسبب التجمع والتجمهر حدث تشابك ، وحاول بعض الناس أن يمنعوه ، وبالرغم من ذلك تغلب على الناس الذين حاولوا منعه ووصل إلى حافة الباخرة وألقى بذلك الرجل فى البحر ، وقد حاول بعض الناس آنذاك أن يخلصوا الخادم من براثنه ، وأشاروا إلى هذا التعس أن يختفى فى إحدى زوايا الباخرة ، وظل جميع العرب فى هياج وثورة ويتلفظون بكلمات غير مناسبة فى حق الحكومة الإنجليزية ، وقد تعجبت لأن قبطان الباخرة كان يشاهد ما يحدث بعينيه ولم يتدخل قط .

وصلت باخرتنا إلى بيروت فى اليوم السابع ، ونزل الشيخ على ظبيان من الباخرة ، ونزلت أنا أيضًا معه ناويًا أن أرجع عندما تبحر الباخرة ، وبعدما وصلت إلى المدينة عرفت أن الشيخ طاهر المغربى موجود فى بيروت هذه الأيام بالصدفة ، والشيخ المذكور مدرس فى

دمشق ، ولعلمه وفضله شهرة عريضة فى تلك النواحى ، وقد سمعت بأوصافه هذه فى القسطنطينية ، فقال الشيخ على ظبيان إنك لن تأتى إلى هذه البلاد مرة أخرى فيجب عليك ألا تترك فرصة لقاء الشيخ طاهر ، المهم أننى نزولاً على نصيحته أنزلت حقائبى من الباخرة ، وأقمت فى بيروت مدة أسبوع ؛ لأن هذه المدينة هى مركز إقليم دمشق ، ويُعتقد أنها مركز للحضارة والتمدن فى أقاليم الشام ، لهذا سوف أذكر أحوالها هنا بقدر من التفصيل .

بيـــروت

بيروت مدينة قديمة جداً ، لم يستطع المؤرخون تحديد زمان تأسيسها بدقة ، لكنهم يتفقون على وجودها قبل ميلاد عيسى عليه السلام ، وعندما جلس إسكندر سفيروس على كرسى الحكم فى روما الكبرى عام ٢٢٢ميلادية أسس بها جامعة كبيرة جداً لتعليم الحقوق ، وقد ظلت ذائعة الصيت لقرون عديدة حتى استولى عليها المسلمون سنة ١٣ هـ ، لكنها فى العصور التالية خرجت عدة مرات من أيدى المسلمين إلى أيدى النصارى حتى فتحها السلطان سليم الأول عام ١٥٧١ م ، وظلت منذ ذلك الحين وحتى الآن تحت حكم الأتراك .

ويرجع بداية لنهضتها الحديثة إلى عام ١٨٤٢ م ، ولا تزال التجارة والعمارة فى ازدياد مستمر منذ ذلك الوقت وحتى الآن ، وكان عدد سكانها أربعين ألفًا قبل عشرين عامًا ، وبلغ سبعين ألفًا سنة ١٨٧٥م ، وقد وصل الآن إلى مائة وسبعة آلاف وأربعمائة (١٠٧,٤٠٠) نسمة ، منهم ثلاثة وثلاثون ألف مسلم ، والبقية من النصارى مع وجود بعض اليهود والدروز ، والجزء القديم من المدينة فى حالة سيئة جدا ؛ فالشوارع

والطرقات ضيقة وغير ممهدة ، والبيوت منخفضة وغير فسيحة ، ولكن الجزء الحديث منها غاية فى الجمال والبهاء ، وفيه فنادق واستراحات ومقاه كثيرة ، وهناك مقهى فى وسط البحر فى موقع جميل .

واللغة هنا هى اللغة العربية عمومًا ، فالنصارى واليهود وغيرهم جميعًا يتحدثون اللغة العربية ، وكذلك الملابس والمظهر ، ويعد هذا أفضل محاسنها ، ولا تحاك الحلة بأقل من عشرة أو أحد عشر متراً ، والمسلمون والنصارى والدروز جميعًا يرتدون هذه الملابس ، وبدأت الطبقة المثقفة ترتدى الزى الإنجليزى (الجاكت والبنطلون) ، والجو رائع وطيب ومشهور بأنه مفيد جداً للصحة ، ويوجد هنا أماكن عديدة يأتى إليها الناس لتغيير الهواء ، وربما هى هكذا ، لكن تجربتى كانت على عكس ذلك ، فقد اعتلت صحتى أثناء وجودى هنا ، ولازمتنى الحمى لمدة يومين أو ثلاثة ، وكان لابد من العلاج ، وفى لبنان جبل مشهور يبعد عن هنا أربعة أميال ، وهو موضع شهير بجوه الجميل ، وقال المتنبى عنه :

وعقاب لبنان وكيف بقطعها ••• وهى الشتاء وصيفهن شتاء

التطور العلمى فى بيروت ومدارسها

مع أن التطور العلمى فى بيروت بدأ منذ عهد قريب ، إلا أن معدل التطور فى هذه المدينة سريع جداً ، وما وصلت إليه من تطور اليوم لا يضاهيها فيه أى مدينة فى جميع مدن الدول الإسلامية غير القسطنطينية فى بعض الجوانب .

وقد اهتمت جماعة من النصارى باللغة العربية اهتماماً بالغًا ، وهى تستحق منا كل الشكر والتقدير ، فقد قام هؤلاء الناس بجهد حثيث ،

فجمعوا دواوين العرب القديمة من هنا وهناك وطبعوها ونشروها ، وعن طريق اللبنانيين وصلت إلينا دواوين الخنساء ، وعنترة بن شداد العبسى ، وإسماعيل أبى العتاهية ، وابن هانئ ، وأبى فراس ... وغيرهم ، وإلا ما عرف الناس أسماءهم و أوصافهم ، وقد زاد اهتمامهم بالشعراء النصارى (لاشتراكهم فى الدين) فجمعوا أشعار جميع هؤلاء الشعراء ، وبدأوا طباعة سلسلة خاصة بهم ، صدر منها ثلاثة أجزاء ، وستصدر قريبًا باقى الأجزاء ، وهى تضم شعراء الجاهلية والإسلام ، وقاموا كذلك بطبع ديوان الأخطل النصرانى - وكان شاعراً مشهوراً فى الدولة الأموية ومعاصراً لجرير والفرزدق - وذلك فى طبعة مستقلة باهتمام وعناية ، وهذا الديوان كان نادراً ، ويصعب الحصول عليه ، لدرجة أن مكتبات مصر والقسطنطينية كانت تخلو منه ، وكانت هناك نسخة وحيدة فقط فى مكتبة ملك روسيا قاموا بنسخها ، ثم قام بتصحيحها أستاذ اللغة العربية فى جامعة سان بطرسبرج ، وقد عرضوا علىّ هذه النسخة الخطية التى قام الأستاذ المذكور بتصحيحها بيده ، وأعترف من كل قلبى بالذوق العلمى وعلو همة هؤلاء النصارى ؛ فيا أيها المسلمون ألم تشعروا بالغيرة ؟ !

وهؤلاء النصارى أنفسهم قدموا مؤلفات مفيدة فى مجال الأدب ، وهكذا نشرت لهم كتب مثل : روضة الأدب فى طبقات شعراء العرب ، ومجانى الأدب ، وشرح مجانى الأدب ، ومن العجيب للغاية هنا أن الكتب المفيدة التى كتبها العلماء المسلمون فى الأدب تمت عن طريق هؤلاء النصارى ؛ أى أنهم منحوا النصارى الأجر والمكافأة لتأليف هذه الكتب وطبعت ونشرت باهتمامهم حتى إن مقامات بديع الزمان وشروح رسائل البديع التى طبعت ونشرت فى الوقت الحاضر باهتمام وعناية

فـائقة تم إعدادها بهـذه الطريقـة ، وقـد سـألت الناس لماذا يعتنى هؤلاء النصـارى باللغـة العـربيـة ؟ فـقـال الناس إن هؤلاء النصـارى يعـتـبـرون أنفسـهم من النسل العربى ويفـتـخرون بهذا النسب . والذوق الأدبى هنا عـام ، حـتى إن الأطفـال يقرضـون الشـعر ، وهنـاك كثـير من الناس لهم دواوينهم الشعرية ، أما أولئك الذين قرضوا خمس أو عشر قصائد فيبلغ عددهم المئات بل الآلاف ، وقد التقيت فى مقهى بشاعر مشهور فاتضح لى أنه انخـرط فى التـدريب على قرض الشـعر أربعـون عامًـا ، وللأسف ليس الـذوق سلـيمًا ولا يـعرفون من فنون الشعر إلا الغزل والمدح الذى لا فـائدة منه ، ولا يفـضلون أشـعـار أحـد سـوى المتـأخـرين من حـيث الأسلوب والموضـوعات الشـعرية ، وكنت أقرأ أشـعـار شـعـراء الجاهلية وصدر الإسلام فى أكثر المجالس ؛ فكانوا يعتبرون ذوقى فاسداً .

وهناك تقدم كبير فى العلوم والفنون الحديثة ، وترجمت معظم كتب الفلسـفـة والصنائع والفنون الحـديثة و المقررات الدراسـيـة فى المدارس والكليـات الكبيـرة تدرس باللغـة العـربيـة ، بينمـا يُدرس علم الطب فـقط باللغة الفرنسية ، وسبب ذلك – كمـا ذكر لى هؤلاء الناس – أن التـجارب (الطبـيـة) المرتبطة بهذا الفن تتطور يومًـا بعـد يوم ، وتؤلف فيـه كتب جديدة بوفرة تعجز عنها الترجمة ، وقد أعد الأسـتـاذ فاندك ـ الذى يعد من أكبـر المؤلفين والمتـخـصصين فى الفلسـفـة والعلوم الحـديثـة وهو من سكان أمريكا وعـاش فـترة من الوقت فـى بيروت – سلسلة منتظمة من العلوم الحديثة باللغة العربية اسمـها « النقش فى الحجر » ، كمـا ألّف كثيرًا من الكتب المستقلة غيرها ، ولم يكن لدائرة المعارف وجود فى اللغة العربية فـأنجز الأستاذ بطرس هذه المهمة ، وبدأ هذا العمل عام ١٨٧٥ م ، وكتب عدة مجلدات ، ولكنه توفى فأراد ابنه سليم أفندى تكميلها، ولكن لم

يمهله الأجل ، ويقوم الآن الابن الثانى للاستاذ المذكور باعداد المجلدات الباقية ، وقد طبع حتى الآن عشرة مجلدات ضخمة ، وقد أُلفت كتب مفيدة وقيمة عن التاريخ وفروع التاريخ ، ولأن هؤلاء الناس متضلعون فى اللغات الأوربية إلى جانب اللغة العربية فإن مؤلفاتهم اتصفت بالشمولية التى لا تتسم بها مؤلفات الأوربيين ، وهكذا فإن كتاب « آثار الأدهار » شاهد عدل على هذا الشمول والدقة ، ولكن للأسف الشديد فإن مؤلفات هؤلاء النصارى مليئة بالتعصب الدينى، وتشعر بهذا النوع من التعصب بوضوح فى كتاب « صناجة الطرب » و « أصول المعارف » .

وهؤلاء المؤلفون أكثرهم من سكان لبنان ، وقد نزح كثير منهم من بيروت ، وقد أشاع هؤلاء الناس فى هذه المنطقة الجبلية (لبنان) مذاقًا علميًا عجيبًا ، وبالرغم من أن معظمهم من المزارعين والإقطاعيين ، ينصرفون إلى أعمالهم وقت الضرورة ، لكنهم كانوا ينهمكون فى الأعمال العلمية عندما تسنح لهم فرصة ضئيلة وتقل مشاغلهم ، ونتيجة لهذا فإن العلم هنا ليس وسيلة للثراء ، ومع هذا فقد ظهر فى هذه المنطقة كُتّاب ومؤلفون كثيرون ، مازالوا موجودين حتى الآن ، وقد أُلِّف كتاب مستقل عن أحوال شعراء لبنان وعلمائهم ، لكن للأسف الشديد أن كل هذا التقدم العلمى والتأليف إنما يختص بالنصارى ، ولا حظّ للمسلمين فى هذه الأمور .

والمدارس هنا كثيرة ، وفيما يلى جدول بالمدارس الشهيرة :

اسم المدرسة	الدين والمذهب	المصروفات السنوية للاقامة	عدد الطلاب	تاريخ افتتاح المدرسة
الإسرائيلية	اليهودية	٢٠ جنيه	٦٧	١٨٧٥ م
الإعدادية	الإسلام	٢٠ جنيه	١٥٠	١٨٨٢ م
الإكليركية	الروم الأرثوذكس	مجانًا	–	–
البطريركية	الروم الكاثوليك	٢٥ جنيه	١٣٧	١٨٦٦ م
الحكمة	المارون	–	٢٢٥	١٨٧٦ م
الراهبات	اللاتين	مجانًا	١١٥	–
الكلية السورية العلمية	الإنجيلية	١٧ جنيه	سيأتى ذكرها بالتفصيل	– ١٨٧٥
الملية السورية الطبية	الإنجيلية	٢٢ جنيه	غير معروف	–
قدائن يوسف	اللاتين	٣٠ جنيه	غير معروف	–
باكورة الإحسان	الروم الأرثوكس	١٥ جنيه	–	–
الراهبات البروتستانت	الإنجيلية	٣٠ جنيه	٢٥٠	–
الراهبات البروتستانت	الإنجيلية	مجانًا	٥٠٠	–
عذريات اليتامى	للاتين	مجانًا	–	–
عذريات المحبة	اللاتين	٢٥ جنيه	–	–
عذريات الناصرية	اللاتينى	٣٠ جنيه	١١٥	–
السورية الأمريكية	الإنجيلية	١٢ جنيه	–	–

ويتضح من الجدول التالى الحالة التعليمية للمسلمين مقارنة بالتطور العلمى للأمم الأخرى :

الأمــة	عدد الطالبات	عدد الطلاب	عدد المدرسات	عدد المدرسين والأساتذة	عدد مدارس الإناث	عدد مدارس الذكور
مسلمون	٥٠٠	٢٠٠٠	٢٠	٥٠	٣	٢١
نصارى ويهود وغيرهم	٥٦٦٥	٦٧٣٠	١٥٠	٣٣٧	٣٣	٤٦

فعدد الطلاب المسلمين قليل جداً ، ولكن الأمر الذى يضاعف من أسفنا وحزننا أن معظم هؤلاء الطلاب المسلمين يتعلمون فى الصفوف الابتدائية ، أما طلاب المراحل العالية فأقل من ذلك بكثير، ومن الأمور المؤسفة أن هذه المدينة هى مركز الحكومة الإسلامية ، وأن العلاقة بين المسلمين والنصارى هنا هى علاقة الحاكم بالمحكوم ، ومع هذا ليس هناك أى تكافؤ بين النصارى والمسلمين فى الثقافة والحضارة ، كما أن حالة التعليم ربما تبدو من الجدول السابق وقد سبق بيان وضع التأليف ، أما الصحف والمطابع والتجارة وغيرها فحالتها أسوأ من ذلك بكثير ، فاعتبروا يا أولى الأبصار !

الكلية السورية العلمية

بالرغم من أنه فى بيروت (كما هو مذكور آنفًا) يوجد كثير من الكليات والمدارس ، لكن هذه الكلية تعد جامعة ، ولهذا السبب اسمها الكلية السورية ، وكلمة كلية تعنى هنا الجامعة ، ويطلقون على دولة سوريا اسم الشام أى جامعة الشام ، وقد زرت هذه الكلية بشكل وخاص ، تجولت فيها كثيرًا ، ولهذا السبب فإننى أكتب عنها بقدر من التفصيل ، أسس هذه الكلية أساقفة الروم الكاثوليك فى عام ١٨٧٥ م ، والأساتذة والمدرسون فيها نحو ستين أكثرهم يسكن داخل حرم الكلية .

وقد قمت بزيارة هذه الكلية مع الشيخ على ظبيان وعبد الباسط آفندى ، وعندما وصلنا إلى باب الكلية أوقفنا عبد الباسط آفندى هناك ، ودخل هو نفسه ثم عاد بعد وقت قصير ، ومعه أحد المسئولين فاستقبلنا وأخذنا معه ، ومبنى الكلية ذات طابقين ، فى الطابق الأسفل مطبعة ، وهى نفس المطبعة التى ذاع بها صيت بيروت فى جميع أنحاء العالم بسبب طباعتها الفاخرة ، والشخص الذى استقبلنا كان اسمه إلياس وهو المسئول عن جميع شئون المطبعة ، وفى البداية تجول بنا إلياس فى المطبعة وكانت جميع الأعمال تتم عن طريق الآلة ؛ حيث تسحب لفافة الورق ذاتيًا ثم يوضع الحبر الأسود على الحروف ، ويُطبع الورق من الجانبين ثم يسقط على الأرض ، ويتم إعداد قوالب الحروف هنا ، وقد صاغ إلياس عدة حروف أمامنا ، وقد نالت مصانع الحروف هنا شهرة عريضة وتُطلب من جهات بعيدة ، ومن العجيب أن جمال الخط وروعته فى الكتب المطبوعة هنا لا يوجد له مثيل فى أى مكان آخر ، وقد سألت إلياس عن سبب ذلك ، فأجاب قائلاً : هنا إتقان شديد اضافة إلى جمال

الحروف ، وبعد تصميم الشكل يضغط على هذا النموذج بآلة أخرى حتى تظهر الحروف بشكل كامل ، كما أن الأوراق مصقولة ونظيفة ، وهكذا فقد عرض علينا نموذجين ، وكان النموذج المُعد يبدو غائرًا فى الحجر ، وقد أثنيت كثيراً على دقة الحروف وصفاء الطباعة ، فقال إلياس إن الذى يستحق هذا الثناء فى الحقيقة هو أبو الضياء أحد الأتراك الذى اخترع هذه الحروف ، ولا شك أننا أثنينا عليه كثيراً .

ويوجد فى المطبعة أيضًا مصنع للتجليد يُجهز مجلدات فاخرة مذّهبة ، وتنهمر عليه الطلبات من مصر والشام ، وقد رأيت هنا سن فيل لم أر مثلها من قبل .

وبعد زيارة المطبعة اتجهنا إلى الكلية ، وكان من الضرورى أن يُرشدنا أحد أساتذه الكلية أثناء الزيارة ، وهكذا عرفنا إلياس فى البداية بالأستاذ أنطون ، وهنا طريقة مناسبة جداً – وهى جديرة بأن تُقلد في بلدنا – وهى أن أساتذة الكلية وموظفيها الذين يسكنون فى الكلية يُعلقون لوحة صغيرة على الباب الرئيسى لغرفهم ، وعلى هذه اللوحة سطور تتضمن عليها أعمالهم بالتفصيل من الصباح حتى المساء ، ويتضح منها أين يكون صاحب الغرفة وماذا يعمل ؟ وعلى سبيل المثال كتب فى السطر الأول ، حجرة المحاضرات ، وفى الثانى حجرة الطعام ، وفى الثالث التنزه وهكذا ، ويوجد مؤشر مثبت على واجهة اللوحة ، وفى الوقت الذى يكون فيه صاحب الغرفة مشغول فى عمل ما ، فإنه يوجه ذلك المؤشر أمام هذا السطر الذى يشير إلى هذا العمل ومكان العمل ، وعلى الشخص الذى يأتى لمقابلته أن يلقى بنظرة على اللوحة ليعرف أين يتواجد الأستاذ ، على كل حال هذه طريقة جيدة وجديرة بأن تُقلد فى كل مكان .

المهم أننا قابلنا الأستاذ أنطون وهو رجل ألمعى نو كفاءة نادرة ، يجيد اللغة الفرنسية ، وهو أستاذ الأدب العربى ، وهو الذى عنى بتصحيح وطباعة ديوان الأخطل الذى يطبع حاليًا ، وقد كتب تعليقًا وحواشى على هذا الديوان تعتبر بمثابة شرح منفصل له ، وهذا يدل على مدى علمه وسعة نظره ، وهو رئيس تحرير صحيفة « البشير » الأسبوعية التى تصدرها الكلية باللغة العربية ، ولهذا السبب تجول بنا فى جميع مبانى الكلية ومعاملها وفى الحقيقة هذه الكلية هنا تعد مفخرة للنصارى يحسدهم عليها جميع المسلمين ، ولا يمكن لنا أن ندعى أن هناك كلية فى القسطنطينية ومصر والشام تضاهيها ، فالمبانى شاهقة وعظيمة وجميلة ولا يمكن وصفها ، فأرضية الطابق العلوى كلها من حجر المرمر المُطعم بالأحجار السوداء وبه حجرات كثيرة جداً ، والأساتذة والمدرسون الذين يفوق عددهم الستين ويقيمون فى الكلية ليل نهار ، لكل واحد منهم حجرة منفصلة ، وهى حجرة فاخرة مجهزة بالأثاث والريش الوثير يتوسطها منضدة مستطيلة ، حولها كثير من الكراسى الجميلة ، وهى خاصة للأساتذة والمدرسين ، ويجلس هؤلاء الناس هنا فى أوقات الراحة ، وتستمر أواصر الصداقة بينهم ، وملحق بها مكتبة صغيرة ، فإذا أراد أخذ منها أى كتاب يسلى به نفسه ، وفكرت عندئذ فيما تعانيه كليتنا من نقص فليس فيها أى مبنى من هذا النوع يلتقى فيه جميع الأساتذة ويجلسون لساعة أو لساعتين ، مع أن هذا النوع من التجمع والصحبة مفيد للغاية للنوق القومى إلى جانب التسرية عن النفس .

وتُدرس فى الكلية العلوم الحديثة على مستوى رفيع جداً ، ووفرت فيها من أجل هذا الغرض وسائل نادرة وآلات ثمينة ، وفيها دواليب كثيرة بها قطع من الطين الحجرى والصخور ذات ألوان وأشكال عجيبة ومختلفة ، وقد أعدت هذه الأشياء النادرة وجلبت من مناطق بعيدة من أجل تعليم طبقات الأرض ، ويوجد للنباتات حجرة منفصلة وواسعة ، وقد قال لى الأستاذ أنطون إن هناك اهتماماً بالغًا بحفظ تلك النباتات ، وأخذنى الأستاذ أنطون لزيارة نوع من النباتات (الحشائش) وقال إنها لا تنمو فى أى مكان غير الهند ويُطلب من هناك .

وملحق بالكلية مكان للإقامة أيضًا ، ووضعها يضاهى دور الإقامة فى الكليات الكبيرة فى القسطنطينية ، وعلى الرغم من أن مكتبة الكلية ليست كبيرة جداً ، لكنها زودت بكتب نادرة وقيمة .

والكتب التى لم تطبع ، وليس لها نسخ قديمة ، تهتم الكلية باستنساخها من المكتبات الشهيرة فى آسيا وأوربا ، ولقد رأيت هنا كتاب « العمدة » لابن رشيق القيروانى ، وهو كتاب قيم ونادر فى موضوعه ، ومن المواد الإلزامية فى هذه الكلية تدريس اللغتين العربية والفرنسية ، وتدرس باقى اللغات اختيارية مثل التركية لمدة عام ، والألمانية لمدة عام ، والإنجليزية لمدة خمسة أعوام ، واللاتينية واليونانية لستة أعوام ، والأمر المثير للدهشة أنه على الرغم من أن مؤسسى الكلية عمومًا نصارى من الروم الكاثوليك ، وهم أكثر تعصبًا من الفرق النصرانية الأخرى إلا أن مادة الأدب تحتوى على مختارات من القرآن الكريم ، ويثبت من هذا أن فصاحة القرآن الكريم وبلاغته لا مثيل لها ،

وبها مسلمون كذلك ، ومن بين العلوم التى تُدرس الفلسفة الحديثة ، والعلوم الطبيعية إضافة إلى الموسيقى وفن التصوير ، وعدد طلابها يتراوح بين خمسمائة و ستمائة طالب ، وعدد الطلاب المسلمين فيها ثمانية أو عشرة طلاب .

وقد تم تشييد مبنى الكلية بمليون فرنك بالرغم من أن جميع الأشياء رخيصة جداً فى بيروت ، وقد قامت جماعة من القساوسة بدفع هذا المبلغ كاملاً .

وفى هذه الكلية كلية طبية ، لكن فى مبنى آخر منفصل ، وقد تجول بنا الأستاذ أنطون فى مبناها كذلك ، فالمبنى واسع جداً ومرتفع ، والأجهزة فيها غالية جداً ومتوافرة ، غرفة التشريح طويلة جداً وواسعة ، تحتوى على صورة كل عضو بشرى مصنوعة من الشمع بإتقان ومهارة فائقة فلا يعتقد أنها تقليد، وتوجد نماذج عديدة لكل عضو بقدر الأمراض التى يمكن أن تصيبه ؛ فمثلاً توجد فى إحدى هذه المختبرات نحو مائتى عين ، وفى الثالثة عدد من القرنيات وفى الأخرى عدد من الجفون ، ولم أر كلية للطب فى الهند ، لكن لدى اعتقاد أكيد أنه – يمكن أن يكون فى الهند كلية أكبر منها ، لكنها ربما لا تضاهيها .

وقد تحمل الأستاذ أنطون الصعاب من أجلى ، وأخذ يتجول بى فى كل الغرف والأماكن باهتمام وخُلق ، وإنه لمن الجحود التام ألا أشكره فى هذه المناسبة من أعماق قلبى ؛ لأن هذا الأستاذ سُر بلقائى ، وفى العدد الذى صدر من جريدة « البشير » هذا الأسبوع توجد إشارة من هيئة التحرير خاصة بى وهذا نصها : « اجتمعنا فى هذه الأيام على

حضرة العالم الشيخ شبلى النعمانى المعلم الأول للعلوم العربية فى بلده على كره من بلاد الهند ، فرأينا فيه رجلاً كثير المعارف ، وهو حائز على النشان المجيدى من الرتبة الرابعة ، أقام فى الآستانة العليا مدة ثلاثة شهور ، وحضر إلى بيروت وتوجه هذا النهار إلى زيارة بيت المقدس ثم منها إلى مصر ، ثم إلى بلاد الهند »[١] .

الجمعيات والصحف

إن كلمة " انجمن " التى يُتحدث بها فى لغتنا بهذا المعنى يقابلها هنا كلمة " جمعية " ، وهذه الكلمة مستعملة فى مصر وغيرها من البلاد ، والجمعيات هنا كثيرة وأهدافها مفيدة للغاية ، ولكن من العجب العجاب أنه ليس من بينها جمعية للمسلمين ، وأذكر فيما يلى جدولاً ببعض الجمعيات المشهورة ، ويتضح منها أهدافها كذلك :

(١) جاءت هذه العبارة باللغة العربية فى النص الأصلى (المترجم) .

اسم الجمعية	المذهب	الهدف	مؤسس الجمعية
المجلس الملىّ	الروم الأرثونكس	الرفاهية العامة	مطران عفرائيل
التعليم المسيحى	»	دينى	»
القديس بولس الرسول	»	»	»
الخيرية	»	إعانة الفقراء	الخواجة سليم
المرضى	»	علاج الفقراء	الخواجة نجيب
دفن الموتى	»	تجهيز وتكفين الفقراء والمجهولين	خورى يعقوب
زهرة الإحسان	»	الفن والأدب	السيدة طريفة
الخيرية	المارونية	إعانة الفقراء	الخواجة حنانيا
الدائرة العلمية	»	لتطوير العلوم	المطران يوسف
أحوية مارمارون	»	الفن والأدب	سليم آفندى
يوحنا مارماون	الروم الأرثونكس	الرفاهية العامة	الخواجة جليل
الخيرية	الروم الكاثوليك	إعانة الفقراء	بشارى الخورى
دير القمر	»	»	الخواجة نخلة
شمس البر	المسيحية	الأدب	سليم آفندى كساب
الباكورة السورية	»	»	السيدة حنا عتيق
الإنجيلية	الإنجيلية	الرفاهية العامة	خليل آفندى سركس

ولعله يتضح من هذا الجدول كثرة الطوائف فى الديانة النصرانية ، وهى جميعاً جمعيات منفصلة ، لكن المسلمين لم يشاركوا فى هذا العمل بشىء .

أشهر الصحف والمجلات التى تصدر هنا : البشير ، وبيروت ، والتقدم ، وثمرات الفنون ، والصبح المنير ، والصفا ، ولسان الحال ، والمصباح ، والهداية ، والنشرة الأسبوعية ، وحديقة الأخبار ، وجميع الصحف يملكها أو يرأس تحريرها نصارى فيما عدا بيروت وثمرات الفنون ، ولا تنشر هذه الصحف سوى الأخبار العادية ؛ لأنه ليس هنا حرية نشر ، وتصدر المجلات الأدبية بكامل رونقها ، وخاصة مجلتى الصفا والمقتطف ، وهما من المجلات ذائعة الصيت وتضاهى المجلات الأوربية ، وللأسف أغلقت مجلة الصفا ، كما غيرت المقتطف مقرها ؛ أى أنها الآن تصدر من القاهرة .

المرصد

يوجد هنا مرصد صغير أقامه الأستاذ فان ديك الأمريكى سنة ١٨٧٤ م ، وتتوفر فيه معظم الأجهزة الضرورية ، ويبلغون القسطنطينية بما يرصدونه من معلومات كل يوم عن طريق التلغراف ، وترسل من هنا إلى أوربا وغيرها ، ويقوم على شئونه الآن السيد روبرت أستاذ الرياضيات فى المدرسة الأمريكية .

الوضع العام ولقاء العلماء

لقد ذكرت آنفًا أن الهدف الأساسى من إقامتى فى بيروت هو لقاء الشيخ طاهر المغربى فالتقيت به عن طريق عبد الباسط الأنسى ، ودام

مجلسنا العلمى لوقت طويل ، ثم لقيته بعد ذلك مرتين أو ثلاث مرات ، وزارنى مرة فى منزلى ، والشيخ المذكور شاب حتى الآن ، ولكن الناس يبجلونه من أجل علمه وفضله ، وقد أدركت جوهر كماله كما لمست بنفسى ؛ فلم يكن الشيخ المذكور ضيق الأفق متزمتًا مثل العلماء الآخرين ، بل كان عارفًا بالأفكار الجديدة وعالما باللغة الفرنسية ؛ وقد زار فرنسا و، له اهتمام بالمواساة القومية ولم يكن جاهلاً بانحطاط المسلمين ، ولو نشأ هذا الذوق لدى عامة العلماء فى تلك الدول فيمكن أن نتوقع تطوراً حقيقيًا ، والشيخ المذكور مدرس فى مدرسة دمشق ، وله مؤلفات ، طبعت ونشرت ، وبعضها فى فن الرياضة .

وقد تشرفت بلقاء بعض علماء بيروت ، وكنت عادة أجلس فى بيته :فيأتى إليه عبد الباسط الأنسى ، وكان منهم العلماء وأصحاب المناصب ، ويتم التعارف بيننا ، ولما ذاع صيتى فى المدينة أصبح بعض العلماء يزورنى فى منزلى ، ومن بينهم الشيخ عمر الجبيلى وعالم آخر لا يحضرنى اسمه الآن ، وكانوا يهتمون بأمورى اهتمامًا بالغًا ، ومنهم الشيخ عمر الجبيلى صاحب ومدير مجلة الصفا ، هو دمث الخلق وفى غاية الكرم والجود ، ومرة حضر طالب إلىّ بهدف تعلم المنطق ، وقد اعتذرت له لضيق الوقت ، ورغم ذلك يتردد علىّ كثيراً ، وكنا نتذاكر فن الأدب ، وسألنى ذات يوم عن رأيى فى المتنبى فقلت : له حسنات وسيئات فقال : والحسنات يذهبن السيئات فأعجبت برده المهذب إعجاباً كبيراً .

وذات يوم دعانى عبد الباسط ، ودعا معظم علماء بيروت المشهورين ، فكان الشيخ منهم عبد القادر الجزائرى – كان أمير الجزائر ، وظل

يحارب فرنسا فترة من الوقت – وكان ابن أخيه الشيخ عبد الرحمن الجزائرى يقيم هنا منذ فترة ، ويتلقى راتبًا من السلطان قد حضر أيضًا ، وكان شيخًا عالمًا معمرًا ، وكان فى منزل عبد الباسط الأنسى حديقة صغيرة وجميلة فجلس كل الناس بها على المقاعد والكراسى ، وبعد فترة وجيزة توجه كل الناس إلى حجرة الطعام لتناول الطعام على الطريقة الإنجليزية أى على المنضدة والكراسى ، وكلما انتهوا من صنف من الطعام أحضروا الصنف التالى ، فبعد الطبق الأول يأتى الطبق الثانى وهكذا، فقلت للشيخ طاهر المغربى لقد حدث مثل هذا فى الهند ، وصدرت فتوى « من تشبه بقوم » ، فقال إن هذا يناسب تلك البلاد ؛ لأنه ليس هناك حكومة إسلامية ، ولهذا من الضرورى الإبقاء على العادات والتقاليد والتعصب الدينى (ولو كان غير صحيح) حتى لا يقل الأثر العام للدين ؛ لأن هذه الأمور الهامشية ليس لها أهمية فى البلاد الإسلامية ، وقد استمر النقاش ردحًا من الوقت ، وانتهى بود ومحبة ، كما كان الطعام لذيذًا وشهيًا .

ولأن المناخ هنا رطب تدهورت صحتى بشكل مستمر ، وأصابتنى الحمى ذات يوم ، وكان عبد الرحمن الأنسى شقيق عبد الباسط أفندى من الأطباء المشهورين ، ونال تعليمًا عاليًا فى كلية الطب فى مصر ، فذهبت إليه بغرض العلاج فكان فى غاية الود معى ، وقال لى : « عندما تصل إلى منزلك سوف يصلك الدواء هناك » ؛ فبعد ساعتين جاء إلىّ شخص حاملاً زجاجة الدواء ، وقال لى : لو لم تشفَ بهذا الدواء عليك أن تُخبر الطبيب ، وقد كان الدواء مستساغًا مع كونه سريع التأثير وقد شفيت من الحمى فى ذلك اليوم ، وبالرغم من أن السيد الطبيب تلقى

تعليمه على الطريقة الأوربية إلا أنه لازال لديه هذا القدر من أثر الكرم الإسلامى والأسيوى فلم يقبل ثمن الدواء ولا قيمة الكشف الطبى .

ومن أضرار هذه الحمى أنها أضاعت علىّ التنزه المجانى فى طرابلس ، فقد صادف هذه الأيام مجىء بعض العلماء إلى طرابلس ، وقد اتفق لى لقاءهم فى إحدى المناقشات ، وقد أصر هؤلاء الناس إصراراً شديداً على أن أصحبهم إلى طرابلس ، وطرابلس مدينة إسلامية شهيرة ، ويُعتقدأنها مكان تذكارى عظيم من ناحية بعض الخصائص الإسلامية ، وهى على مسافة سفر يومين فقط من بيروت ، وكان الوقت كافيًا لأن أذهب هناك وأعود قبل إبحار الباخرة ، وكنت مستعداً تمامًا لكن فى نفس الوقت داهمتنى الحمى ، وهذه الحسرة لازالت مستقرة فى قلبى .

وسوء الحظ الأكثر من هذا أن الأصدقاء انفضوا من حولى ، فالشيخ على ظبيان الذى ظل رفيقى وأنيسى لعدة شهور كان مقيماً فى بيروت من أجلى ، ووصلته من دمشق رسالة من والده اضطرته للسفر، وكان وقت رحيله فى الساعة الثامنة مساء ، وعند الوداع عانقنى وقبّل أكتافى وهى الطريقة العامة المتبعة هنا وأنشد هذا البيت :

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

والشىء الذى لم يرُق لى قط فى بيروت هو مكان يطلقون عليه « المغنى » ، وهو أمر مخرب للأخلاق وغير مهذب البته ، ولا أعلم كيف أجازته الحكومة الإسلامية وهو مبنى عال مكون من طابقين على قارعة الطريق ، وتوجد به صالة واسعة فى الطابق العلوى تم تجهيزها بفرش

كراسي كثيرة ، وفي مكان الصدارة توجد مصطبة مستطيلة عالية يجلس عليها كثير من السيدات الأوربيات ، ويقمن بالعزف والغناء وعندما ينتهي دورهن فإن السيدات ينزلن من على المصطبة ، وتمتلئ الصالة بالتصفيق فيمشين بجوار المتفرجين في خلاعة ومجون ، والتي تنال إعجابه يستدعيها بإشارة منه ، فتجلس بجواره بدلال ، ويبدأ اختلاط لا حدود له من قلة الأدب وعدم الحياء ، ثم تدور كئوس الخمر ويعانق أحدهما الآخر ، ويصفقون ويقومون بالمعانقة والقبلات والأحضان ، وخلاصة القول أنهم لا يدعون دقيقة تمر دون تهتك ومجون ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

مغادرة بيروت

لم تكن حالتي الصحية جيدة في بيروت ، وقد شعرت بالغربة بعد رحيل الشيخ على ظبيان والشيخ طاهر المغربي ، لكنني كنت مضطراً لانتظار الباخرة يومين أو ثلاثة أيام ، وهكذا غادرت بيروت مساء الثامن من صفر سنة ١٣١٠ هـ ، وقد رافقني الشيخ عبد الباسط والشيخ عمر الجيلي حتى الميناء وعن طريقهما تم ترتيب الحقائب ومتعلقاتي بسهولة كبيرة ، وفي اليوم التالي وصلت الباخرة إلى يافا ، وما أن رست الباخرة حتى انقض عليها الحمالون والملاحون ، وبدأ نوع من الضجيج والضوضاء فقدت خلالها وعيي ، ومع أن حقائبي كانت قليلة ، لكنهم تسابقوا عليها ثم مشيت مع من حملها واتجه إلى مركبة ووضعها فيه ، كنت في حيرة من أمري فأين أذهب ، وفي النهاية جلست في أحد المراكب وبعد أن وصلت إلى الشاطئ انتظرت المركب الذي كان فيه بقية الحقائب ، وبعد أن انتهيت من هذه المرحلة كان عليّ أن أواجه مصيبة

تفتيش الحقائب والأمتعة وجواز السفر حتى نجوت من تلك المواجهات والمشاجرات وقت الظهر بشق الأنفس ، ووصلت إلى المدينة قرب صلاة الظهر .

ويافا التى يطلق عليها الإنجليز اسم « جافا » مدينة قديمة جداً ، ورد ذكرها فى التوراة ، وذكر بعض المؤرخين أنها كانت موجودة قبل طوفان نوح ، واستولى عليها المسلمون سنة ١٣ هـ فى عهد خلافة عمر رضى الله عنه ، وهى مدخل بيت المقدس أى يذهبون إلى بيت المقدس من هنا ، ولهذا يتوافد عليها الناس بكثرة من كل أمة ومن كل بلد ، ويمكن القول إن المناطق التى يقطنها الأوربيون فى المدينة نظيفة وجميلة .

والفواكه هنا كثيرة ، فرمانها طيب جداً ورخيص ، وأعظم ما تتميز به هذه المدينة هو سلسلة من الحدائق خارج المدينة تمتد لمسافة ثلاثة أميال ، ويبعد بيت المقدس عن هنا نحو أربعين ميلاً ، وقد تحرك القطار الآن ، وكان يسير فى الليل فى ذلك الوقت ، وركبت وقت المغرب ، وفى الطريق توالت بعض الأماكن الشهيرة (مثل الرملة وغيرها) ولكنى لم أستطع رؤية أى شىء بسبب الظلام .

وفى الصباح الباكر ظهرت سلسلة الجبال ، وكانت تزداد ارتفاعًا باستمرار كلما مشينا ، وبالرغم من أن الطريق كان مملوءا بالتعرجات والمنحنيات ، لكنه كان نظيفًا ممهداً ، وناحية الجبل خضراء يانعة وهو مكان رائع ، كنا نمر بالقرى الصغيرة للعرب البدو من مكان لآخر ، ومع أن المنازل ضيقة وصغيرة ، لكن كلها من الحجر الأبيض ، ويبدو هذا البياض متناسقًا جداً مع الحدائق الخضراء ، وهذه السلسلة تنتهى بعد عشرة أو اثنى عشر ميلاً ، ثم تظهر مشارف بيت المقدس .

وبيت المقدس مشيد على جبل، وقد أقمت بها أسبوع ، وزرت المسجد الأقصى وقمامه وغيرهما ، وبعد أن نزلت من السيارة توجهت مباشرة إلى منزل عبد الرازق آفندى فلم يبدِ أى اهتمام وعناية (سوف أذكر هذه الواقعة فى نهاية الكتاب) فقصدت الذهاب إلى فندق ، وفى الطريق كانت زاوية الهنود فـفكرت أنه ربما يكون من المفيد الالتقاء بالناس هنا ، فدخلت إلى الزاوية وفى بداية الأمر قابلت شيخ الزاوية وهذا الشيخ من سكان رامبور ويقيم هنا منذ فترة ، وهذا المسكين لم يتلق أى تعليم وهو رجل منظم ورزين ، وقد أصلح الزاوية ، على أكمل وجه ، وبها حجرة خاصة بالاجتماعات تم تأسيسها بشكل جيد وأحواض الورد فى الصحن ، وبعد السلام والسؤال عن الأحوال تجاذبنا أطراف الحديث ، وعندما علم أننى أريد الإقامة فى فندق قال هنا تلتقى بالمفتى وعلماء آخرين ، وهم يعتقدون أنه من العيب الإقامة فى فندق ، وبناء على هذا أقمت فى الزاوية ، وقررت ألا أتناول من طعام الزاوية لأنه خاص بالفقراء والمسكين .

بيت المقدس : المسجد الأقصى وقمامه

وبيت المقدس ليس اسمًا خاصًا بأحد المبانى ، بل اسم مدينة ، ولكن هنا يقال لها فى الغالب القدس ؛ فهذه المدينة المباركة مع أنها تشتهر بانتسابها إلى سيدنا داود وسليمان عليها السلام ، وكأن تاريخ وجودها يبدأ بعهد أولئك الأنبياء ، لكنها كانت موجودة فى الحقيقة قبل ذلك العهد بكثير ، فقد أغار عليها داود عليه السلام على مدسيون ، واتخذها عاصمة لدولته قبل المسيح عليه السلام بـ ١٠٤٨ سنة ، ولم تزل منذ ذلك الوقت وحتى الآن مركزًا لأهم الأحداث التاريخية ، وكانت قبلة المسلمين فى بداية الإسلام ، وهى الآن كذلك بالنسبة للمسيحيين .

ولا يزيد عدد سكان المدينة الحالية عن خمسين أو ستين ألفا ، والمنازل والأبنية عادية ، والشوارع كذلك ليست فسيحة ، ومعظم الأسواق مغطاة بأسقف ، ولهذا فهى ضيقة ومظلمة ، ويحيط بالمدينة سور حجرى أقامه السلطان سليمان الأعظم سنة ١٥٤٣ م ، وهذه حالة المنطقة القديمة لكن المنطقة الجديدة من المدينة جميلة وفى غاية البهاء : الشوارع واسعة فسيحة ، والمبانى على الجانبين مع وجود القصور والبيوت بكثرة ، والمنطقة عموماً مزينة بالحدائق الخضراء الواسعة ، ولغة المدينة والأزياء العامة عربية ، ويوجد هنا كثير من الزوايا والتكايا مثلها فى ذلك مثل القسطنطينية ، فلكل شعب ولكل دولة زاوية منفصلة يجد فيها المسافرون الطعام والقهوة مجاناً .

ومناخها جيد معتدلاً ، وقد وصلت إليها فى بداية شهر أغسطس ؛ فكان النهار معتدلاً وفى الليل برودة يمكن تحملها ، والفواكه كثيرة وهى لذيذة وذات حلاوة ، وكان العنب – فى ذلك الوقت – فى بشائره، ومثلما يحدث عندنا حين يحضرون إلى السوق فى الصباح بعد أن يملأون السلال بالجزر وغيره وتبدو الأكداس لمسافة طويلة ، فهم هنا يفعلون نفس الشىء بالعنب ، وكان الشغل الشاغل لى طوال اليوم هو حصر حبات العنب .

المسجد الأقصى

هذا هو المسجد المبارك الذى أسسه داود عليه السلام وأكمل بناءه سليمان عليه السلام – وساحة المسجد التى يسمونها الحرم واسعة جداً ، لكن أغلبها غير مسطح وغير ممهد ، وقد استفسرت من الناس عن سبب ذلك فأجابوا أن السلطان قد أرسل مبلغًا من المال عدة مرات

لترميمه وإصلاحه ، إلا أن الصناع والمجاورين أنفقوا جزءاً كبيراً منه والطريف أننى سألت المجاورين بنفسى فقال أحدهم : نعم لقد أنفق المجاورون جزءاً من المبلغ ولم لا ؟ فالطباخ عندما يطبخ الطعام فإنه يتذوقه أراد أو لم يرد .

ويبلغ طول مبنى المسجد ستة آلاف ذراع ، وعرضه سبعمائة ذراع ، وهو غاية فى الجمال والبهاء ، وسقفه مقام على أعمدة ، عددها نحو سبعمائة عمود من الرخام ، وفيه من مكان لآخر أعمال المنمنمات والمذهبات ، وهذا المبنى بناه عبد الملك بن مروان ولا غرو أنه يقال إن أساساته ترجع إلى عهد داود عليه السلام ، وفى الناحية السفلى من المبنى ، وعلى مسافة منه مغارة واسعة ، وبعد عشر أو اثنتى عشرة درجة سلم تجد أرضا مستوية ، وهنا سبعة صفوف من المحاريب الشامخة وأعمدة المحاريب ضخمة وعالية ، وقد ذكر المجاورون أن هذه المحاريب تم تشييدها فى عهد سليمان عليه السلام ، ومن المؤكد أن هذا كان قبل الإسلام .

وفى حرم المسجد أماكن مباركة كثيرة ، منها : قبة السلسلة ، وقبة المعراج ، وقبة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن أجملها وأفخمها جميعاً قبة الصخرة ، وهى قائمة على صخرة ، وهى مشهورة بين العوام أنها معلقة بين الأرض والسماء ، وأن العرش الإلهى سيوضع عليها يوم القيامة ، ويسميها العرب بالصخرة ، ويطلق عليها العوام عندنا اسم « عرش رب العالمين » ، ولا شك أن هذا الحجر قديم جداً ، وكانوا يبجلونه فى كل عصر ، ويعتقد النصارى أن السيد المسيح عليه السلام وضع قدمه عليها ، وهكذا ففى عهد السلطان صلاح الدين ، عندما كانت فى

قبضة النصارى تم بناء قبة ذهبية لتدل عليها طبقا لرأيه ، المسلمون يجلونها إجلالاً كبيراً ، لكن لا أعلم أى حديث صحيح ذكر فضلها .

على كل حال فإن القبة عبارة عن برج مثمن الأضلاع على مصطبة مرتفعة ، وارتفاعها نحو مائة قدم وأعمال اللازورد والتذهيب على الحوائط والسقف فى غاية الروعة ، وهى مضيئة ولامعة وبراقة تخطف الأبصار بالرغم من أنها مبنية منذ وقت طويل ، وخلاصة القول أنها من حيث الروعة والبهاء ليست فى محلها كما ادعى العلامة البشارى ؛ حيث قال : « لم أر أى مبنى بهذا الجمال والتكلف فى جميع البلاد الإسلامية » ، وقد دلفت إلى الغار بعد أن نزلت على بضع درجات سلم ، والحجر المقدس موضوع هنا ، والغار واسع وفسيح إلى درجة أنه يتسع بسهولة لستين أو لسبعين رجلاً ، وترتفع الصخرة عن الأرض بقدر قامتى رجل ، ويُذكر أنه قبل ذلك كانت معلقة تمامًا فى الهواء ، ومن الممكن أن تكون كذلك فى ذلك العهد ، لكن فى الوقت الحاضر هى عبارة عن حائط مستدير ، وقد وضعت الصخرة فيه حتى صار الحائط سقفًا ، ويذكر المجاورون أن الناس كانوا يخافون المرور تحتها بعد أن رأوا الصخرة المعلقة فى الهواء لدرجة أن إحدى النساء فقدت حملها ذات مرة ، وقد وقعت هذه الحادثة فى أيام الشيخ محى الدين أكبر فأحاطها الشيخ المذكور بجدار حتى لا تبدو معلقة فى الظاهر .

وسواء كانت هذه الواقعة صحيحة أو غير صحيحة ، لكن مما لا شك فيه أن هذا المكان ظل مهبطًا للإلهام الروحى ومسكنًا للأنبياء الكرام لفترة من الوقت ، فليس محلاً للدهشة أن يوجد هنا مثل هذا القدر من الآيات والتجليات الإلهية ، ويوجد فى بيت المقدس وبجواره .

وبالقرب منه كثير من أماكن الزيارة ، مثل بيت لحم حيث مولد سيدنا عيسى عليه السلام ، ومقام الخليل حيث توجد قبور إسحق ويعقوب وإبراهيم عليهم السلام ، ووادى جهنم حيث دفنت السيدة مريم ، لكن للأسف فإننى لم أستطع التشرف بزيارة تلك المزارات بسبب بعض الظروف ، وقد سعيت لمدة يومين أو ثلاثة بشكل متصل لزيارة مقام الخليل الذى لا يبعد عن بيت المقدس إلا نحو خمسة عشر أو عشرين ميلاً ، لكن فى تلك الأيام كان اليهود يحتفلون بأحد أعيادهم ، لهذا كان من المستحيل أن أجد وسيلة تنقلنى إلى هناك ، ولو وجدت كان علىّ أن أدفع الأجرة أضعافًا مضاعفة .

كنيسة القيامة

هذا هو مكان القيامة الذى تدفقت عليه أوربا كلها فى زمن من الأزمان ، واستمر هذا الطوفان فترة من الوقت ، وهى كنيسة واسعة جدًا ، ويعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام صلب فى هذا المكان ، ودفن فيه ، ومن هنا صعد إلى السماء ، يدير شئونها الآن النصارى ولكن لأنها تقع تحت الحكم التركى فإن بوابها مسلم ؛ لأنها ذكرى انتصار صلاح الدين على ستمائة ألف من الأوربيين ، وعندما ذهبت إلى هذه الكنيسة زرت هذه الأماكن بتوجيه منه .

وعندما دخلت المكان رأيت فى كل جانب كبار الرهبان والقساوسة منهمكين فى العبادة بخشوع وخضوع تام ، وقد اصطحبنى البواب أولاً إلى ذلك المكان حيث صعد السيد المسيح عليه السلام إلى السماء (طبقًا لاعتقاد المسيحيين) وهى حجرة صغيرة بها تمثال للسيد المسيح عليه السلام على مصطبة فى مكان الصدارة وهو عارى الجسم تمامًا

إلا ما يستر عورته ، ولا يظهر من الصورة أى نوع من تقديس واحترام النبوة ، وعندما ذهبت إلى هذه الحجرة كان الشمع ينير المكان ، وكان هناك قسيس من إحدى الإرساليات الكبرى بجوار التمثال منهمكًا فى مراقبته ، وبعد أن انتهى من المراقبة نثر المجاور قليلاً من الماء على رأسه ؛ فأخذ يمرره على لحيته ووجهه بخشوع وتبتل .

وعند ذهابه إلى مكان الصليب عظّمه وبجّله ، ولكنه بعد أن شاهده تأسف أسفًا شديداً على بسطاء النصارى .

كان الصليب منتصبًا على مصطبة مستطيلة ومرتفعة ، وهى من حجر المرمر من أعلاها إلى أسفلها ، ويدا السيد المسيح عليه السلام مثبتة عليه بمسامير حديدية ، وقدماه وضعتا على الخشب من أعلى إلى أسفل ودقت بمسمار حطم قدميه ثم خرج من الخشب ، وكانت السيدة مريم واقفة يعتصرها الحزن فى أحد الأطراف بالقرب منه ، وكان تمثال السيدة مريم عظيما جداً ، وهو تمثال من الذهب ، وقد نُحت لها وهى فى ملابسها ، والملابس تشبه ملابس من يؤدى الصلاة ، وكان يجتمع فى هذا المكان كبار الرهبان والقساوسة ، أما الراهبات فقد وقفن ناحية الصليب وعلقن أيديهن به فى خشوع وتضرع تام ، فما هذه الأفكار الدينية العجيبة ؟!

لقاء العلماء وبعض الأمور الأخرى

إن العالم المشهور والمعروف فى بيت المقدس هو سيد طاهر وهو مفتى المدينة ومعروف بين الناس « بالمفتى » ، كنت قد سمعت مدحًا

وثناء عليه فى القسطنطينية ، ولهذا عندما وصلت إلى بيت المقدس ذهبت – قبل كل شيء – للقائه ، وعندما دخلت عليه فى الحجرة نهض المفتى وجميع الحضور احتراماً لى (وهذه الطريقة متبعة هنا لكل شخص بشكل عام) وقال أحد العلماء بعد السؤال عنى وعن أحوالى بشكل مختصر : « لعل حضرتكم من العلماء » ؟ فقلت : لا « ولكن من طلاب العلم » ، وكانوا يتحدثون قبل ذلك عن إحدى المسائل العلمية ، وكان مجلسهم قد انفض بسبب وصولى ، وعندما علم هؤلاء الناس ، أننى على قدر من الثقافة والعلم قال أحدهم بتدبر وأدب جم : « نحن نتحدث حول إحدى المسائل ، ولو راق لك ذلك فسوف أطرح عليك هذه المسألة « وكانت هذه هى كلماته بعينها » : يا حضرة الشيخ قد كنا قبل ذلك فى بحث فلو أحببتم عرضنا عليكم ، « وخلاصة القول أنه ذكر هذه المسألة وقال : إن الله عز وجل خاطب نبيه عليه السلام بقوله : « ألم تر كيف فعل ربك بإرم ذات العماد » ، وهذه القصة حدثت قبل ولادة النبى صلى الله علية وسلم بمئات السنين ؛ فقلت إن الرؤية كما تطلق على الرؤية البصرية تطلق كذلك على الرؤية القلبية أى علم اليقين وقد جاء فى القرآن الكريم : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » ، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك موجودة فى الشعر الجاهلى ؛ فأراد بعضهم أن يعترض على جوابى ، ولكن المفتى قال : هذا الجواب صحيح لا محل للنقاش ، ولازلت أشارك فى هذا المجلس الممتع كل يوم تقريباً ما بقيت فى بيت المقدس .

وكان فضيلة المفتى صورة مجسمة للأخلاق الفاضلة والقدسية ، ونتيجة لذلك كانت المدينة بأكملها تحترمه أيما احترام ، وراتبه ثلاثمائة قرشاً أى خمسة وثلاثون روبية ، ولكن تأثيره فى المدينة أكبر من تأثير الحاكم نفسه ، ومن محاسنه الكبرى أنه على الرغم من أنه رجل من العهد القديم وله قدسية سامية ، إلا أنه ذو فكر متحرر وملم بذوق العصر .

نادرة : من العادة المتبعة فى هذه البلاد أن يلف العلماء شالاً أبيض على القلنسوة أو العمامة ، ويطلقون عليها « لفّة » والتدثر بها ، ولفها يعد أمراً ضرورياً ، وقد ذهبت لزيارة قمامه فى ذلك اليوم ، وكان على رأسى قلنسوة لا عمامة ، وبينما كنت أسير فى الطريق رآنى أحد العلماء الذين يعرفوننى وأشار إلى ذلك فى مجلس فضيلة المفتى ؛ لأن هذا التقليد كان جديداً تماماً بالنسبة للتقاليد هناك فاشتهر بين الناس لدرجة أننى لما ذهبت إلى حضرة المفتى فى اليوم التالى سألنى بعضهم فى حيرة ودهشة « سمعنا أن حضره الشيخ خرج من غير لفة » ؛ فقلت : كنت قد خرجت إلى كنيسة النصارى ، ولا يناسب ملبس العلماء لهذا المكان فقالوا : والله قد أصبتم .

وذات يوم ذهبت إلى زاوية البخاريين ، وقد صادف ذلك اليوم رجوع جماعة من أثرياء بخارى وأمرائها من الحج ، وجاءوا لزيارة بيت المقدس ، وقد قابلنى شيخ الزاوية بهؤلاء الناس ، وكان يبدو عليهم الوقار والاحترام والثراء من هيئتهم وملابسهم ، وكان بعضهم من الفقهاء والعلماء ، ولأن هؤلاء الناس يعيشون تحت الحكم الروسى فقد تحدثت معهم عن الحكومة الروسية فضجوا بالشكوى واشتكوا أكثر قائلين بأن الروس يلحقون المسلمين فى الجيش قسراً ، ويضعونهم فى مقدمة المعارك مع أى دولة إسلامية ، وعلى المسلمين مواجهة إخوانهم فى الدين .

مغادرة بيت المقدس

بعد أن غادرت بيت المقدس وصلت إلى يافا ، ومن هناك ركبت الباخرة ، ووصلت إلى الإسكندرية فى اليوم الثالث ، وما إن رست الباخرة حتى واجهت مصيبة الحمالين والملاحين فهذه الآفة موجودة فى كل مكان ،

لكن الإسكندرية تتفوق على جميع الموانى فى هذا الأمر ، ووصلت إلى الشاطئ بمشقة بالغة ، وهناك هجم الحمالون ؛ فكان كل أربعة منهم يتعاركون حول راكب ، وحمل أحد الحمالين الأقوياء حقائبى فاضطررت أن أصحبه ، والإسكندرية مدينة قديمة ترجع إلى عهود سحيقة ، ومن هذه الناحية كان لابد من زيارتها ، لكنى ذهبت إلى القاهرة مسرعًا ؛ لذا استأجرت سيارة ووصلت إلى المحطة ، ومن الطريف أن حضرة الحمال جلس فى السيارة بجوارى ؛ فأى قدرة لى حتى أعترض على جرأته .

كانت المنطقة التى وقع عليها بصرى من المدينة من شاطئ البحر حتى المحطة عامرة وذات رونق وبهاء ، فالشوارع فسيحة ، وكانت الدكاكين والمنازل العالية على الجانبين ، وبعد أن وصلت المحطة علمت أن هناك تأخيراً لساعتين أو ثلاثة فقلت أتجول هنا وهناك ؛ فقد شاهدت بالقرب من المحطة مسجداً جامعًا فذهبت هناك ، كان مسجداً عظيماً ورائعًا للغاية ، وحوض الوضوء فيه واسع ونظيف ، حوله حمامات وأماكن الاستنجاء ، و لاحظت اهتماماً بالنظافة ، لدرجة أنه لا توجد أى رائحة كريهة فى المكان

تحرك القطار فى الساعة العاشرة ، وعربات القطار هنا بها كراسى بدلاً من المقاعد الحديدية ، وكل أثنين متجاورين يلتصق ظهرهما بظهر المقعدين اللذين خلفهما ويجلس فى كل درجة ثمانية ركاب ، أربعة فى ناحية وأربعة فى ناحية ، ولا توجد أى ترتيبات للنوم ، كما لا توجد تجهيزات لقضاء الحاجة ، وقد استفسرت عن هذا فعلمت أن هذا النوع من العربات موجود كذلك فى أوربا ، إلا أن الأمر الجديد الذى يخلو من

الراحة هو أن العربة فيها باعة جائلون يبيعون الفاكهة والزبد والخبز ، وهم موجودون فى كل الأوقات ، ولأنه من الممكن التجول فى جميع العربات من أولها إلى آخرها فإن البائع يظل يدور ويتجول في كل وقت ويزعج جميع من فى العربات.

لقد ذكر السير سيد أحمد خان فى رحلته مصنع القطارات والشوارع والمحطات والمصابيح هنا ، وهجا كل ما شاهده لقذارته هجاءً قاسيًا ، وربما كان صحيحا فى ذلك الوقت ، لكن لا يمكن الشكوى من هذا الأمر الآن ، فقد سافرت بالقطار من الإسكندرية إلى القاهرة ومن القاهرة إلى الإسماعيلية ، ومن وجهة نظرى لم يكن هناك أى شىء يستحق النقد .

وهذه المنطقة من مصر التى رأيتها بعينى فى هذه الرحلة كانت خضراء يانعة ، وأينما جال نظرى تبدو المزارع والحقول الخضراء ، وأنواع المحاصيل الرئيسية التى رأيتها من الإسكندرية حتى القاهرة لم أر مثلها فى مساحة خمسين هيكتاراً من الأرض فى الهند ، وقد وصل القطار إلى القاهرة قرب المغرب ، وأقمت فى لوكاندة بالقرب من الجامع الأزهر .

وفى بيروت كان عبد الباسط آفندى قد أعطانى رسالة لكى أسلمها إلى الشيخ عبد الحليم ابن عم عبد الباسط آفندى ، وكان يدرس فى الجامع الأزهر ، وقد أرسلت إليه هذه الرسالة ، وفى اليوم الثانى حضر إلى اللوكاندة ، وقال : « لو أنك جئت إلى هنا للبحث فى المسائل العلمية ولقاء العلماء والشيوخ فإن الإقامة فى اللوكاندة غير مناسبة ويعتبرها العلماء هنا عيبًا فادحًا وهكذا ذهبت إلى الأزهر طبقًا لنصيحته ، وأخلى

لى حجرة فسيحة فى رواق الشاميين ، وقد أقمت هناك أكثر من شهر ، وكان الشيخ عبد الحليم يقيم معى فى معظم الأوقات تقريبًا ، وكان ينجز لى جميع احتياجاتى ، وأصبح مرشدى وأنيسى ، ولو لم يكن من الوقاحة لقلت أنه كان عبدًا وخادمًا بلا أجر .

الحالة الإجمالية للقاهرة

هذه المدينة هى عاصمة مصر ، بل عندما تستعمل كلمة مصر فى لغة الحوار اليومية فى الوقت الحاضر فإنه يراد بها هذه المدينة ، وأسسها جوهر قائد جيش الفاطميين فى سنة ٣٥٨ هـ ، ولا تزال تتطور باستمرار منذ ذلك الوقت حتى اليوم ، وعدد سكانها الحالى ٣٧٤,٨٣٨ نسمة ، وشوارعها واسعة ، والمنازل عمومًا مرتفعة وجميلة ، وعندما كنت أتجول فى أسواقها الواسعة البهيجة خيِّل إلىَّ كأنها بومباى ، والمقاهى هنا كثيرة ومريحة ومسلية للغاية ، ومنظر الملابس والهندام هنا لا يسر ؛ فهى غير متناسقة ، فالعوام يرتدون جلبابًا طويلا أزرق وتظل ياقته مفتوحة ، ولا يرتدون البيجامة والمئزر قط، فى حين يرتدى الخواص العباءة والقفطان ، لكن لأن العباءة لا تكون ملونة لذا فإن الرقبة تظل مفتوحة وتبدو قبيحة ، بينما يستعمل المتعلمون تعليمًا حديثًا الجاكت والبنطلون ، وهذه الطريقة تزداد قبولاً وانتشارًا يومًا بعد يوم ، وملابس النساء هنا فى غاية الوقاحة والابتذال ، ولا يمكن القياس عليها فعامة النساء يرتدين جلبابًا طويلاً ، لكن السيدات الثريات اللاتى يلتزمن بالمودة الحديثة يرتدين الملابس الأوربية كلية ، وهن كذلك يربطن البيشة على برقعهن القبيح المنظر ، وعلى البرقع تتدلى خرقة سوداء مثل الخرطوم من بداية الأنف وحتى الصدر ، وتوجد حلقة من المعدن

أو الذهب لتثبيت هذه الخرقة التى تتدلى على الجبهة ، وتستعمل بدلاً من الزينة .

وتوجد دناءة كبيرة فى أخلاق عامة الناس هنا ، وهم يتوسلون بالحسين رضى الله عنه ، وبالشيخ عبد القادر الجيلانى فى أداء أثمان الأمتعة العادية ، والرجال والنساء ينسلون بكثرة ويتلوون مثل القطة ويسألون الناس إلحافًا .

وهذه البلدة (مصر) من ناحية المناخ تشبه مناخ الهند بل أسوأ ، هنا حرارة عجيبة الشكل ، وأخذت صحتى فى الضعف والاضمحلال كل وقت ، ولم يكن لدى « أى رغبة فى القيام بأى عمل ، وكنت أعتقد أننى سأنجز العديد من الأعمال هنا ، ولهذا السبب اختصرت مدة إقامتى فى بيروت وبيت المقدس حتى أستطيع الإقامة هنا ، فترة أطول إلا أن القيظ أفسد علىّ جميع خططى ، فكنت أعمل لساعة أو لساعتين فى الصباح ، وأظل بلا عمل فى الحجرة بقية اليوم .

الحالة التعليمية فى مصر

تعد القاهرة والقسطنطينية من الأماكن التى يُعتقد أنها مركز للتعليم الحديث فى الدول الإسلامية، ولهذا السبب فقد اجتهدت كثيراً فى بحث الحالة التعليمية فى البلدين، ومثلما حدث فى القسطنطينية فقد التقيت هنا بالمسئولين عن إدارة التَعليم ، وقرأت كذلك التقارير السنوية ، واطلعت على برامج العديد من الكليات ، وذهبت بنفسى إلى الكليات الكبيرة ، وشاهدت طريقة تدريس الأساتذة ، وأقدم للقراء الأمور التى توصلت إليها من تلك التحقيقات ، وبهذه المناسبة فمن الضرورى القول

إنه على الرغم من أن الوضع التعليمى فى القسطنطينية يفوق فى اتساع نطاقه وازدهاره القاهرة ومصر ، إلا أن مصر تتفوق عليها فى أمر التقارير التعليمية ؛ فهى التى تصدر عن الإدارة التعليمية فهى هنا أكثر ترتيبًا وتفصيلاً، ولهذا فإننى سوف أكتب عن الحالة التعليمية هنا بشىء من التفصيل أكثر مما كتبت عن القسطنطينية .

وهنا أيضًا (فى القاهرة) منهجان للتعليم ، قديم وجديد ، يختلف كل واحد منهما عن غيره اختلافًا كبيرًا أدى إلى الإضرار بكليهما ضررًا بالغًا ، لقد أفسد التعليم القديم خطة التعليم على مدار أكثر من ألف عام ، حيث إنه تغلغل فى الجو العام للدولة ؛ لأنه ذو طابع دينى لم تتمكن الدولة بنفوذها أن تنافسه ، ونتيجة لهذا فإنه على الرغم من أن التعليم الحديث قد توطدت دعائمه فى مصر منذ زمن ، وتكفلت به الحُكومة بنفسها بشكل خاص ، ومنحت منحًا كثيرة للطلاب فهى لا تأخذ أى رسوم من واحد وأربعين فى المائة ، ويفوز المتعلمون تعليمًا حديثًا فقط بجميع المناصب الكبرى ، ومع كل هذا فإن حالة انتشار التعليم لاتسر فلا يتعدى عدد الطلاب عشرة آلاف طالب فى جميع المدارس والكليات الصغيرة والكبيرة فى العاصمة وضواحيها ، مع أن الذين يتلقون التعليم على المنهج القديم يزيدون عن عشره آلاف فى الجامع الأزهر فقط ، وبقدر ما يخطو التعليم الحديث خطوة للأمام فإن التعليم القديم يتراجع خطوة ، ونستطيع أن نحصر عدد الطلاب فى جميع الأقسام بالمدارس الحكومية ، والذين يزيدون كل عام ؛ حيث كان عدد الطلاب المقيمين فى عام ١٨٨٧ م نحو ٤٧ فى المائة ، صاروا فى عام ١٨٨٨م ٥٦ فى المائة ، وكذلك كان عدد الطلاب غير المقيمين فى عام ١٨٨٧ م ٧١ فى المائة أصبحوا ٧٩ فى المائة عام ١٨٨٨ م .

ونثبت هنا جدولاً مفصلاً أُعد طبقًا للتقرير الصادر عام ١٨٨٨م ، وسوف يتضح منه تفاصيل جميع المدارس والكليات ونفقاتها السنوية وعدد طلابها ، وتفاصيل أخرى .

مسلسل	اسم المدرسة	المصاريف السنوية فى يونيو ١٨٨٨ م	عدد الطلاب فى يونيو ١٨٨٨ م	عدد الطلاب الذين يدفعون الرسوم	مقدار الرسوم السنوية	بدون رسوم	الذين يتلقون المنح	الحالة
١	الطب	٨٤١٢ جنيها	١٨٢	٧٩	٦ جنيه	٧٤	٢٢	جنيه
٢	الولادة	٨١٦ جنيها	١١	–	–	١١	–	روبية
٣	الهندسة	٤١٤٠ جنيها	٣٣	٧	١٥	١٢	١٨	
٤	الحقوق	٤١٤٢ جنيها	٦٢	٢٧	١٥	١٥	١١	
٥	دار العلوم	١٥٢٦ جنيها	٣١	–	–	–	٣٧	عندما
٦	الترجمة	١٤٣٥ جنيها	٣٠	٣	٦	٢٣	٢	قررت
٧	الصنائع	٧٨١٩ جنيها	٢٧٠	١٢	٦	٢٦٠	–	هذه
٨	التوفيقية	٦٤١٨ جنيها	٢٨٨	٢٥ داخلية				الكلية
				٢٢١ خارجية	٢٠	٣	١٥	كان
٩	التجهيزية	٧٧٥٤ جنيها	٣٣٠	٥٢ داخلية				يدرس
				٩٠ خارجية	١٦	١٨٥	–	بها ٥٤
١٠	المبتدئين	٤٢٨٣ جنيها	٢٥٨	٦٩ داخلية				طالباً
				٨١ خارجية	١٤	١١٨	–	
١١	الإسكندرية	١٣٦٨ جنيها	٢١٤	١٠٩	١	٧٩	–	
١٢	المنصورة	١٢٩٤ جنيها	١٤٣	٨٠	١	٧١	–	

وتوجد عشرون مدرسة خاصة إلى جانب هذه المدارس الحكومية ، ويطابق منهجها الدراسى ومقرراتها المدارس الحكومية ، وتخضع لإشراف الإدارة التعليمية فى الامتحانات وغيرها ، وقد كانت نفقات تلك المدارس ٨٢٣٣ جنيهاً فى عام ١٨٨٩ م أى ما يعادل مائة وخمسون ألف روبية تقريباً ، وبلغ عدد الطلاب فى عام ١٨٨٨ م ٢٣٦٣ طالبا .

إن عدد المدارس والطلاب يتزايد كل عام ، وقد ارتفع عدد المدارس الخاصة فى عام ١٨٩١ م من ٢٠ إلى ١٢٠ مدرسة يتعلم فيها أحد عشر ألفًا وثلاثمائة طالب ، وكذلك فإن عدد طلاب المدارس الحكومية فى تلك السنة ١٧٣٠٧ طالب وصار الدخل من الرسوم أكثر من ٢٥٠ ألفًا .[(١)]

وهناك ثلاث مراحل للتعليم في مصر :

١ – المرحلة الابتدائية : وفيها أربعة صفوف ، ومنهجها يعادل عندنا (فى الهند) المرحلة المتوسطة .

(١) يهتم الخديو الحالى بتطوير التعليم اهتمامًا بالغًا ، وبناءً على هذا فإنه فى السنة الحالية أى ١٨٩٤ م وفى تلك الجلسة التى قدمت فيها ميزانية الدولة ، كان للخديو المذكور تعليمات خاصة تتعلق بهذه المسألة ، وكانت هذه مقتطفات من أقواله : « إن تطوير الإدارة التعليمية أمر بالغ الأهمية ، ولهذا فقد وافقت فى هذه السنة على زيادة اثنا عشر ألف جنيه عن الرقم السابق (نحو مائتى ألف روبية) وتزداد رغبة الناس فى التعليم عامًا بعد عام ، حيث التحق فى هذا العام بالمدارس والكليات ألف وخمسمائة طالب زيادة عن السنوات السابقة ، وفى مذكرة على باشا اقترح افتتاح خمسمائة مدرسة ابتدائية فى القرى والمراكز ، وأميل إلى رأيه، وأريد تنفيذ هذا الاقتراح كاملاً » « وعلى كل حال فالناس الآن يرغبون فى التعليم ، وسوف أساند هذه القضية ».

٢- المرحلة التجهيزية : تبدأ بعد المرحلة الابتدائية وهى خمسة صفوف ومنهجها يعادل عندنا مرحلة القبول .

٣ - المرحلة التخصصية : أى صفوف الحقوق ودار العلوم .

وفى المدارس التجهيزية تدرس اللغة الفرنسية أو الإنجليزية ، وقد تقرر منذ عام ١٨٨٨ م تدريس الجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية باللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية كمواد إلزامية فى هذه المدارس ، ومن أجل تطوير هاتين اللغتين أصدرت وزارة المعارف الأمر بأن ينتدب أساتذة أوربيون لتدريس هذه المواد ، ولأن تأثير اللغة الفرنسية كان أكثر من قبل ؛ لذا كان عدد الطلاب الدارسين باللغة الإنجليزية ثمانمائة فقط لكن عددهم الآن أكثر من ألفين ، وكان عدد الدارسين باللغة الفرنسية نحو هذا العدد تقريباً فى عام ١٨٨٩ م .

ونتحدث الآن بشىء من التفصيل عن بعض المدارس والكليات الكبرى :

دار العلوم

إن كلية دار العلوم من بين الكليات التي أعجبتنى فى مصر ، بل فى جميع البلدان الإسلامية ، وأعتبرها بلسماً شافياً لجروح المسلمين ، وقد ثبت فى نفسى ، ورسخ فى ذهنى دائماً أن المسلمين مهما بلغوا من رقى وتقدم فى العلوم الغربية فلن يقال على تقدمهم تقدماً إسلامياً مادام لم يصطبغ بصبغة العلوم الشرقية ، نعم إن الخطة الحالية للتعليم الشرقى مختلفة وغير مجدية ، لكنها تتضمن أشياء هى بمثابة مقومات روح القومية الإسلامية ، ولا يمكن أن يحتفظ المسلمون بأى

من هـذه الأشياء مثل التاريخ والقومية والدين ما لم يكن هناك تـأثير مـطلق لـهذه الروح فى التعليم .

إن الكارثة التى أبكى عليها فى الهند هى نفسها موجودة فى تركيا وبيروت ومصر أيضا ، وهى أن التعليم الحديث يضعف من تأثير الارتباط والتمسك بالدين والقومية ، فى حين أن التعليم القديم ليس مؤهلاً لنيل العلوم مع تطور العصر الحديث ومتطلباته ، أما دار العلوم فإنها الوحيدة المؤهلة للجمع بين التعليم القديم والحديث مع أنها لم تنجح نجاحًا كاملاً حتى الآن ، وقد جاءت فكرة إنشاء هذه الكلية فى البداية فى ذهن على باشا مبارك العالم المصرى المتنور الشهير الذى تعلم العلوم الشرقية والغربية ، ويجيد اللغات الأوربية المختلفة ، وقد ظل وزيراً للمعارف فى مصر عدة مرات ، ومؤلفاته التاريخية منتشرة فى جميع بلدان العالم الإسلامى ، وهى نافعة جداً فى الحقيقة ، وقد حاول إصلاح نظام التعليم فى الجامع الأزهر ، لكن شيوخ الأزهر لم يرضوا بذلك ، فقام بتأسيس هذه الكلية فيما بعد .

كان الهدف المعلن من إنشاء هذه الكلية فى بادئ الأمر هو اختيار خريجى الكلية للتدريس فى مدارس الحكومية ، لكن فى عام ١٨٨٨ م وافقت مديرية التعليم بتصريح من الحكومة على أن يعين خريجوها فى وظائف القضاء والإفتاء على أن تضاف إلى مناهجها عدد من المواد الأخرى، وشكلت لجنة لاختيار الكتب الدراسية كان رئيسها شيخ شيوخ الجامع الأزهر .

والشرط الضرورى للالتحاق بهذه الكلية هو أن تتوفر فى الطالب قدرة لائقة فى العلوم الشرقية ، والصرف ، والفقه ، وأصول الفقه ، والتفسير ، والحديث .

ومدة الدراسة أربع سنوات ، ويتضح من الجدول التالى المواد التى تُدرس والدروس المقررة كل أسبوع وتفاصيلها :

المواد الدراسية	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة
الفقة	٥ حصص فى الأسبوع	٥ حصص فى الأسبوع	٥ حصص فى الأسبوع	٥ حصص فى الأسبوع
التفسير	–	–	حصتان	حصتان
التاريخ الطبيعى	حصتان	حصتان	–	–
علوم البلاغة	حصتان	حصتان	–	–
أصول الفقه	–	–	حصتان	حصتان
الحكمة العملية (الفلسفة)	حصة واحدة	–	–	–
الجبر والمقابلة والحساب	٤ حصص	٤ حصص	٤ حصص	٤ حصص
الجغرافيا	حصتان	حصتان	حصتان	حصتان
التاريخ العام	حصة واحدة	حصة واحدة	حصة واحدة	حصة واحدة
الإنشاء العربى	٣ حصص	٣ حصص	٣ حصص	٣ حصص
الخطوط المختلفة	٤ حصص	٤ حصص	٤ حصص	٤ حصص
الرسم	حصة واحدة	حصة واحدة	–	–
آداب اللغة العربية	–	–	٣ حصص	٣ حصص
العلوم الطبيعية	–	–	حصتان	حصتان
الطبيعة والكيمياء	–	–	حصتان	حصتان
الحديث والكلام والمنطق	–	حصتان	حصة وحدة	–
النحو والصرف والعروض والقوافى	٣ حصص	حصتان	–	–

ويمكن للطلاب الذين يقفون على العلوم العربية والفقه والحديث أن يلتحقوا بهذه الكلية ، وتستطيع هذه الشريحة من الطلاب تلقى تعليمها طبقًا للمنهج القديم ، لهذا فإن عدد الطلاب فى الكلية قليل جداً ، ولهذا السبب فإن إدارة التعليم لم تقرر أى رسوم على هذه الكلية ، بل إن كل طالب فيها يحصل على منحة شهرية قدرها خمس عشرة روبية (قرشًا) ، وفى وقت من الأوقات كانوا يحصلون على الطعام من الكلية أيضًا ، والزى الذى أُلزم به الطلاب هو نفسه زى الشيوخ القديم ، والذين يتخرجون من هذه الكلية يفوزون بمناصب رسمية رفيعة ، هذا كل شىء ، لكن يسلب منهم التعليم القديم ؛ فهم فجأة يستوحشون العلوم الحديثة طوال عمرهم مع أن هذه العلوم ذاتها تُدرس باللغة العربية ، وحينما زرت هذه الكلية كان عدد الطلاب أربعة وخمسين طالبا ، معظمهم من خريجى الأزهر .

ومنهج التدريس هنا منهج خاص فلا يوجد أى كتاب فى يد الأستاذ أو التلميذ ؛ فالأستاذ يلقى المحاضرة مشافهة ويشرح بفصاحة وتوسع ، فترسخ الأفكار فى القلب والذهن ، ولهذا فقد أختير للتدريس فيها أشهر علماء مصر مثل الشيخ حمزة فتح الله أستاذ الأدب ، والشيخ حسن الطويل مدرس الحديث ، والدكتور عثمان بك أستاذ التاريخ الطبيعى ، وهؤلاء جميعا أشهر علماء مصر ، ومؤلفاتهم جديرة بالتقدير البالغ، ومعظم مشاهير أدباء العربية فى مصر اليوم من خريجى هذه الكلية ، والمنهج الذى قُرر فى الأدب لم يؤخذ من أى كتاب خاص أو مختارات من عدة كتب ، بل تضمن مقتطفات نادرة من الأدب العربى ، والتى يجب القول إننا نطلق عليها روح فن الأدب ، وهكذا فإنهم فى

التفسير يدرسون تلك الآيات التى لها أهمية أكبر من حيث البلاغة أو الأخلاق أو المسائل الكلامية ، وعلى سبيل المثال فإن منهج الدراسة الذى قُرر عام ١٨٩٠ م شمل تفصيلاً لجميع المقامات ، وطُبع فى المطبعة الحكومية ثم نشر .

وقد حضرت بنفسى دروس الفقه والأدب ؛ كان الأستاذان كلاهما يشرح بدقة وفصاحة لاتزال حتى الآن مرتسمة فى قلبى ، ياليت علماءنا فى الهند يقلدون هذه الطريقة ، ويكفى للشهادة على كفاءة طلاب هذه الكلية أننى عندما زرتها طلب سكرتير الكلية أحمد بك نظيم طالبًا اسمه أحمد القوصى ، أن ينظم أبياتا فى مدحى (بعد أن أشار إلى) فجلس أحمد القوصى على أحد المقاعد ثم قرض هذه الأبيات التالية وأنشدها :

محمد أنت شبلى المعالى — لقد فقت الورى وعلوت قدرا

وقد أوليتنا شرفًا وفضلاً — بتشريف زيارة أرض مصرا

فلا زلنا نراك بكل أنس — تزيد تفضلاً ونزيد شكرا

ومع أن تركيب شبلى المعالى غير منسجم ، وهناك إقواء فى البيت الثانى ، إلا أننى أثنيت عليه من حيث روعة الإلقاء وجمال اللغة .

مدرسة الحقوق

يتم تدريس القانون فى هذه الكلية ، ويعين الذين يحصلون على شهادتها فى وظائف مدنية ، ومن الشروط اللازمة للالتحاق بهذه الكلية أن يتجاوز عمر الطالب ست عشرة سنة ، وأن يحصل على شهادة

المرحلة التجهيزية ، وأن يتصف بسلوك حسن ، وأن يكون قوى البنية والجسم لم يُصيب بأمراض فى مرحلة الطفولة ، وأن يجرى له امتحان خاص شفوى وتحريرى عند الالتحاق ، ويتضمن الامتحان التحريرى أسئلة تتعلق بمعرفة اللغتين العربية والفرنسية ، والشفوى يشمل التاريخ والجغرافيا بالإضافة الى هاتين اللغتين ، وبعد النجاح فى هذا الامتحان يُحضر إقرارا من والده أو ولى أمره يتضمن هذه الكلمات « أقر أننى مسئول عن سير وسلوك الطالب فى الأوقات التى يكون فيها خارج الكلية » ، وبعد جميع هذه الأمور يدفع خمسة عشرة جنيهاً أى ما يعادل مئتا روبية تقريباً كرسوم التحاق وحينئذ يُلحق الطالب بالكلية ، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات ، والمقررات الدراسية حسب ما يلى :

١ - السنة الأولى : اللغة العربية ، واللغة الفرنسية ، والترجمة ، وإمساك الدفاتر (أى الإملاء والكتابة) ، والشريعة الإسلامية ، وقانون القضاء والمحكمة ، والقانون العام ، ومبادئ السياسة العامة .

٢ - السنة الثانية : القانون الرومانى ، والقانون العسكرى، بالإضافة إلى المواد السابقة .

٣ - السنة الثالثة : المواد السابقة ، والاقتصاد السياسى ، وقانون الجرائم ، والمرافعات المدنية والتجارية.

٤ - السنة الرابعة : الشريعة الإسلامية ، والاقتصاد ، والسياسة ، والمرافعات ، وقانون التجارة ، وقانون القضاء ، والقانون الخاص بالدولة .

ويؤدون امتحان كل عام فى مواد مختلفة ، وجميع الامتحانات والامتحان النهائى تتم باللغة الفرنسية فيما عدا امتحان الشريعة

الإسلامية فيكون باللغة العربية ، وعندما يكتسب الطلاب أى خبرة أو استعداد قانونى يرسلون إلى دار القضاء العالى والمحاكم الأخرى للوقوف على أعمالها ، ويطلب منهم كتابة خلاصة ما يشاهدونه من قضايا ، كما تقدم نماذج للمحاكم فى الكلية ويتدرب الطلاب على الحكم فى القضايا ، والاستجواب ، والإدلاء بالشهادة ، والبيانات التحريرية ، وما يتعلق بكتابة الدعوى ، وقد تجولت فى هذه الكلية جيداً ، ومدير الكلية فرنسي ، وهو لا يعرف اللغة العربية مطلقًا ، بينما نائبه شاب مسلم ، وهو إنسان جدير بالاحترام ومهذب للغاية ويجيد عدداً من اللغات وهو أستاذ فى الكلية كذلك ، ويستطيع أن يحاضر باللغة الفرنسية بفصاحة بالغة ، وقد اصطحبنى الى فصله وقال اليوم كان يوم إلقاء المحاضرة باللغة الفرنسية ، إلا أننى من أجلك سألقيها باللغة العربية ثم نهض وألقى محاضرة فى قواعد قانون الجرائم ، وكانت محاضرة شاملة وجامعة وفى غاية الفصاحة ، وكان الطلاب فى جميع الفصول فى صورة بهية ، ملابسهم نظيفة وعلى وجوههم الوقار والرزانة .

مدرسة الترجمة

فى مصر تأثير كبير للغتين الفرنسية والإنجليزية ، والفرنسيون والإنجليز هم الذين يمتلكون جميع المناصب والوظائف الكبيرة والخطيرة ، ويحتاج المصريون إلى تعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية حتى يعاونوهم فى العمل ، وقد أسست هذه الكلية للقيام بهذا الغرض ، ولهذا السبب كانت مقيدة بتعليم اللغات فى البداية ، وكانت تعتبر مدرسة عادية ، ثم وسع نطاق مشروعها سنة ١٨٨٨ م ، وجاء للتدريس فيها أربعة أساتذة

آخرون بينهم أستاذ فرنسى ، وقد التزموا بتعليم اللغات العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية إلى جانب الجغرافيا والتاريخ والحساب والهندسة والجبر والعلوم الطبيعية والكيمياء والفقه والتوحيد ، وهذه المواد كلها تُدرس باللغة الفرنسية فيما عدا الفقه والتوحيد ، وبعض المواد تدرس باللغة الإنجليزية ، ومثلما تفيد هذه الكلية مصر من ناحية الاحتياجات الوطنية ، فقد ثبت أنها مفيدة جداً للتطور العلمى ، فاللغة العلمية فى مصر حتى الآن هى اللغة العربية ، سوف تظل للأبد فى الأغلب ، والكتب التى تُدرس فى الكليات ترجمت من اللغة الفرنسية بشكل عام ، وأقيمت إدارة خاصة لهذا الغرض ؛ فكانت الكتب الجديدة النافعة ورسائل الدكتوراه وغيرها تترجم فوراً بعد نشرها فى فرنسا وتقرر فى منهج الكليات ، ولذلك تُرجمت وتترجم مئات الكتب آنذاك ، وقد أنجزت هذه الكلية جميع المهام المناطة بها .

مدرسة الطب

هذه كلية كبيرة جداً ، ونفقاتها السنوية تزيد على مائة ألف ، ومبنى الكلية واسع رحب وبها قاعات واسعة ومنفصلة بكثرة ، مخصصة لتعليم المواد المختلفة ، وقاعة التشريح واسعة للغاية ، ويوجد بها جثث كثيرة فى كل وقت ، لكى يجرون عليها التجارب العملية ، وفى عام ١٨٨٨ م افتُتح معمل خاص منفصل لتدريس التشريح ، وهناك مكان فسيح لتدريس علم الحيوان ؛ حيث يوجد به جميع الحيوانات بكثرة ، وتوجد حديقة مزروعة نباتات داخل سور الكلية أعدت من أجل علم النبات ، فيها مئات الأنواع المختلفة من النباتات التى تتم رعايتها بدقة وعناية فائقة ، وعلم الكيمياء جزء عام وأساسى فى تعليمها ، وكان تدريسها يتم

بالطريقة النظرية فقط حتى عام ١٨٨٨ م ، وفى عام ١٨٨٧ م أُلحقت بمبنى الكلية قاعات واسعة ومتعددة من أجل التجارب العملية ، وفى عام ١٨٨٨م جُهزت بالغاز والأشياء الأخرى الضرورية من أجل التجارب العملية ، ويتخرج من الكلية جماعة كبيرة كل عام ، ويبعث نخبة من الخريجين إلى أوربا لإكمال دراستهم .

جميع المقررات الدراسية فى هذه الكلية باللغة العربية ، وهى مترجمة عن اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية ، ولأن العلوم والفنون فى أوربا – وكذلك علم الطب – تتطور يومًا بعد يوم باستمرار ، وتُضاف كل عام كثير من المعلومات الحديثة إلى المناهج والمقررات ، لهذا شكلت لجنة خاصة من أجل هذا الغرض، وترجمت فى ذلك الوقت إلى اللغة العربية الكتب التى صدرت باللغة الفرنسية وغيرها من اللغات ، وأُدخلت ضمن منهج هذه الكلية ، وبهذه الطريقة أُعدت ذخيرة ضخمة من الكتب المترجمة المتعلقة بالطب ، ويمكن معرفة عددها من فهرس المكتبة الخديوية ، كما ألف علماء مصر أنفسهم كثيرًا من كتب الطب فى هذا العلم ، ونقدوا كتب الطب اليونانى الموجودة حاليًا ، فياليت أطباء بلدنا (الهند) الذين حرموا من الأبحاث الأوربية بسبب عدم معرفتهم للغة الإنجليزية تصلهم هذه المؤلفات الحديثة ليستفيدوا منها ، ولكن أين همة قومنا من هذا ؟! وعدد الأساتذة فى هذه الكلية خمسة عشر ، ثلاثة منهم أوربيون ، والباقى مصريون .

الكليات والمدارس الأخرى

إلى جانب تلك الكليات هناك كليات أخرى عديدة مثل الهندسة والصناعة ، وهى فى حالة متقدمة تدرس العلوم والفنون فى كلية الهندسة ، وقد طبعت رسالة منفصلة فى القواعد المتعلقة بامتحان الالتحاق بها ، عدد صفحاتها إحدى وخمسون صفحة ، ويتضح من مطالعتها أن خطة التعليم متقدمة جداً ، وعندما زرت هذه الكلية اشتكى لى المسئول عنها قائلا بأن المدير الحالى للإنشاءات العامة قد أضر بهذه الكلية ضرراً فادحاً ؛ فقد كانت المقررات هنا قبله هى نفس المقررات فى كلية الهندسة فى فرنسا ، ولهذا السبب كانت المواد تدرس باللغة الفرنسية ، لكن الآن وبناءً على أوامر المدير فإن المواد تدرس باللغة الإنجليزية وتقليداً لكلية « روركى » فى الهند ، وكان المدير يقول : نطلب هنا الكتب المستعملة فى روركى، وقد رأيتها وهى كتب متخلفة جداً عن المنهج الدراسى الموجود هنا ، ولكننا مضطرين لتدريسها .

ومدرسة الصنايع التى تدرس فيها الصناعات والحرف ، نفقاتها السنوية أكثر من مائة ألف فى وضع متطور للغاية ؛ حيث تدرس الحدادة والنجارة وغيرها من الصناعات ، وهى تدرس بطريقة علمية ، وبناءً على هذا فإن لم يكن لأى طالب لم يحصل على التعليم الإبتدائى أن يلحق بها ، وتدرس لطلابها مبادئ الطبيعة ، والكيمياء ، والآلات ، والعلوم الرياضية ، إضافة الى اللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية ، وتدرس لهم تلك المواد النظرية ثلاث ساعات يومياً ، ويتدربون عملياً على الصناعات المختلفة لمدة سبع ساعات ، وأصدرت وزارة المعارف (الإدارة التعليمية) تقريراً بأن هذه المدرسة متطورة جداً، وأن المصنوعات التى تصنع هناك مثيرة للتعجب .

والمدارس العامة موجودة هنا بكثرة ، والمدارس التجهيزية مدرستان هما : التوفيقية ، والتجهيزية ، والنفقات السنوية للمدرسة التوفيقية تتجاوز مائة ألف ، ويتعلم بها نحو أربعمائة طالب ، وتضم صفوفًا ابتدائية أيضًا ، ومبنى هذه المدرسة جميل ورائع وفسيح ، وقد أهدى خديو مصر للمدرسة قصرًا كبيرًا من القصور الملكية اسمه قصر النزهة ، ولأن وضعه لم يكن مهيئًا للأغراض التعليمية فقد منحها خمسين ألفا أخرى لإجراء الإصلاحات والترميمات المناسبة ، وهكذا فطبقا لنصيحة سكرتير المدرسة أجريت على مبناها التحسينات والترميمات ، ولأن المدرسة كانت بها ثلاث مراحل تعليمية هى القسم الخاص ، والابتدائية ، والتجهيزية ؛ فقد تم تشييد ثلاثة مبان منفصلة لهم ، كما بنوا حجرات جديدة لإقامة ثلاثمائة وخمسين طالبا ، وكذلك قاعتين واسعتين متصلتين بالمدرسة ، وذلك للتدريب على الرسم وللتجارب الكيميائية ، وهما فى غاية الجمال .

والنفقات السنوية للمدرسة التجهيزية لا تقل عن مائتى ألف ، ويتعلم بها أربعمائة طالب ، ويحصلون رسومًا سنوية للإقامة قدرها خمسة وعشرون جنيهًا أى أربعمائة وخمسون روبية ، ومع أن دار الإقامة ليست فسيحة وليس للطلاب حجرات منفصلة ، إلا أن جميع الطلاب يعيشون طبقًا لقواعد صارمة ، والوقت الذى زرت فيه المدرسة كان وقت طعام ، فقال لى سكرتير المدرسة واسمه أحمد بك نظيم لنتجول أولاً فى صالة الطعام ، كانت الصالة واسعة ومرتبة ، وتحتوى على منضدتين أو ثلاث ، حولها كراس كثيرة ، وبالرغم من أن طريقة الأكل لم تكن مثلما فى الشام والقسطنطينية أى كل أربعة من الطلاب

أمامهم طبق وسكين وشوكة ، ومع هذا فقد تعجبت بل اندهشت ؛ لأن الطلاب كانوا يأكلون بنظافة ونظام ، ولم تكن أيديهم تمتلئ قط ، ولم يكن هناك أى أثر لبقايا طعام على مفرش المائدة ، كان الطلاب يتحدثون فيما بينهم بدون ضوضاء ولا ضجيج ، وقد استفسرت عن هذا الأمر فعلمت أن هناك موظفًا أو موظفين من موظفى المدرسة يتناولون الطعام مع الطلاب دائمًا ، وتلقى محاضرة كل أسبوع عن آداب تناول الطعام .

المتعلمون فى أوربا

والطريقة المتبعة منذ فترة فى مصر أن ترسل الحكومة كل عام عدداً من الطلاب إلى أوربا لإكمال دراستهم ، وقد راعوا أن يظل فى أوربا ثلاثون طالبًا بشكل دائم ، وتتحمل الحكومة المصرية جميع نفقات إقامتهم هناك ، ومع أن الحكومة المصرية تحملت النفقات بكرم بالغ ، لكن لسوء الحظ فإن الحكومة والدولة لم يحققا الفائدة المرجوة منهم لفترة من الوقت ، والطلاب الذين تلقوا تعليمهم ورجعوا (مثل الهند) لم يبرع أحد منهم فى أى فن من الفنون إلا نادراً ، أو أنهم لم يستطيعوا هم بأنفسهم أن يفيدوا الدولة ، وفى النهاية اهتم مدير الإدارة التعليمية بالأمر ، وأدرك أسباب هذا الخلل بعد التحقيق والدراسة ، وكان من بين أكبر أسباب هذا الخلل سوء التقدير فى اختيار الطلاب ، وأنهم كانوا يرسلون طلابا فى أعمار متقدمة فى أغلب الأحيان ، ولأنهم لم يتلقوا تعليمًا ابتدائيًا جيداً كان تأثير التعليم والتربية الأوربية عليهم ضعيفا ، ومن ذلك الوقت اتخذ قراراً ملزمًا بألا تتجاوز أعمار الطلاب الذين سيرسلون فى بعثات فى المستقبل اثنى عشر عاما ، وكانت هناك مشكلة ؛ إذ لم تكن هناك أى ترتيبات لتدريس اللغة العربية والدين ، وبناء على

هذا تقرر أن يذهب عدد من العلماء بصحية هؤلاء الطلاب ليدرّسوا إليهم اللغة العربية والدين ، وقد ثبت جدية هذا النهج للغاية ، وعندما اطلع الشعب على هذه الأمثلة الممتازة من الطلاب بدأ الناس فى إرسال أولادهم على نفقتهم الخاصة حتى وصل عدد الطلاب الذين تعلموا فى أوربا فى عام ١٨٨٨ م إلى خمسة وعشرين طالبًا من جانب الحكومة واثنين وخمسين طالبا كانوا يدرسون على نفقتهم الخاصة ، وفيما يلى ثبت مفصل عن عدد الطلاب الذين كانوا يدرسون فى أوربا عام ١٨٨٨ م :

طلاب على نفقة الحكومة	طلاب على نفقتهم الخاصة	العلوم التى يدرسونها
٥	١٧	المحاماة
٤	١٢	الطب
١	–	المحاسبة
٣	–	التربية والتعليم
–	٢	الزراعة
١	–	الإعداد للمحاماة
–	١	الإعداد للكلية الفنية

وكان من بينهم ثلاثة عشر طالبًا يحصلون على منحة من جانب الدولة نالوا أعلى الدرجات ، ومنهم رشدى طبو زاده الذى حصل على شهادة الدكتوراه فى المحاماة ، وطالب آخر اسمه إسماعيل أفندى حصل على درجة عالية فى كلية بفرنسا ، وكان ترتيبه العاشر على الكلية فى امتحان الطبيعة بالرغم من أن الذين شاركوا فى الامتحان

كان عددهم ثلاثمائة وواحد وخمسين ، كانوا جميعًا من الفرنسيين ، وكان هناك طالب آخر اسمه عبد الله نال الجائزة الأولى فى الاقتصاد السياسى ، وإلى جانب هؤلاء الطلاب كان هناك طلاب آخرون يدرسون فى إنجلترا وإيطاليا وألمانيا ، وبعض هؤلاء الطلاب كانوا يتعلمون كيفية صناعة وتركيب الآلات ، وكانت الحكومة المصرية تدفع لهم جميعًا النفقات .

وقد كتب مدير التعليم تقريراً مفيداً للغاية بالأدلة والبراهين عن عام ١٨٨٨ م يتعلق بالتعليم فى أوربا ، خاطب فيه أهل وطنه قائلا بأن هؤلاء الطلاب لو لم يراعوا بعض الأمور الخاصة فلن يستطيعوا الحصول على أى فائدة من التعليم الأوربى ، كما اتضح من التجربة الطويلة ، ويذكر أنه من الضرورى بالنسبة لهؤلاء الطلاب الصغار فى السن جداً أن ينتهوا من الحصول على شهادة الثانوية قبل أن يذهبوا إلى أوربا ، وهذه شكوى عامة لدينا فى الهند ، وأقصد أنهم يتحملون كثيراً من النفقات للتعليم فى أوربا ، ويصعب وجود النفقات الكافية لتعليمهم ، وهذه شكوى فى محلها ، وفى الغالب هذا هو نفس السبب الذى ذكره مدير التعليم فى مصر .

التعليم القديم والجامع الأزهر

التعليم القديم هنا ، وبعبارة أخرى التعليم فى الجامع الأزهر ، ومن أجل بيان حالة التعليم القديم نكتفى بذكر حالة الجامع الأزهر ، الذى يقال عنه إنه لا توجد أى جامعة فى العالم أقدم منه ، وهو أول مسجد جامع ، وأول مسجد أسس فى القاهرة حيث كان للخليفة المعز لدين الله من دولة الفاطميين فى مصر غلام من سكان صقلية اعتمدت

عليه الدولة الفاطمية لموهبته وجدارته ، قام بتأسيس هذا المسجد سنة ٣٥٩ هـ ، وتم بناؤه في سنة ٣٦١ هـ ثم بنى الخليفة العزيز بالله غرفًا للطلاب ملحقة بالمسجد في عام ٣٧٨ هـ ، وأجرى الجراية لخمسة وثلاثين طالبًا ، وجدد الحاكم بأمر الله في عمارة المسجد سنة ٤٠٠ هـ ، ووقف لنفقاته ضيعة بـ ١٦٧ دينارًا سنويًا ، وأسس الأمير طواشي مدرسة خاصة لليتامى سنة ٧٦١ هـ ، وإلى جانب هذا وقف كثيرًا من الأملاك والأوقاف لجميع طلاب المسجد حتى أصبح تدريجيًا مركزًا علميًا كبيرًا ، وتجاوز عدد طلابه سبعمائة طالب سنة ٨١٨ هـ ، وكان يضم أناسًا من كل بلد وكل قوم ، وليست في العالم جامعة تضاهيه في الوقت الحاضر في كثرة عدد الطلاب ، ويقيم في المسجد نفسه نحو أربعة آلاف طالب ، وكثير من الطلاب يسكنون في المساجد المجاورة ، لكنهم يحصلون على الطعام من هنا ، والخلاصة أن عدد جميع الطلاب المنتمين للجامع الأزهر يتجاوز اثني عشر ألفًا ، ولطلاب كل بلد غرف منفصلة تسمى هنا بالرواق ، وكثير من الطلاب بل معظمهم ليست لهم غرفة يسكنون فيها ، وفي صحن المسجد مئات بل آلاف الدواليب الصغيرة بعضها فوق بعض ، وهذه هي غرف معيشتهم يضعون فيها ملابسهم وأمتعتهم الضرورية ، ويتسع صحن المسجد بأكمله للجلوس والنوم ، وعندما جئت لزيارة المسجد لأول مرة كان الدوي والضجيج ينبعثان من بعيد من داخل المسجد ، فلما دخلت فيه وجدت المدرسين يلقون دروسهم على الطلاب في كل جنبات المسجد ، ويتحلق حوالي ثلاثين أو أربعين طالبًا حول كل أستاذ ، وعدد هذه الحلقات لم يكن أقل من ثلاثين أو أربعين ، ولأنها كانت متقاربة ؛ لذا كان هناك هذا القدر من الضوضاء والضجيج الذي لم تسمع الأذن صوتا هائلا مثله ، وقد اعتقدت أن اليوم هو مناسبة خاصة ،

لهذا السبب اجتمع الطلاب بكثرة ، ولكن بعد أن مكثت عدة أيام اتضح لى أنها حالة عادية ، وتساءلت هل يصل صوت المدرسين وسط هذا الضجيج إلى مسامع الطلاب أم لا .

وقد تم بناء أروقة لطلاب تلك الدول مثل الشام والمغرب والجزيرة والعراق وبخارا وخراسان وأفغانستان والهند وغيرها ، ويتلقى المقيمون هناك مبلغا من المال سنويا من التجار بشكل دائم ، ويعطونه لهؤلاء الطلاب على شكل مصروف جيب، كما يتلقى الطلاب الطعام المعتاد من الأزهر نفسه ، ولأنهم يحصلون على الخبز فقط ؛ لذا يقع على عاتقهم توفير الإدام ، فكان كثير من الطلاب الذين يتلقون أربعة أو خمسة أرغفة يعطون الخباز رغيفين أو ثلاثة مقابل حصولهم على الإدام ، وهكذا لا يتحمل مصروف جيبهم أى أعباء ، وكانت طريقة توزيع الخبز كالتالى : وهو أن تقف جماعة من الطلاب فى صفين فى السوق الذى أمام المسجد فى وقت محدد ، ويبدأ تقسيم الأرغفة ، وبعد المجموعة الأولى تأتى المجموعة الثانية ، ويستمر هذا الأمر لعدة ساعات ، ولم يكن فى يد الطلاب أى منديل أو قطعة من القماش ، والطلاب يعمدون إلى التسول ، فعندما يصادفون أحداً يبسطون له أيديهم ، وهذه هى حالة هؤلاء الطلاب .

ويتجاوزعدد المدرسين الأربعين والمدرس الأول ، والذى يسمى شيخ الأزهر، والذى لا يقل مرتبه عن ستمائة أو سبعمائة جنيهًا شهريًا رجل مبجل ومحترم غاية الاحترام لدرجة أن الحكومة ذاتها تذهب عنده ولاتقل النفقات الكلية لهذه المدرسة عن مائتين أو ثلاثمائة ألف سنويا ، وعلاوة على هذا الرقم فقد وافقت إدارة التعليم فى عام ١٨٩٤ هـ على إضافة مائتى ألف جنيه سنويا إلى هذا الرقم.

لم أتأكد من شقاء المسلمين في رحلتي هذه بشيء مثلما تأكدت منه من حالة الجامع الأزهر ؛ فهذا الصرح العلمي الكبير الذي يقصده الطلاب المسلمون من جميع أنحاء الدنيا وتتجاوز نفقاته السنوية ثلاثمائة ألف ، ويزيد عدد طلابه على اثنى عشر ألفًا ، وكانت الآمال معقودة على تعليمهم وتربيتهم ، لكنه للأسف قد أضاع مئات الألوف من المسلمين بدلاً من أن يفيدهم ، إن منهجه التربوي الذي ذكرته الآن يقضي على الطموح وسعة الأفق والحماس والعزيمة وجميع الصفات الحميدة ، وقد رأيت هنا طلابًا يتمتع أقاربهم المقربون (الأعمام والأخوال وغيرهم) بمناصب ووظائف كبيرة في نفس المدينة ، ويتكفلون بجميع نفقاتهم ، ورغم ذلك – ولأن هؤلاء الطلاب يعيشون في الأزهر ، فإنهم لا يستحيون من التسول في الأسواق العامة وسؤال الناس أرغفة الخبز ، وقد بلغت الدناءة وضعف الهمة لدى الطلاب مبلغا حتى إنهم عندما يشترون الخضراوات والبقول من السوق فإنهم يقسمون للباعة برأس سيدنا الحسين (رضي الله عنه) في كل تعاملاتهم ؛ فهل يرجى خير من هؤلاء المتعلمين بعد ذلك وهم الذين يعول عليهم في نشر الإسلام بعد ذلك ؟ ولدينا في بلدنا مثل هذا النوع من المدارس فما بالنا بما يحدث في الأزهر !

وأكبر ما تأسفت عليه هو فساد التعليم حيث يتم التركيز هنا وبشكل مستقل على تعليم النحو والفقه فقط وقرر لهما ثمان سنوات ، ولاحظ للمنطق والفلسفة والحساب والعلوم العقلية في مقرراته ، ويدرس هنا أصول الفقه والتفسير والحديث والأدب والمعاني والبيان ، ولكن بقدر ضئيل لا يتناسب مع مثل هذه الجامعة الكبيرة في حين يبدد العمر في النحو والفقه ، وتعليمهما خال من منهج التحقيق والاجتهاد وتدرس

الكافية وغيرها من الشروح ، وشروح الشروح ، وحواشى الشروح ، وفى الوقت الحالى يعيش الشيخ الصبان ، وهو عالم كبير وله أحد الشروح ويعد هذا الشرح من الشروح المهمة ؛ حيث تدخل شروحه والحواشى على شروحه ضمن المنهج الدراسى .

ويعتقد أن الفضل كل الفضل له فى ضبط وتحقيق وحفظ هذه السلسلة بأكملها ، ولأننى كنت أقيم فى الأزهر بنفسى ، وكنت أتجاذب أطراف الحديث مع الطلاب فقد لاحظت أنهم كانوا يهتمون فى أبحاثهم بالجوانب الفرعية الجزئية ، وللأسف فقد استمر تأثير هذه الطريقة العقيمة فى التعليم زمنًا فلم يخرج الأزهر عالمًا أو مؤلفًا مشهوراً ، وقد سألت الطلاب هل لشيخ الأزهر - الذى يعد الأستاذ الأول - أى مؤلفات ؟ فقالوا بفخر شديد نعم له حاشية لمعارك الشيخ الصبان.

ومما يؤسف له أن التعليم لا يرتكز إلى أى أصول أو قواعد ؛ فليس هناك تقسيم للصفوف والمراحل، ولا أى مقررات دراسية ولا امتحانات ، ولم تقرر أى قواعد للترقى ولا اهتمام لهم بإصلاح هذه العيوب ، وعندما حاول على مبارك - وكان وزيراً للتعليم فى ذلك الوقت - إصلاح الأزهر ناصبه جميع علماء الأزهر العداء ، ولأن شيخ الأزهر لا ينحصر نفوذه على الطلاب فحسب ، بل إن جميع من فى الدولة يسلمون بزعامته ، لذلك تراجع عن إصلاحاته ، والأزهر فى الحقيقة قوة وطنية كبرى حتى إن الحكومة لا تجرؤ على مخالفته بسهولة.

المكتبة الخديوية

هى مكتبة كبيرة وعظيمة جداً تفوق جميع مكتبات القسطنطينية من حيث الجمال المعمارى ونظامها وتنسيقها وأسلوب ترتيبها وحسن

إدارتها ، ومبناها فخم وواسع يحتوى على أقسام مختلفة ، وبها قسم خاص للقراءة والمطالعة ، وتضم ثلاث قاعات كبيرة ، وفى كل قاعة منضدة طويلة جداً عليها مجلدات من الفهارس وقاعة للقراءة وأخرى خاصة للكتابة والنسخ ، والشخص الذى يريد استعارة أى كتاب يعطيه أمين المكتبة استمارة مطبوعة ومدون فى الاستمارة البيانات التالية بالتفصيل / اسم مستعير الكتاب ومحل الإقامة والعمل واسم الضامن (لا يستطيع الشخص الأجنبى استعارة كتاب دون ضمانة) اسم الكتاب والموضوع ، وهل هذا التصريح باستعارة الكتاب للمطالعة أم للنسخ وعدد الأيام ؟ وتسلم هذه الاستمارة لموظف المكتبة بعد ملء البيانات ، وبعد فترة وجيزة يأتى الكتاب فى القاعة للمطالعة أو للنسخ ، وهذه الطريقة مع أنها دليل على حسن النظام ، لكنها لا تخلو من التعب والمشقة .

وتوضع الكتب بأحجام مختلفة وبشكل منفصل فى قاعات متعددة ، وإحدى هذه القاعات واسعة وفسيحة ومفروشة بسجاد تركى غالى الثمن ، وتوجد فى حوائطها الأربعة دواليب زجاجية ، وفى وسطها مناضد زجاجية ، والمخطوطات النادرة موضوعة فى دواليب زجاجية مفتوحة الصفحات من بينها إحدى نسخ القرآن المكتوبة على جلد غزال ، ويقال بأنها بخط الإمام جعفر الصادق ، وإلى جانب هذا توجد نسخ نادرة أخرى من القرآن الكريم كان سلاطين مصر قد أوقفوها لله فى القرنين الثامن والتاسع .

وقد أنشئت هذه المكتبة فى سنة ١٢٨٦ هـ وتاريخها باختصار هو أنها كانت فى بداية الأمر عبارة عن مكتبات صغيرة عديدة وقفها أصحابها لطلاب العلم فى القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن ، وكانت الكتب

تتلف وتضيع ؛ لأنه لم تكن بها ترتيبات كافية للمحافظة عليها ، ولهذا السبب أقيمت هذه المكتبة بناء على تقرير على باشا مدير إدارة التعليم ، وضمت إليها جميع الكتب فى المكتبات القديمة . وتكون مجلس من العلماء بأمر الخديو ، وكانت مهمته هى إعداد فهرس بالكتب القديمة والنادرة حتى ينسخوها ويضموها إلى المكتبة ، وعندما جمعوا ذخيرة لا بأس بها من الكتب أمر الخديو بإعداد فهارس لها ، وهكذا فقد بدأوا فى إعداد هذه الفهارس فى سنة ١٣٠٠ هـ وانتهوا منها سنة ١٣٠٩ هـ ، ويحتوى هذا الفهرس على ثمانية مجلدات للكتب العربية فقط ، وللكتب التركية والفرنسية والإنجليزية فهارس منفصلة .

ويمكننا أن نحصل على نظرة إجمالية فيما يتعلق بالكتب العربية من خلال هذا الجدول :

اسم الموضوع	عدد الكتب	اسم الموضوع	عدد الكتب	اسم الموضوع	عدد الكتب
قرآن كريم	١٦١	التاريخ	١١٨٤	الفقة الحنبلى	١٢٦
القراءات	٨٥	علم الهيئة	١٩	علم الصرف	٢٣٨
تفسير	٦٤٧	علم الحروف والأسماء	١٨٥	البلاغة	٣٨٥
مواعظ	٣٧٧	الطب	٤٦٤	علم اللغة	١٦٠
أصول فقه	٢٣٥	الحكمة والفلسفة	١٢٤	علم الأدب	١٢٤٩
الفقه الحنفى	١٤٥١	الحديث	١٥٠٣	الرياضيات	١٨٨
الفقة الشافعى	٥٢٠	التوحيد	٥٦٣	علم الميقات	٥٥٤
الفرائض	١٣٨	التصوف	٧٠٥	الكمياء والطبيعة	٩٥
النحو	١٠٢٩	الفوائد والأدعية	٦٤٤	المنطق	٢٥٦
علم الوضع	١٨	آداب البحث	٢٠٨	موضوعات مختلفة	١٠٩٦
العروض والقوافى	٦٨	الفقه المالكى	٢٣٧	العدد الكلى	١٤٧٠٠

وأذكر فيما يلى أسماء بعض الكتب القديمة والنادرة الموجودة فى هذه المكتبة :

١- **التفسير:** أحكام القرآن لأبى بكر الجصاص (المتوفى٣٠٥هـ) وأحكام القرآن لابن العربى ، وأحكام القرآن لكيا الهراسى (المتوفى ٥٠٤ هـ) ، وإعراب القرآن للنحاس النحوى (المتوفى ٣٣٨ هـ) ، وإعجاز القرآن للباقلانى ، والبحر المحيط لابن حيان الأندلسى ، والبرهان للشيخ أبى الحسن الأوحدى (المتوفى ٤٣٥ هـ) فى عشرة مجلدات ، والبسيط للواحدى وتنزيه القرآن للقاضى عبد الجبار المعتزلى ، وجامع البيان فى تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبرى فى واحد وعشرين مجلدا ، وتفسير ابن الجوزى فى أربعة مجلدات وتفسير الحافظ عبد الرزاق بن همام (المتوفى ٥١١ هـ) ، وغريب القرآن للسجستانى (المتوفى ٣٣٠ هـ) ، وغريب القرآن لأحمد بن محمد الهروى (المتوفى ٤٠١ هـ) ، وغريب القرآن لابن الشجشة ، وقانون التأويل للقاضى أبى بكر المغربى الأندلسى (المتوفى ٥٤٣ هـ) ، والكفيل بمعنى التنزيل للعماد الكندى (المتوفى ٧١٠ هـ) .

٢- **الحديث** : الأحكام الكبرى لعبد الحق الإشبيلى ، واختلاف الحديث للإمام الشافعى ، والآداب للإمام الحافظ البيهقى ، وجامع المسانيد ، والألقاب لابن الجوزى ، والجوهر النقى والحاوى فى بيان آثار الطحاوى والسنن الكبرى للبيهقى ، وشرح المعانى والآثار للعينى ، ومسند الإمام ابن حنبل ، ومسند الإمام راهويه ، ومسند الحافظ أبى عوانة ، ومسند أبو عبدالله المروزى ، ومسند الحافظ أبى نعيم .

٣ - **التاريخ** : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، وأخبار أبى نواس ، وأخبار سيبويه النحوى ، والإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وتاريخ دمشق لابن عساكر وهو ناقص (غير كامل) وعدد أوراقه ١٢٠ ، والأوراق للصولى (ناقص) وعدد أوراقه ٣٦ ، وتاريخ بغداد للخطيب (ناقص)، وتاريخ الحكماء لجمال الدين القفطى، وطبقات الأمم لصاعد الأندلسى ، ومسلم الوصول إلى طبقات الفحول لمؤلف كشف الظنون ، والسهم المصيب فى الرد على الخطيب ، وطبقات الحفاظ للذهبى، والطبقات الكبرى للسبكى ، وطبقات الشافعية وطبقات الشعراء لابن قتيبة وطبقات الفقهاء للإمام أبى إسحاق الشيرازى وطبقات ابن سعد وتاريخ العينى ، وطبقات حملة الذهب لابن الملقن ، وفضائل أبى بكر الصديق لابن العشارى من أصحاب القرن الخامس ، وفضائل أبى حنيفة النعمان لابن العوام ، وفضائل مصر لابن يوسف الكندى (المتوفى ٣٥٠) وهى منقولة عن النسخة الأصلية لكافور الأخشيدى ، واللباب فى الأنساب لابن الأثير، ومناقب الشافعى ومختصر المنتظم لابن الجوزى ، واختصاره أيضا له ، ومسالك الأمصار لابن فضل الله ومناقب الإمام الشافعى للرازى ، ومناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى ، وسيرة الفاروق لابن الجوزى ، والمنتظم لابن الجوزى ونهاية الأرب للنويرى .

٤ - **الأدب** : الأشباه والنظائر والبيان والتبيين للجاحظ ، وجمهرة أشعار العرب لابن دريد ، وحماسة البصريين ، وديوان الحافظ إبن حجر ، وديوان ابن الرومى ، وديوان ابن المعتز ، وديوان أبى نواس ، وديوان الأعشى ، وذو الرمة ، وديوان القطامى ، وديوان قيس بن الخطيم ، وديوان لبيد، وديوان المتلمس ، وروضة البلاغة والزاهر للزجاجى ،

وشـرح ابن جـنى علـى المتنبى ، وشــرح ديـوان أبى تمـام للصــولى (المتـوفى ٣٣٥ هـ) ، وشـرح ديوان الحطيـئـة ، وشـرح ديوان جـران العـود للإمـام السكرى (المتـوفى ٢٧٥ هـ) ، وشـرح ديوان الحطيـئـة المرزوقى على الحـماسة وشرح الحـماسـة ، لأبى العلاء المعرى ، وشرح ديوان الحـمـاسـة لابن جنى وشـرح ديوان خـريق الشـاعـرة الجـاهليـة، وشرح ديوان زهير بن أبى سلمى للإمام ثـعلب ، وشرح ديوان زهير للأعلم الشنتمرى ، وشرح عبيد الله بن قيس الرقيات للعسكرى ، وشـرح ديوان المنتـقب العـبـدى وهـو جـاهلى ، وشـرح المعلقـات لابن النحـاس، وشـرح المفضليات لابن الأنبارى ، وديوانِ سراقة بن مرداس ، وديوان شمـاخ ، وديوان عمر بن أبى ربيـعة ، وشـرح ديوان رؤبة ، وشـرح ديوان العـجـاج ، وديوان داود الدمشقى .

الآثار القديمة والأماكن الجديرة بالتنزه

لاتوجـد أى مـدينة تضـارع مـدينة القـاهرة من حيث وجـود الآثار القديمة ، والحقيقة أن التاريخ هنا موغل فى القدم ، ونجد معظم مبانى المدينة مـرصـع بمئـات الآلاف من الخزف الذى لايزال بـاقيًا حـتى الآن ، ومحفور عليها نقوش وكلمـات كتبت قبل عدة آلاف من السنين ، لكن من أين الوقت والهـمـة لمشـاهدة جـمـيع الآثار القـديمة ، ولاريب أننى زرت عدداً من الأماكن المشهورة وأكتفى بذكرها :

١- **الأهرام** : وهى أهرامـات قديمة ، وتذكرها عامة الروايات بأنها كانت موجودة قبل فيضان نوح عليه السلام ، ومن الثابت بشكل قاطع أن عمرها أقدم من النهضة العلمية لليونان لأن جالينوس ذكرها فى

كتابه ، وهذه الأهرامات كانت موجودة بكثرة هائلة ، وكانت منتشرة لمسافة يومين ، وقد هدم أكثرها فى عهد صلاح الدين ، وأن الذى تبقى منها ويطلق عليه الأهرام بشكل خاص ثلاثة أهرامات فقط وارتفاع أكبرها ٤٨٠ قدماً ، أى ضعف ارتفاع منارة قطب (فى دهلى) ويبلغ كل ضلع من أضلاع المصطبة السفلى ٧٦٤ قدماً ومكعب الهرم تسعةُ وثمانين مليون قدم ، ووزنه ست ملايين وثمانمائة وأربعون ألف طن ، وقد عمل فى بنائه مائة ألف عامل لمدة عشرين سنة ، ويبلغ طول كل حجر من أحجار الأساس ٣٠ فى ٣٠ قدماً ، وعرضها ٥ فى ٥ أقدام وتصغر وتضيق نحو القمة إلى ثمانية أقدام ، ووضعه على النحو التالى مصطبة مربعة فسيحة جدا ، وعليها مصطبة ثانية بنفس المساحة من كل طرف ، وهكذا وضعت المصاطب تدريجيا لتصبح على هيئة سلالم ، والمدهش حقا هو كيف تم وضع الأحجار هكذا ومعرفة الطول والعرض ، ولايبدو بها أى أثر للمونة أو للإسمنت ، وهى من الدقة والمتانة بمكان حتى إنه انقضى عليها بضع آلاف من السنين ولايبدو هناك أى فاصل بين أجزائها ولو قيد أنملة ، وبعد رؤية هذه الأهرامات سلمت - أردت أو لم أرد - بأن فن جر الثقيل موجود منذ قديم الزمان ؛ لأنه لايمكن تصعيد مثل هذه الأحجار الكبيرة إلى هذا الارتفاع بدون جر الثقيل ، ولو أدركنا أن هذا الإختراع خاص بالعصر الحاضر؛ فسوف نعترف بأى صناعة عجيبة فيما بعد .

وأصغر هذه الأهرامات أصابه قدر من التخريب ، وذلك فى سنة ٥٩٣ هـ حيث أراد الملك العزيز (ابن السلطان صلاح الدين) هدمه بتحريض من بعض الحمقى ، وهكذا فقد أمر عددا من كبار موظفى البلاط وكثير من العمال والنحاتين بهذا العمل ، واستمر العمل لمدة

ثمانية شهور متواصلة وعملوا بغاية الجد والنشاط وأهدروا مئات الآلاف من الجنيهات ، ولكنه أسفر عن تخريب القشرة الخارجية فقط أو حفر نصف حجر فى أحد المواضع ولم يخرجوا بأى نتيجة ؛ فاضطر الملك العزيز أن يتخلى عن رغبته (١) .

وبالقرب من الأهرام تمثال كبير جداً يطلق عليه الناس هنا اسم أبو الهول وجسمه بالكامل على الأرض ورقبته ورأسه ويداه كلها مكشوفة ، وقد طلى وجهه بنوع ما من الزيت الأحمر ، لازال موجوداً حتى الآن ، ونستطيع أن نقدر من تناسب تلك الأعضاء أن قامته لاتقل عن ستين أو سبعين متراً ، وبالرغم من طوله غير التقليدى فإن جميع أعضائه مثل الأنف والأذن وغيرهما قد أعدت بشكل متناسق ومتناسب ، وليس هناك فرق قيد أنملة فى تناسق الأعضاء مع بعضها البعض، وقد سأل شخص ما عبداللطيف البغدادى قائلاً: ما أعجب شىء رأيته فى الدنيا ؟ فأجابه قائلاً : تناسب أعضاء أبى الهول ؛ لأنه الشىء الذى ليس له مثيل فى عالم الطبيعة ، فالحفاظ على مثل هذا التناسب ليس عملا بشريا .

٢- **القلعة** : شيدت هذه القلعة فى عهد السلطان صلاح الدين ، ولم أستطع رؤية المبنى الأصلى للقلعة ، ولكننى دون شك زرت مسجد محمد على باشا ، وهو فى غاية العظمة والبهاء ، به كتابات ونقوش ذهبية على السقف والحوائط ، والمسجد بأكمله مفروش بالسجاد التركى الثمين ،

(١) ذكر عبد اللطيف البغدادى هذه الواقعة فى كتابه تاريخ مصر ممزوجة بالأسف (المؤلف) .

وبالقـرب من المسجد بئر عجيب ومدهش ، ويعتقد العوام أنه بئر يوسف (عليه السلام) وسجن يوسف (عليه السلام) الشهير ، ويذهب الناس لزيارته ، ولأن الاسم الأصلى للسلطان صلاح الدين هو يوسف ؛ لذلك وجد المجاورون في هذا ذريعة مناسبة لخداع العوام ، ومن الجدير بالذكر أن فيه قبراً يذكرون أنه قبر سيدنا يوسف عليه السلام ، وقد أراد السيد المجاور خداعى ، وعندما قلت له أين سيدنا يوسف (عليه السلام) هنا فقال على الفور : نسيت هذا قبر ذلك السجين الذى كان داخل السجن مع سيدنا يوسف (عليه السلام) وسأله عن تعبير رؤياه.

وهذا البئر فى الحقيقة غريب وعجيب ، وأستطيع تقدير عمقه ؛ فقد وجدت قاعه بعد أن نزلت ثلاثمائة درجة ، وقد عددت هذه السلالم بعناية فائقة ، والطريق مظلم إلى حد ما فلا يمكن أن ترى أى شىء بدون شمعة ، وهكذا فإن الناس الذين يزورونه يأخذون معهم شمعة ، وبعد أن وصلت إلى القاع قذفت حصاة فجاء صوتها بعد فترة ، ويتضح من ذلك أن الماء على مسافة بعيدة .

٣ – **المتحف** : وهذا المتحف أسسه محمد على باشا خديوى مصر سنة ١٨٣٥ هـ ، وتوجد حديقة حكومية على مسافة اثنى عشرميلاً يقع فيها المتحف، وتمتد عدة أميال طولاً وعرضاً ، ويضم المتحف قاعات لا حصر لها ، وهى مرتبة بشكل فى غاية الجمال ، ويوجد هنا آثار قديمة جداً لسيدنا عيسى عليه السلام مثل الأوعية والكؤوس ومئات من الأوانى من هذا النوع ، والتى تعود إلى عدة آلاف من السنين، وأغرب الأشياء وأعجبها هى الجثث التى مر عليها آلاف من السنين و مازالت باقية حتى الآن على حالتها الأصلية ، ويطلقون عليها فى العربية « موميـاء »

وفى الإنجليزية « مامى » ، وكان من عادة قدماء المصريين أنهم يصنعون تابوتا من الخشب أو الحجر على هيئة مركب ، ويضعون فيه جثث الموتى بعد أن يضعوا الجير وغيره من مواد حافظة فى الأماكن الفارغة ، ويضعون صورة الميت أعلى الغطاء ، وكانت الجثث تحنط بنوع خاص من الحنوط ، ولهذا السبب كان الجسد يظل محفوظًا من التحلل والتعفن ، ويوجد هنا كثير من التوابيت من هذا النوع ، ويسمونها مومياء ، أو موميا ، ومن بينها تابوتان أو ثلاثة توابيت مفتوحة ؛ أى أن الحنوط والمواد الأخرى أزيلت من عليها ، ولهذا السبب يبدو الجسم واضحًا وقد حدقت مليًا فى هذه الجثث، وبالرغم من مرور آلاف السنين لايوجد أى أثر للبلى على الجثة ، فالأظافر وشعر الرأس لازالت موجودة بحالتها ، ويعترى القلب تأثيرًا عجيبًا بمجرد رؤيتها ، وفى الحقيقة هل هناك عبرة أكبر من ذلك ؟!

٤ – **سجن يوسف عليه السلام** : أى سجن سيدنا يوسف عليه السلام ، وهو نفس السجن الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وكان سيدنا يوسف (عليه السلام) محلا للحسد بسبب حسنه المبارك ، كانت زليخا فى الحديقة تقول بحسرة ، وتذكر السجن الذى فيه زينة المجلس .

وقد ذكر العلامة المقريزى (أن المؤكد من الروايات والدلائل الصحيحة أن السجن الذى سجن فيه سيدنا يوسف (عليه السلام) كان فى هذا المكان) ، وقد تأسفت كثيرًا لأننى لم أستطع زيارة هذا المكان المبارك المثير للعبرة والعظة ، ولهذا السبب فإننى أذكره فقط اللهم لاتحرم أحدًا من أهل وطنى من زيارته عند وصولهم هنا مثلى .

والآثار الإسلامية القديمة موجودة هنا بكثرة ؛ فالمساجد ليس لها حدود فهى بالمئات بل بالآلاف ، وأقدمها على الإطلاق جامع عمرو بن العاص ، وهو من آثار زمن خلافة الفاروق (رضى الله عنه) وهناك مسجد مشهد الحسين ، ومن المعروف أن رأس الإمام الحسين (رضى الله عنه) المباركة مدفونة فيه ، وليس من المعلوم صحة هذه الرواية ، لكن الناس هنا بشكل عام يحترمون المسجد للغاية بناء على هذا الأمر ، كما أن الحكومة من جانبها تهتم به اهتماماً عظيماً ، وهو مسجد شامخ وفسيح ورائع ، وقد ضاعف أساسه المتكلف من رونقه وبهائه ، وقد فرش المسجد كله بالسجاد التركى ، وغالبًا ما يبدلونه بسرعة وباستمرار ؛ لأننى عندما زرته لم يكن عليه أثر للقدم والبلى قط .

وأغرب المساجد وأعجبها هو مسجد السلطان حسن ، وهو قريب من القلعة ، واستمر بناء المسجد لمدة ثلاث سنوات متصلة ، وكانوا ينفقون عليه يومياً مليونا درهم (خمسة آلاف روبية) وقد شرع فى بنائه فى سنة ٧٥٧ هـ وانتهوا منه سنة ٧٦٠ هـ ، ويطلقون عليه أيضا مدرسة السلطان حسن ؛ لأن به قاعات كبرى فى أطرافه الأربعة يدرسون فيها الحديث والفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، وقد كتب المؤرخ المقريزى إنه لا مثيل له بين المبانى الدينية فى سائر الدول الإسلامية ، ومع أننى لم أسلم بهذا الزعم ، لكن لاشك أنه ليس فى العالَم أى مسجد بهذا القدر من الارتفاع ، وللأسف الشديد فإن مثل هذه الآثار العجيبة والمدهشة مازالت مهجورة تماما ، وحتى فى الليل لا يضاء فيها مصباح ، ويبقى الباب مغلقًا فى كل وقت ، وقد قمت بفتح البوابة ودلفت فى الداخل فكانت الوحشة والخراب فى كل جنباته ، ومن الأمور الجديرة بالدهشة لايتم الاهتمام بمثل هذا المسجد العظيم فى دولة إسلامية .

والمزارات والمشاهد هنا بكثرة ، وتوجد كثير من الأوقاف للإنفاق عليها، وهنا مقابر عظيمة وأضرحة ذات رونق وبهاء للإمام الليث والإمام الشافعى والسيدة أم كلثوم والسيدة زينب أخت الإمام الحسين (رضى الله عنه) وقد زرت مقام الإمام الشافعى ، وكنت أرغب فى زيارة باقى الأضرحة ، لكن بعدما وصلت إلى هناك ورأيت الحالة استوحشت نفسى ما يحدث ؛ فتأسفت وقفلت راجعا ؛ فالمصريون يقررون أياما خاصة فى الأسبوع ، وطبقًا لمعتقداتهم فإن أرواح السيدة زينب والإمام الشافعى وغيرهما تهبط من العالم العلوى ، وتتجه ناحية مزاراتهم ويطلقون على تلك الأيام الخاصة اسم الحضرة ، وفى يوم الحضرة يمتلئ المزار ، ويأتى الناس لزيارته بكثرة ، وبعدأن يقبلوا القبر يطلبون حاجاتهم ورغباتهم ، والحالة التى كانت عليها الناس فى ذلك الوقت فيها شرك وعبادة للأصنام وإن وجد فرق ما فهو فرق طفيف ، ولم أستطع النظر إلى مثل هذا الأمر الظاهر .

إن مدارس العصر القديم التى ذكرتها بشكل إجمالى فى كتابى (كذشته تعليم) أى التعليم من العصر الماضى موجودة حتى الآن ، لكنها مهجورة ، وقد مررت على مدرسة بالصدفة عندما كنت أمشى فى الطريق ، ومع أنها كانت مجرد مدرسة عادية ، إلا أن المبنى جميل ومرتفع جداً وغرف إقامة الطلاب فى جوانبها الأربعة وفى وسطها صحن وفى الصحن عدد من نخيل البلح ، المهم أننا يمكن أن نقيس على حالتها ؛ فالمدارس الصغيرة على هذه الحالة من الخراب فى حين ستبقى المدارس الكبرى أكثر عظمة وتنظيم وجمال .

المطابع والصحف

من الضروري أن نذكر هنا تلك المطابع وباعة الكتب ؛ لأن الكتب المطبوعة في مصر منتشرة في جميع أنحاء الهند ، وقد نالت مصر شهرة عريضة في نشر وطباعة الكتب العربية .. المطابع هنا كثيرة جداً وبعضها جدير بالمدح والثناء، وخاصة مطبعة بولاق الحكومية عظيمة الشأن ، والتي ليس لها مثيل من حيث الطباعة الفاخرة ونوعية الورق وجمالها ، أسست هذه المطبعة عام ١٨٢٧ م بأمر من محمد علي باشا ، وكان يعمل فيها في ذلك الوقت أربعمائة رجل ، وهي على أحسن حال إلى الآن ، ولكن للأسف الشديد قلما تطبع الكتب الجيدة والنادرة بسبب الخلل في ذوق الدولة . إنهم لو طبعوا مائة أو مائتين من بين المخطوطات النادرة الموجودة في المكتبة الخديوية لأثروا العالم بمعلومات مفيدة ، ولقد تحدثت في هذا الموضوع مع المثقفين من العاملين في المطبعة ؛ فأجابوا قائلين إن هذا النوع من الكتب لا تلقى قبولاً عاماً ، وأن الكتب المقبولة للعامة تطبع مراراً وتخزن ، وقالوا - على سبيل المثال- إن كتاب الخراج للقاضي أبو يوسف والذي كان قد طبع قبل ثماني سنوات لم تصدر مجلداته حتى الآن ، وهذا أمر مؤسف ومخجل ؛ حيث تطبع كتب المكتبة الخديوية النادرة في أوربا وتنشر من هناك وسيد عبد الواحد طوبي تاجر مشهور يتعامل معه الأوربيون ، ويقوم بناء على طلباتهم بنسخ الكتب وإرسالها إلى أوربا .

وقد عرض على سيد عبد الواحد أجزاء منسوخة من ثلاث أو أربع مخطوطات ، كان قد نسخها لإرسالها إلى أوربا .

والكتب هنا رخيصة جداً ، وهذا من فضل مصر ، وبسبب هذا كان نفعها عام جداً ، وقد اشتريت كتباً كثيرة ، وكانت أقل سعراً من مطبوعات نولكشور (فى الهند) ، وعلى الناس الذين يريدون كتب مصر أن يطلبوها مباشرة من مصر ولايطلبوها من بومباى ؛ حيث لايقنع التاجر بمكسب أربعة أضعاف ، وعلى من يرغب فى مراسلة عبد الواحد طوبى من أجل الكتب المصرية فهذا هو عنوانه : مصر- القاهرة - بجوار الجامع الأزهر ، ويمكنه أن يرسل بدون تكلف عن طريق حوالة مالية بالروبية .

والصحف التى تصدر باللغة العربية من هنا يتجاوز عددها الثلاثين ، وأشهرها الأهرام والتقدم والمقطم والمؤيد ، وعلاوة على هذا تصدر نحو ثلاثين صحيفة ومجلة باللغة الفرنسية والإنجليزية .

وقد نالت الصحافة هنا حريتها بفضل الحكومة الإنجليزية ، ولهذا فإنهم يكتبون بحرية متناهية فى جميع المجالات فى هذه الصحف، وما أجمل ما يكتبون ، ولأن ما كتب من مؤلفات فى السياسة باللغة العربية قليل جداً ، كما لم يستطع علماؤنا فى الهند كتابة عدة أسطر فى هذه الموضوعات ، ولأن بعض العلماء كان يظن أن الأفكار السياسية لايمكن أن يعبر عنها على أكمل وجه فى هذه اللغة ، إلا أن صحف مصر قد ضحدت هذه الفكرة تماماً .

والمجلات الشهيرة هنا كثيرة أيضاً ، وبعضها كان ينشر بعناية فائقة وأشهرها : المقتطف والهلال ، وكانت مجلة الهلال تأتى عندنا فى

(لجنة الأدب)(*) وثمنها ثماني روبيات سنويًا ، وقد اقترحت على أصحاب الذوق من الأدباء أن يطلبوا شراءها ليستفيدوا منها .

المسرح

يوجد هنا مسرحان : أحدهما حكومي ، وهو الذي تم تشييده في عهد الخديو إسماعيل باشا ، وهو في غاية العظمة والبهاء ، لكنه كان مغلقًا في ذلك الوقت ، ولهذا لم أستطع زيارته ، والمسرح الآخر ملك لشركة نصرانية وقد زرته مرة واحدة ، الستائر والتجهيزات (الديكور) جيدة ، وكانت أحداث مسرحية : زنيوبيا ملكة اليونان (لا أنكر المكان) التي حدث بينها وبين قيصر الروم نزاع حول حدود الدولة ، وطلب القيصر من الملكة منحه بعض الممالك ، فرفضت الملكة، وتمت المفاوضات على هذا الأمر مرتين أو ثلاث مرات ثم قرعت طبول الحرب ، ودارت معركة حامية الوطيس ، والمرأة التي صارت ملكة كانت ملابسها أوربية تمامًا ، وفي خصرها سيف مسلول وقد زانها ولاق بها ، وأدت دورا تمثيليا جيداً ؛ فبعد أن سمع القيصر الرسالة من الرسول هب منتفضاً ولوح بالسيف ، وقال هذه الكلمات بلهجة ملؤها الغيظ (كيف نرضى بهذا الذل والهوان)(1) ، وصاحب ذلك إنشاد عدد من أشعار الفخر لعرب الجاهلية ولدت تأثيراً عجيبًا ، ولم يتغنوا بالأشعار ، لكن

(*) (لجنة الأدب) = هي جمعية أسست في دار العلوم منذ عام ونصف ويبحثون فيها موضوعات عدة في ثلاثة أو أربعة جلسات في كل شهر ، وكانت المحاضرات والخطب تلقى باللغة العربية ، بل كانت جميع أعمالهم تتم باللغة العربية ، وربما كانت هذه أول جمعية في جميع أنحاء الهند ، ويجب على مدارسنا العربية تقليدها (المؤلف).

(1) وردت هذه الجملة باللغة العربية في الأصل الأردي . (المترجم) .

كانوا يؤدونها بلهجة غيظ وحماس ، وحان وقت المعركة ، وحمل المتحاربون السيوف ، وتحاربا وجهًا لوجه ، وكانت السيوف تبدو لامعة ويسقط الجنود الذين يجرحون ، وكان يبدو من طريقة تعثرهم وسقوطهم على الأرض بلا قصد أنهم يسقطون بعد جرحهم حقًا ، وكان أكثر شيء أعجبني هو أنهم كانوا جميعًا يتغنون في نهاية المسرحية أغنية سلام للخديو ، ولم أتذكر الأغنية كاملة ، لكنى أتذكر بالضرورة هذه الكلمات:(العيش تم والنفع عم من الخديو المحترم) ، وهكذا كانت هناك كلمات عديدة أخرى متحدة القافية ، كان كل صوت يرتفع مع كل فقرة والألحان مصاحبة للهجة العربية ، ومن حيث القواعد الموسيقية يعتقد أن المغنون للحن سلام الخديو بهذا الحماس جميعهم من النصارى ، فكان لذلك تأثير عجيب في قلبي .

فالمسرح في رأيي سواء في الهند أو في مصر والبلاد العربية المشاركة فيه خلافًا للوقار والأدب ، لكن يبدو أن لكل شيء قيمة في الدول الإسلامية .

الجمعيات والأندية

الجمعيات موجودة هنا بكثرة وأهدافها مختلفة ، والجمعيات الخيرية هدفها إعانة الفقراء ومساعدتهم ، لكن من العجيب أنه ليس من بينها جمعية للمسلمين ، وتوجد هنا أيضًا جمعيات علمية عديدة منها جمعية العلماء المصرية التي أسست عام ١٨٥٩م [(١)]، والمجمع العلمي الجغرافي ، وقد أنشأه الخديو إسماعيل عام ١٨٧٥ م وهو أكثر فائدة

(١) جمعت هذه الجمعية معلومات وأبحاث نادرة جدًا تتعلق بالجغرافيا، وقد طبعت على هيئة رسالة مستقلة ثم نشرت ، ولهذه الجمعية مبنى خاص ومكتبة وغيرها من التجهيزات ، (المؤلف) .

وشهرة ونوادى الحوار أو مجالس المناظرة هنا كثيرة جدا ، ولهذا السبب سنحت الفرصة للمصريين لتطوير فن الخطابة والمحاضرات ، وقد شاركت بنفسى فى إحدى هذه المجالس ؛ فكانت منصة عالية فى مكان الصدارة ، وعليها كرسيان لرئيس الجمعية وسكرتيرها ، وكان عامة الحضور يجلسون على أرائك ، وكان أمامى خمسة أشخاص يتحدثون ، وكانت خطبهم فصيحة وقوية ومرتجلة ، وطرأت على الدهشة والحيرة ، والعجيب أن لغة الحياة اليومية العامة للمصريين بلا معنى وبها أخطاء نحوية ، ولكنهم يتحدثون بلغة عربية فصيحة فى هذه المجالس وليس بها تصنع وتكلف ، وقد تولدت الشجاعة والجرأة والأفكار المتحررة والفكاهة بشكل عام بين المصريين بسبب حرية الصحافة ، وهذا النوع من المجالس والمناظرات لا مثيل له فى هذه الممالك التركية أو جميع البلدان الإسلامية الحالية .

المولد النبوى

فى الحقيقة يجب الافتخار بالمصريين فى هذا الأمر ؛ فلو أردت أن تفهم المعنى الحقيقى للمولد فيمكنك أن تفهمه منهم ، فطريقة الاحتفال بالمولد هنا تتم فى قطعة أرض فضاء واسعة خارج المدينة أوقفتها سيدة فاضلة لهذا الغرض حيث ينصبون الخيام، والسرادقات بترتيب ونظام جيد فى ثلاثة جوانب من هذا الميدان ، وقد تركت ساحة فى الوسط على شكل صحن ، وكان هذا الصحن على شكل دائرة كاملة ، وقد رفعت الرايات الحمراء على جوانبها الأربعة ، ولأن الخيام والسرادقات كانت قاصرة على الباشوات والأمراء ، ولذلك أعدوها فى غاية الفخامة والأبهة ، وقد جهز كل باشا وكل أمير خيمته بأسلوب

مختلف ، وتضاء بالفوانيس والثريات بكثرة ، وكانوا يعدون الشاى والعصائر وأشياء من هذا القبيل فى جميع الأوقات ، وفى الوقت الذى يمر فيه أى شخص ويدخل الخيمة يقدم له الشاى أو العصائر فوراً.

وللخديو خيمة يشارك فيها نائب من قبله ، وهى حمراء اللون فى غاية الفخامة والجمال ، ويجتمع فى كل خيمة جماعة خاصة من الفقراء والصوفية ، ويذكرون الله طبقًا لطريقتهم ، وطريقة الذكر تختلف تمامًا عن طريقة دراويش الهند ، حيث يقف جميع الناس فى دائرة ويهتفون بصوت مرتفع معًا بكلمات خاصة بالذكر ، ويقتربون من الركوع مع هذه الكلمات ، ويأتون بحركات عجيبة برقابهم وخصرهم ، ولو نظر إليهم أحد من بعيد يخالهم يمارسون تدريبات رياضية ، وطريقة رقص الدراويش أكثر عجبًا ، والحقيقة أنها تحقر الفقر والتصوف وتسخر منه ، وملابس هؤلاء الناس لها شكل خاص لا أتذكر الشكل كاملاً ، لكننى أتذكر أنهم كانوا يرتدون سروالاً فى أسفل ويتمنطقون بمئزر أخضر فى خصرهم ، وكان هؤلاء الناس يجلسون فى صفوف ، والشخص الذى يريد الذكر منهم يبدأ بالرقص فى وسط المحفل ، ويذكر الناس أنهم يؤدون جميع أصول الرقص ، ولكن الذى رأيته كان محدوداً ؛ فبعد أن يقف الشخص ثم يلف ويطوف حوله ويظل يرقص هكذا قرابة الساعة ، لم تكن يده أو أى عضو يتحرك ، وهناك جماعة أخرى كانت طريقتها مختلفة عن هذه الطريقة إلى حد ما ، وكانت الملابس السفلية لهؤلاء الناس فضفاضة جداً وأثناء الرقص كان هؤلاء الناس يرقصون وأيديهم منبسطة .

لقد أسفت أشد الأسف لأن هؤلاء الناس يعتبرون هذه الطريقة غير اللائقة عبادة ، كما يعتقد كثير من الناس أنهم يصلون إلى مرتبة الغوث والقطب والأبدال والأوتاد، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

كان قد ورد ذكر الدراويش الراقصة ضمنًا ، والآن أعود إلى وصف الواقعة الأصلية أى المولد ؛ حيث يبدأ هذا الاجتماع فى أول الشهر ، ويتضاعف يومًا بعد يوم إلى أن يبلغ الزحام مبلغه فى الليلة الثانية عشرة ؛ فلا تجد موضع قدم إلا بشق الأنفس ، وفى الصباح يجتمع الناس فى مشهد الحسين (رضى الله عنه) وعلى رأسهم ممثل الحكومة والمفتى وشيخ الأزهر، ويلقى أحد العلماء خطبة عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان يقف طبقا للعادة أثناء ذكر مولد الرسول (عليه الصلاة والسلام) ثم ينتهى المجلس بعد فترة وجيزة وتنتهى معه سلسلة المولد .

لقد أعجبتنى هذه الطريقة فى الاحتفال بالمولد أيما إعجاب ؛ لأن الحماس والسعادة التى يجب التعبير عنها فى مولد الرسول (عليه الصلاة والسلام) يجب أن تكون بهذه الطريقة ؛ فأين الأبهة والشأن والشوكة فى الاجتماع من المجالس الصغيرة ؟ لكن هناك عدة أمور جديرة بالاعتراض أولها عرض الألعاب النارية فى اليوم الحادى عشر ، وهذا الأمر لا يليق بهذه المناسبة المقدسة .

ثانيها : أن الناس بعدما يرون هذا الاجتماع يقيمون المسارح وغيرها فى الشوارع بالقرب من باب الاجتماع ، والحكومة تريد أن تمنعهم حقًا .

نوابغ مصر ومؤلفاتهم المهمة

العلماء والمؤلفون هنا – مثل القسطنطينية – مجموعتان لكل منهما توجه مختلف تماماً عن الآخر؛ فبعض شيوخ الأزهر وتلاميذهم ينبغون فى تخصصاتهم مثل النحو والفقه ، إلا أن كل نبوغهم منحصر فقط فى حفظ الجزئيات ، والتى لا يشوبها شائبة ، وشيخ الأزهر نفسه الذى يطلق عليه إمام الفن ليس لديه أى مؤلف محقق فى أى فن ومع أن التعليم الحديث لم يخرج حتى الآن أى نابغة ، إلا أنه يتجلى فيه بريق الاجتهاد والتحقيق ومؤلفاتهم على نسق المؤلفات الأوربية وأذكر منها هنا بعض المشاهير من كلا المجموعتين .

على باشا مبارك

هو الذى قام بإصلاحات فى إدارة التعليم فى مصر ، وقد التحق بمدرسة الهندسة سنة ١٢٥٥ هـ ، وهو فى السادسة عشر من عمره ثم سافر إلى فرنسا مع أبناء محمد على باشا سنة ١٢٦٠ هـ – ونال شهادات مختلفة بعد أن أقام هناك عدة سنوات وأسندت إليه مسئولية إدارة مدارس ونظارة الأوقاف سنة ١٢٨٥ هـ وقام بخدمات علمية جليلة خلال هذه الفترة أصلح الكتاتيب وأسس المدارس فى المراكز والمحافظات وأسس دار العلوم وبنى المكتبة الخديوية وعين مديراً للتعليم سنة ١٢٨٥هـ وطور التعليم وله مؤلفات وكتب عديدة منها تكملة الخطط والآثار للمقريزى وكرمه ملك فرنسا وملك النمسا بالأوسمة الفخرية وكنت متشوقاً لرؤيته لكن لسوء الحظ كان قد ذهب فى ذلك الوقت إلى الإسكندرية مع الخديوى ، ثم توفى فى غضون ثلاثة أو أربعة شهور وشارك فى جنازته جميع أعيان الدولة ، وقد كتبت سيرة حياته ونشرت فى الوقت الحالى .

على باشا إبراهيم

هو مثقف متنور جداً سافر إلى فرنسا لتحصيل العلم فى سنة ١٢٦٠ هـ وقضى بها خمس سنوات حتى نال شهادة عليا وعين مديراً للتعليم سنة ١٢٩٦ هـ ، وأسس المدارس الأولى للمعلمين ، وقد منحته دولة فرنسا وسام من درجة فارس وهى لا تمنحه إلا لمشاهير العلماء .

أمين بك فكرى

وهو قاض فى المحكمة العليا ، تعلم فى فرنسا وسافر لحضور مؤتمر المستشرقين المنعقد فى السويد ممثلا للحكومة المصرية وألف كتاباً فى وقائع هذه الرحلة ومطالعته تدل على قوة أسلوبه ، ويباع هذا الكتاب بثمانى روبيات ، وهذا الكتاب جدير بالقراءة حقًا .

أحمد زكى

هو مدير مدرسة الترجمة يجيد اللغة الفرنسية بطلاقة ، ألف رسالة عن مسألة الرق باللغة الفرنسية ونالت قبولاً كبيراً ، وكتبت عنها صحف فرنسا المشهورة وكتابها تعليقات ومقالات حولها وقد ترجمت الرسالة الأصلية مع التعليقات إلى اللغة العربية ، ونشرت باسم (الرق فى الإسلام) وله مؤلفات مفيدة أخرى ، وقد سافر إلى لندن كممثل فى مؤتمر المستشرقين الأخير .

الشيخ محمد عبده

وهو من الذين تعلموا على الطريقة القديمة ، ويسلم بأستاذيته فى فن الأدب فى سائر مصر والشام وكتب شرحًا رائعًا لمقامات بديع

الزمان الهمذانى، وهو من دعاة التجديد إلى جانب أنه مستنير ، وهذا من آثار صحبته للسيد جمال الدين الأفغانى وقد ترجم له رسالة إلى اللغة العربية وكتب سيرة حياته بشكل مختصر فى مقدمته ، وأذكر هنا بعض فقرات منها ، وهى تدل على قوة بيان الشيخ المذكور ومهارته ، وعلى من يتصدى لفنون الأدب في بلدنا تقليد أسلوبه ومنهجه ، كما يجب عليهم اختيار أسلوبه فى كتابة الأحداث ، وأذكر فيما يلى أوصاف جمال الدين الأفغانى وحليته وأخلاقه وهو نموذج لأسلوبه : (أما خلقه فيمثل لناظر عربى محض ، فى طوله وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه ، عصبى دموى فى مزاجه عظيم الرأس فى اعتدال عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، هش بش عند اللقاء ، أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم وسيع ماشاء الله أن يسعى إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب ؛ فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب وهو كريم يبذل بيده قوى الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر سهل لمن لاينه صعب على من خاشنه وله سلطة على دقائق المعانى وتجديدها وإبرازها فى صورتها اللائقة لها كأن كل معنى قد خلق له كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكتافه[*] .

وقد قابلته وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث معًا طويلاً ، وكان يبدى أسفه على منهج الأزهر ، ومع ذلك كان يشكو مر الشكوى من التعليم الحديث

(*) وردت هذه الأوصاف باللغة العربية فى الأصل الأردى (المترجم) .

ويقول (هؤلاء أضل سبيلا) وللأسف فقد أسندت إليه الحكومة المصرية القضاء ، وكان مناسباً أكثر لإدارة التعليم ، وكان هو نفسه يشعر أيضاً بالأسف .

الشيخ حمزة فتح الله

هو من المتعلمين تعليماً قديماً ، وهو أستاذ فى الأدب ، وقد اختار منهج الأدب الذى يدرس فى دار العلوم ، وكان مفتشاً فى إدارة التعليم وقد عين عضواً فى السفارة المصرية ، وسافر لحضور مؤتمر الاستشراق بالسويد ، وقدم فيه رسالة خاصة بحقوق المرأة اسمها (حقوق النساء فى الإسلام) وقد طبعت هذه الرسالة فى المطبعة الحكومية ، وعلى الرغم من أنه كتب فى هذا الموضوع الأصلى قليلاً جداً ، والذى كتب كتبه الشيوخ ، ومع هذا فالجمل غاية فى الإتقان والسمو والقوة .

وقد التقيت به فى مكتب نظارة المعارف ، وأخذنا نبحث أمور علمية فترة من الوقت ، وقد منحنى خمس نسخ من هذه الرسالة المذكورة على سبيل الهدية ، وبعد أن نهض من الديوان أخذنى إلى بيته ، وأصر على دعوتى للطعام ، الطعام بسيط للغاية أى خبز جاف وتمر ، ولأنه كان من أساتذة اللغة العربية وله محبة وعلاقة خاصة مع العرب ؛ لهذا ظهر هذا الأثر فى طعامه العربى البسيط .

طرفة : كنا نأكل أنا والشيخ المذكور ؛ فوصل إلينا من قريب صوت نهيق فاندهشت من أين يأتى أنكر الأصوات هذا ؟ فرأيت حماراً مربوطاً فى إحدى الغرف ، وعلمت أن ربط الحمار فى البيت هنا ليس عيباً ، وقد رأيت أكثر الناس فى السوق وحتى الإنجليز يمتطون الحمير ويتجولون بها ، بل إننى نفسى نلت هذا الشرف مرتين ، ومع ذلك لم أكن أتوقع أن شرفاء الناس لديهم إصطبل للحمير مثل إصطبل الخيل .

نهاية الرحلة والأخلاق الكريمة للعرب

كانت نهاية رحلتى بالرحيل عن مصر ؛ لأننى بعد ذلك لم أشاهد أى مدينة جديدة ، كما لم تحدث أى واقعة جديدة ، لقد قضيت زمن الرحلة بأكمله – خلافا لما كان متوقعًا فى غاية الاطمئنان والتمتع والراحة .

لكن من الواجب على أن اذكر فى هذه المناسبة لماذا نلت المتعة والراحة ؟ وعلى يد من من الناس ؟ ولكل هذه الأسئلة جواب واحد فقط هو الأخلاق الكريمة للأتراك والعرب[١] ، الحقيقة أننى لا قبل لى بالأخلاق الكريمة للعرب فماذا أذكر من متع الرحلة ؟ إنه يصعب على ذلك ؛ كان هذا الأمر يتجلى فى كل مدينة أذهب للإقامة بها ، وفى الطعام والشراب ، واللقاء والتعارف ، والبيع والشراء والمشى والتنزه ، وفى بحث الأمور والتحقق منها ، وخلاصة القول فى كل شىء أن الحقيقة يعجز اللسان عن وصفها وأنا جاهل تمامًا باللغة التركية ، والقدر الذى كنت أعرفه من اللغة العربية كان عديم الفائدة أو بدون فائدة ، ولم أك ثريا إلى هذا الحد لكى أستطيع سد هذا النقص بإنفاق المال بلا حساب ، لقد عشت فى هذه المتعة مدة ستة أشهر، كأننى فى وطنى ، وكان هذا بفضل كرم الأتراك والعرب بصفة خاصة ؛ فقد كانوا يترجمون لى ، ويحضرون لى الحاجيات من السوق ، ويعرفوننى على الناس ، ويرشدوننى إلى الأماكن الجديرة بالنزهة ، ويشتركون فى المناقشات الحميمة ، المهم أنهم لم يتركوا أى عمل أو حاجة إلا وقد هيأوها لى ،

(١) أغلب مسلمى مصر والشام من أصل عربى لهذا السبب أذكر أن جميع المصريين والشوام عرب باختصار (المؤلف) .

وأكثر من كل هذا وذاك أن هذا كان يحدث بلا غرض وبدون مقابل، فقط من أجل الضيافة وإكرام الفقراء ، ومن المستحيل ذكر جميع تلك الأحداث الجزئية التى تدل على كرم أخلاق هؤلاء الناس معى ، بل أذكر عدة وقائع على سبيل المثال ، ويجب على من مر بهذه الظروف ذكر تلك الأحداث مرة واحدة ، والتى سبق أن ذكرتها عن كرم كل من عبد السلام أفندى والشيخ عبد الحليم أفندى وعبد الباسط أفندى وخوجى أفندى والشيخ على ظبيان والشيخ عبد الفتاح – فى الوقت الذى كنت مقيماً فيه فى القسطنطينية حضر شاكر أفندى ابن عم عبد السلام أفندى إلى القسطنطينية لرفع قضية مهمة أراد عبد السلام أفندى أن يجعله يقيم معه لكن لم يكن لديه مكان فى غرفته فقال لى : يقيم معك !!

وقد قبلت من أجله ، وعندما اقترب وقت رحيلى قال لى : (أنا أيضا أستعد للسفر ولو ترافقنا لكان أفضل) لكن ليس معى الآن نقود ، وقد أرسلت فى طلب بعض المال من البيت وأنتظر حضوره ، ولأنه كان من سكان بيت المقدس ، فقد فكرت فى أننى سأجد منه العون الكثير فى البحث والتدقيق عن كل شىء فى بيت المقدس بالإضافة إلى الراحة وهدوء البال ؛ فقلت له خذ منى النقود وسافر وردها لى هناك فرفض ، ومع إصرارى لم يوافق بأى طريقة ، لكننى أجبرته ولم أستطع قبول رفضه وسلمته النقود فى ذلك الوقت ، ولم يكن عبد السلام أفندى فى بيته آنذاك ، وعندما عاد من الخارج فى المساء ، وجاء ذكر هذا الأمر أثناء الحديث صدم بعد سماع هذه الواقعة واضطرب كثيراً ، وظل يردد قوله : شو فعلت شو فعلت [١] ؟ مع أن شاكر أخى ، لكنه مستهتر جداً وقد خدعك وأخذ منك النقود ، ومن حسن الحظ أن هذه النقود لم تكن

(١) وردت هذه الجملة باللغة العربية فى الأصل الأردى (المترجم) .

تعرضنى للخطر إلا أن عبد السلام أفندى كان أكثر اضطرابًا منى ، فحضر إلى البيت شاكر أفندى ولامه عبد السلام أفندى لومًا شديداً واستكتبه إيصالاً وشهدت عليها أنا وشخص آخر ، وأخذنى جانبًا وقال لى : الأمر يتعلق بسوء السمعة القومية ، ولذا فضح أخاه أمامى ، هذا الولد (شاكر) مستهتر المزاج وسيئ المعاملة وليس لديه أى أملاك خاصة به، ويكفله عمه عبد الرزاق ؛ فتسلم له هذا الإيصال وسوف يعطيك النقود .

المهم فى اليوم الثانى ركبت الباخرة أنا وشاكر معًا ، وعندما وصلنا إلى سمرنا وصلت برقية باسم شاكر من محاميه يدعوه للعودة فوراً ، فقال لى شاكر كيف أستطيع أن أتركك ، واعتبرت أن منعه غير مناسب وعاد بعد إصرار منى ورضا ، وبعد وصولى إلى بيت المقدس ذهبت عند عبد الرزاق مباشرة ، وبهذه المناسبة اضطررت أن أقول بأسف إنه كان سيئ الخلق معى كثيراً فلم يشتكِ ولم يعطنى النقود فاندهشت من سوء الأخلاق هذه ، وفى اليوم الثانى ذهبت عند المفتى (الذى ورد ذكره فيما سبق) وحكيت له القصة كلها وقدمت له الإيصال ، فأرسل فضيلة المفتى رجلا إلى عبد الرزاق ، فقال له على الملأ : ليس معى نقود الآن ، ولا غرو أننى أدفعها بعد عدة أيام ، ولأن فضيلة المفتى كان مطمئنا لذلك لاذ بالصمت بعد هذا الكلام ، لأننى سأحصل عليها بالتأكيد ، لكن الناس الآخرين كانواموجودين هناك ، وهم أعضاء فى أسرة عبد الرزاق ، كانوا يقولون بغضب ، « لا والله يبيع لحيته ويؤدى »[1]

(١) وردت هذه الجملة باللغة العربية فى الأصل الأردى (المترجم) .

وفى اليوم التالى ذهبت عند فضيلة المفتى فأعطاني المبلغ من عنده كاملا أى مائتا روبية ، فقلت « لا أريد آخذها ؛ لأنها من جيبك الخاص » فقال لا سلمها لى عبد الرزاق ، لكن لو لم يدفعها ولم يكن لدى المال لبعت هذه الجبة ، فكنت نادمًا جدا فى حضور المفتى وباقى الحضور ، وقد اعتذر لى هؤلاء الناس بإلحاح شديد ، وكانوا يقولون مرارًا « أنت لا تقل عن أعيننا » وعندما استأذنت للرحيل ودعنى فضيلة المفتى لمسافة طويلة وقال « المرجو منكم أن تستروا عيوبنا فإنه من شيم الكرام» [1] ، وكان المفتى والمصاحبون له قد ندموا على سلوك عبد الرزاق ، وطلبوا منى العفو مرارًا وأثره قائم فى قلبى حتى الآن .

والواقعة الثانية هى أننى بعد أن وصلت إلى الإسكندرية (كما سبق وذكرت) كنت مضطربًا جداً بسبب عدم خبرتى ، ولأن القطار قد تأخر لذلك ذهبت وجلست على مقهى ملحق بالمحطة ، وهناك حضر أحد العرب الشوام وعندما علم أننى رجل أجنبى تقدم إلى بحفاوة شديدة ، وكان ذاهبا إلى القاهرة فقلت له أنا رفيق السفر، وبسبب عدم خبرتى فقد تحملت المصاعب والمشاق فى كل مكان ، أريد أن أرافقك حتى القاهرة ، فقال على العين والرأس .

وهكذا سهل أمر السفر بسبب رفقتى له ، وعندما وصلنا إلى القاهرة ، طلبت منه أن يدلنى على فندق قريب من الجامع الأزهر ، لا تكون أجرته مرتفعة ، ورغم أننى طلبت منه أن يخبرنى باسم الفندق فقط ، لكنه أقام معى فى الفندق لمدة يومين ، وفى اليوم الثالث قال : جئت إلى

(١) وردت هذه الجملة باللغة العربية فى الأصل الأردى (المترجم) .

القاهرة لمهمة ما وأعود بعد يومين أو ثلاثة فلو تسمح لى أغادر ، وبعد أن قال هذا دفع ثمن الطعام وأجرة الطباخ لمدة يومين ، ورغم إصرارى وقولى له لماذا تدفع نفقاتى ؟ لكنه لم يوافق وقال لقد كنت ضيفى حتى ذلك الوقت ، قال هذا وبقيت متأسفًا جداً لأننى لن ألتقى به مرة أخرى .

حالة اللغة العربية

لأن إحدى مستلزمات الرحلة هى البحث فى اللغة المستعملة والرائجة هناك فى البلد الذى تكتب عن أحواله ، لهذا من الضرورى كتابة شىء عن حالة اللغة العربية ، وهى لغة أقاليم مصر والشام ، حتى يستفيد منها مواطنونا المتشوقون دائمًا لصحف مصر والشام ، لكنهم لا يمكنهم الاستفادة منها بسبب عدم معرفتهم للغة العربية الدارجة.

إن اللغة العربية المعاصرة مختلفة إلى حد ما عن اللغة العربية القديمة لدرجة أن أى عالم كبير من الهند لو سافر إلى مصر والشام فإنه سيستغرق فى فهم اللغة هناك نفس الوقت الذى يستغرقه أحد العوام تقريبًا ، فخصائص اللغة العربية المعاصرة تختلف عن اللغة العربية القديمة ، أذكرها فيما يلى بشكل مختصر :

١ - يختصرون كثيراً من الكلمات إلى حد لا يستطيع الذهن أن يتجه ناحية الكلمات الأصلية مادام لم ينكرها شخص ما ، وهذه بعض كلمات من هذا النوع :

الكلمة المتغيرة	الأصل	الكلمة المتغيرة	الأصل
شو	أى شىء	ماعليش	ما عليه شىء
موش	ماهو شىء	بلاش	بلا شىء
هيك	هكذا	قديش	قدر أى شىء
هاد ول	هذه هؤلاء		

٢ - يزيدون بعض الحروف فى بداية الكلمات أو فى آخرها ، والتى بها يتغير شكل الكلمة تمامًا فعلى سبيل المثال فان الشوام (فى بلاد الشام يضيفون حرف (ب) فى أول الأفعال المضارعة كلها ، فيقولون (ماباقول) و(ما باعرف) بدلاً من (ما أقول) وما (أعرف) وفى مصر يزيدون حرف (ش) فى نهاية الكلمات مثل (ياخذش) بدلاً من (يأخذ) .

٣ - هناك فساد كبير فى نطق الحروف ، بل يجب القول إن جميع خصائص نطق اللغة العربية قد محيت ؛ فهم يتحدثون بالهمزة بدلاً من العين والدال بدلاً من الذال ، والكاف الفارسية بدلا من الجيم ، والهمزة بدلاً من القاف ، ولا ينطق بهذه العوام والجهلاء فقط بل إن العلماء والأشراف أيضًا يؤدونها هكذا بهذه الحروف ، سألت طالبًا فى مصر ذات مرة من أين جئت ؟ قال جاى من الجمعة أى جئت من مسجد الجمعة .

٤ - تغير طريقة استعمال كثير من الكلمات القديمة ، فمثلاً عندما تمدح أى شخص أو تشكره فسوف يقول فى الجواب ، أستغفر الله انا لا أستحق ، أو عندما تصف أى أمر مثير للدهشة أمام شخص فإنه

يقول : أمان أو يقول على سبيل المثال ما غرضك (قصدك) من هذا ؟ فتقول شو بدك ، شو مخفف من أى شيء ، و(بد) هى نفس الكلمة التى نستعملها مع (لابد) .

٥ – يستعملون الكلمات الأوربية بكثرة مع تغيير طفيف ، وتحتاج من علماء العربية والإنجليزية إلى جهد وتدقيق لفهمها ، وفيما يلى أمثلة لعدة كلمات من هذا النوع :

الكلمات المعربة	الكلمات الأصلية	الكلمات المعربة	الكلمات الأصلية
تلغراف	تيلجراف	شلين	شلنك
بروجرام	بروجرام	غاز	جاز
قومندان	كماندر	بازابورت	باسبورت
قوماسيون	كميشن	أوربا	يورب
أفوكاتو	ايدوكيت	ميكانك	مشين
فوتوغراف		إمبراطور	
شلنك		لوندره	
باريز		بوسته	
جورنال		سيغارة	
جمباز		إنكلترا	

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

العنوان	المؤلف	المترجم
١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت . أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت . ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت . سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت . سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت . إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت . نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت · منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت · جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت . منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت . محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت · أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت . المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت . ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت . عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت · محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت · محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت · على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت . السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت . صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت · محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت · مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت · رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت . أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت . بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢–نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣–الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت . محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت . دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت . عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	الفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت . مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت . محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت . محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت . جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت . إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالى – سفورزا	ت . أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت . محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت . أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت . على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم | كازو ايشجورو | ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون | بارى باركر | ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى | جريجورى جوزدانيس | ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا | رونالد جراى | ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر | بول فيرابنر | ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا | برانكا ماجاس | ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق | جابرييل جارثيا ماركث | ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى | ديفيد هربت لورانس | ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر | موسى ماريا ديف بوركى | ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن | جانيت وولف | ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد | نورمان كيمان | ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر | فرانسواز جاكوب | ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل | خايمى سالوم بيدال | ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات | توم ستينر | ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال | أرثر هيرمان | ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان | ج. سبنسر تريمنجهام | ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١ | جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية | ميشيل تود | ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى | روبين فيدين | ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير | الانكتاد | ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى | جيلارافر – رايوخ | ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار | كامى حافظ | ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة | ك. م كويتز | ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض | وليام إمبسون | ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١ | ليفى بروفنسال | ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان | لاورا إسكيبيل | ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات | إليزابيتا أديس | ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة | جابرييل جرثيا ماركث | ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر | والتر أرمبرست | ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء | أنطونيو جالا | ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق | دراجو شتامبوك | ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم | دومنيك فينك | ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢ | جوردون مارشال | ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية | مارجو بدران | ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية | ل. أ. سيمينوڤا | ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ميكايت — ديف روبنسون وجودي جروفز — ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة — وليم كلى رايت — ت : محمود سيد أحمد

٢٥٨ – الغجر — سير أنجوس فريزر — ت : عُبادة كُحيلة

٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى — نخبة — ت : ڤاروجان كازانچيان

٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢ — جوردون مارشال — ت بإشراف : محمد الجوهرى

٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود — زكى نجيب محمود — ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٦٢ – مدينة المعجزات — إدوارد مندوثا — ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف

٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن — چون جريبين — ت : على يوسف على

٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة — هوراس / شلى — ت : لويس عوض

٢٦٥ – روايات مترجمة — أوسكار وايلد وصموئيل جونسون — ت : لويس عوض

٢٦٦ – مدير المدرسة — جلال آل أحمد — ت : عادل عبد المنعم سويلم

٢٦٧ – فن الرواية — ميلان كونديرا — ت : بدر الدين عرودكى

٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢ — جلال الدين الرومى — ت : إبراهيم الدسوقى شتا

٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١ — وليم جيفور بالجريف — ت : صبرى محمد حسن

٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢ — وليم جيفور بالجريف — ت : صبرى محمد حسن

٢٧١ – الحضارة الغربية — توماس سى . باترسون — ت . شوقى جلال

٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر — س. س. والترز — ت : إبراهيم سلامة

٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط — جوان آر. لوك — ت : عنان الشهاوى

٢٧٤ – السيدة بربارا — رومولو جلاجوس — ت · محمود على مكى

٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً — أقلام مختلفة — ت : ماهر شفيق فريد

٢٧٦ – فنون السينما — فرانك جوتيران — ت : عبد القادر التلمسانى

٢٧٧ – الجينات : الصراع من أجل الحياة — بريان فورد — ت : أحمد فوزى

٢٧٨ – البدايات — إسحق عظيموف — ت : ظريف عبد الله

٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية — فرانسيس ستونر سوندرز — ت : طلعت الشايب

٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر — بريم شند وآخرون — ت : سمير عبد الحميد

٢٨١ – الفردوس الأعلى — مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى — ت : جلال الحفناوى

٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية — لويس ولبيرت — ت : سمير حنا صادق

٢٨٣ – السهل يحترق — خوان رولفو — ت : على البمبى

٢٨٤ – هرقل مجنوناً — يوربيديس — ت : أحمد عتمان

٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى — حسن نظامى — ت : سمير عبد الحميد

٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٢ — زين العابدين المراغى — ت : محمود سلامة علاوى

٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى — أنتونى كينج — ت : محمد يحيى وآخرون

٢٨٨ – الفن الروائى — ديفيد لودج — ت : ماهر البطوطى

٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى — أبو نجم أحمد بن قوص — ت : محمد نور الدين

٢٩٠ – علم اللغة والترجمة — جورج مونان — ت : أحمد زكريا إبراهيم

٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١ — فرانشسكو رويس رامون — ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢ — فرانشسكو رويس رامون — ت : السيد عبد الظاهر

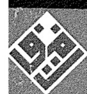
٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	ت. هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامي صلاح
٢٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراي	ت : سامية دياب
٢٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : علي إبراهيم على منوفي
٢٣٣ – الإسلام في بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٢٣٤ – لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمي
٢٣٥ – عصر الشك	ناتالي ساروت	ت : فتحي العشري
٢٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٢٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصاري
٢٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوي
٢٣٩ – تاريخ الأدب في إيران جـ٢	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٤٠ – اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخري لبيب
٢٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمي
٢٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٢٤٣ – العالم البرجوازي الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٢٤٤ – الموت في الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٢٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائي	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدي	ت : جمال الجزيري
٢٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٢٤٨ – المتصوفة الأولون في الأدب التركي جـ١	محمد فؤاد كوبريلي	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٢٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وأخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٢٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٢٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصاري
٢٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٢٥٣ – الفن الإسلامي في الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : علي إبراهيم على منوفي
٢٥٤ – الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : علي إبراهيم على منوفي
٢٥٥ – التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوي
٢٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعي
٢٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٢٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشاروني
٢٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربيني
٢٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢ – تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٢٦٣ – حركات التحرر الأفريقي	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٢٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٢٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٢٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٢٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٢٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٢٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت . فوزية العشماوى
٢٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٢٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٢٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت . وحيد السعيد عبد الحميد
٢٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت . على إبراهيم على منوفى
٢٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٢٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٢٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٢٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٢٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٢٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٢٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٢٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٢٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٢٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٢٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت . نخبة
٢٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٢٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٢٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٢٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٢٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٢٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – رية المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر

٤٠٤ – تعويذة الحسى   ديفيد إبرام   ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل   أندريه جيد   ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩   مانويلا مانتاناريس   ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه   أقلام مختلفة   ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر   جوان فوتشركنج   ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ – انتصار السعادة   برتراند راسل   ت : إلهامى عمارة
٤١٠ – خلاصة القرن   كارل بوبر   ت : الزواوى بغورة
٤١١ – همس من الماضى   جينيفر أكرمان   ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢   ليفى بروفنسال   ت . نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى   ناظم حكمت   ت : محمد البخارى
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب   باسكال كازانوفا   ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب   فريدريش دورنيمات   ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر   أ. أ. رتشاردز   ت : مصطفى بدوى
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥   رينيه ويليك   ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية   جين هاثواى   ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ – العصر الذهبى للإسكندرية   جون مارلو   ت : نسيم مجلى
٤٢٠ – مكرو ميجاس   فولتير   ت : الطيب بن رجب
٤٢١ – الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى   روى متحدة   ت . أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ – رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١   نخبة   ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ – إسراءات الرجل الطيف   نخبة   ت : وحيد النقاش
٤٢٤ – لوائح الحق ولوامع العشق   نور الدين عبد الرحمن الجامى   ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ – من طاووس حتى فرح   محمود طلوعى   ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ – الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان   نخبة   ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ – بانديراس الطاغية   باى إنكلان   ت : ثريا شلبى
٤٢٨ – الخزانة الخفية   محمد هوتك   ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ – هيجل   ليود سبنسر وأندرزجى كروز   ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ – كانط   كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى   ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ – فوكو   كريس هيروكس وزوران جفتيك   ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ – ماكياڤلى   باتريك كيرى وأوسكار زاريت   ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ – جويس   ديفيد نوريس وكارل فلنت   ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ – الرومانسية   دونكان هيث وجودى بورهام   ت : عصام حجازى
٤٣٥ – توجهات ما بعد الحداثة   نيكولاس زربرج   ت : ناجى رشوان
٤٣٦ – تاريخ الفلسفة (مج١)   فردريك كوبلستون   ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ – رحالة هندى فى بلاد الشرق   شبلى النعمانى   ت : جلال السعيد الحفناوى







رحالة هندى
فى بلاد الشرق العربى

اهتم شبلى النعمانى بتاريخ الأمة الإسلامية: فأخذ يوضح - من خلال مؤلفاته - عظمة هذه الأمة، وكانت رحلته إلى البلاد الإسلامية سعيًا منه للوقوف على نظم التعليم فى مدارسها ومعاهدها العلمية، والإفادة أيضًا من مكتباتها. ولا شك أنه أفاد من لقائه بالمفكرين المسلمين فى عموم البلاد الإسلامية والعربية، ولم يتحرج من ذكر هذه الحقيقة، ولم يتحرج تلاميذه والباحثون فى الهند من ذكرها أيضا: فمن المعروف أنه أفاد من محمد فريد وجدى حين كتب بالأردية عن علم الكلام، كما أفاد من أساتذة الأزهر المبعوثين إلى دار العلوم، وأفاد من الشيخ محمد رشيد رضا، وقد نشرت المنار مقالات علمية لشبلى، كما أفاد من علماء المدينة المنورة وتركيا.

وسفرنامه روم ومصر وشام التى اختار لها الدكتور جلال الحفناوى اسم «رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى» من مؤلفات شبلى المهمة التى أكملها أثناء عمله فى كلية «عليكره»، وكان قد كتبها بعد سفر طويل استغرق نصف عام، فجمع معلومات مهمة عن المدارس والمعاهد العلمية، وأسلوب التدريس والمناهج الدراسية، وهى معلومات يصعب أن نجدها فى كتاب آخر، وربما ينظر الأدباء فى الهند [illegible] الكتاب نظرة أخرى: فهم يعتبرونه جزءا من قصة حياة شبلى: فهو لم [illegible] مشاهداته فقط بل عبر عن أحاسيسه ومكنون قلبه، وعن غيرته على أم[illegible] سلوك المسلمين وتردى أحوالهم وتدهورها، وبخاصة الأحوال الا[illegible]

تصميم الغلاف: أسامة العبد

